obeikandl.com

المقهى الأوروبي

هذه الترجمة الكاملة لرواية

Café europa
Slavenka Drakulic

سلافينكا دراكوليتش

القطب الجنوبي

ترجمــة / محمد شحـاته
مراجعة / محمـد جـراح
الغلاف / هانيبال – هيبو

سلسلة من كل بلد كتاب - كتاب من كرواتيا
الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠١١

رقم الإيداع: ١١٤٦٥ /٢٠١١
ISBN: 978 – 977 – 6299 – 39 – 9

وكالة سفنكس
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد – القاهرة
ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أواقتباس هذا العمل أوأي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أواليكترونية أوميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أوأقراص مقروءة أوأي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية
Sphinx Agency © 2011

obeikandl.com

سلافينكا دراكولتش

المقهى الأوروبي

ترجمة / محمد شحاته

وكالة سفنكس

obeikandl.com

obeikandl.com

... مقهى أوروبا

إن إسم **فيينا** يبدو مألوفاً للغاية فى مدينة **صوفيا** البلغارية وذلك من خلال محل للفطائر ومقهى يتمتعان بشهرة كبيرة ويحملان الأسم ذاته **"فيينا"**. من خلال أحد نوافذ ذلك المقهى المطل على شارع **"تسار ليبيراتور"** يجلس الناس ملتفين حول الموائد الحديدية صغيرة الحجم والمطلية باللون الأبيض، يحتسون مشروب القهوة ذا الحجم الكبير من النوع غير التقليدي مثل القهوة البلغارية أو المقدونية أو التركية أو الصربية أو اليونانية، ويعتمد ذلك في المقام الأول على مكان ونوع المقهى الذي نحتسي فيه القهوة، حيث تقدم هنا بطريقة غير تقليدية في فناجين ذات حجم كبير تعلوها الكريمة المرشوش عليها قدر من الشيكولاتة، تماماً مثل التي تقدم في فيينا. هناك أيضاً عدة أنواع من الحلويات والفطائر **الفينية** - نسبة إلى **فيينا** - المحفوظة في فاترينة زجاجية مضاءة بمصابيح نيون. حيث نرى كعكة كريم الفانيليا الصفراء المخلوطة بأخرى خضراء مما يعطي اللون الرمادي الغث وذلك يعود إلى إضافة قطع من الخوخ والفراولة. لكن كل ذلك لا يضاهي الجاتوه **الفييني** الحقيقي المليء بالمكونات والتفاصيل الرائعة. في الواقع أن كل ما يقدم في مثل هذا المقهى لا علاقة له بالمدن الأوروبية الكبيرة إلا الاسم فقط.

المقهى الفييني الأخر يبدو أفضل قليلاً. أنه مقهى صغير،

obeikandl.com

حوائطه مدهونة بلوني الباستيل الوردي والبني الفاتح. نجد الشباب يجلسون حول موائد صغيرة من الرخام المقلد، يحتسي غالبيته مشروب الشاي ربما لأنه الشيء الوحيد الذي يقدرون على دفع ثمنه - حيث إن الأسعار هنا تكاد أن تصبح مثل الأسعار في **فيينا.** لكن الشيء الجيد في هذا المقهى هو أنهم يقدمون قطعة من البسكويت على قطعة من ورق المناديل، تماماً كما يقدم في **فيينا** - على ما أتصور. إن هذا النوع من التعقيد هو شيء جديد جداً في هذا الجزء من العالم.

عندما أتواجد الآن في **فيينا** أو أي عاصمة غرب أوروبية أخرى فلا أهتم بكيفية تقديم الشاي أو القهوة ربما لأنني واثقة من أنها سوف تقدم بطريقة معينة، ولذا فأنا لا أهتم بهذا الأمر. ما قد يمثل مفاجأة بالنسبة لي هو فقط عندما تقدم تلك المشروبات بطريقة غريبة أو بطريقة شرق أوروبية، عبارة عن عدة فناجين من الشاي المغلي بدون لبن، فقط شرائح الليمون الملقاة بدون أي عناية، بجانب فنجان الشاي الذي يكون في أغلب الأحيان أبيض اللون وينتهي بحافة زرقاء، تماماً مثل الفنجان الذي تجده في المدرسة أو الكانتين في المصانع، عموماً فإن أسلوب الخدمة في مقاهي مدينة **صوفيا** يغلب عليها الانطباع العام بعدم التوافق بين أسلوب الخدمة والمكان، حيث أن كل المقاهي التي تحمل أسم"**فيينا**" تريد إعطاء الإحساس بأجواء أوروبا الغربية، من الباستيل الملون والديكور المبالغ فيه، حتى وإن كانت هذه الصورة ليست بالضرورة على علاقة بالواقع.

تيرانا لا تختلف كثيراً في الميل إلى إعطاء أسماء أجنبية، رغبة في التميز والإختلاف. أما **مقهى أوروبا** - والذي يوجد منه أكثر من واحد على ما يبدو - فأنه يقع في وسط المدينة. تصميمه أقرب ما يكون إلى شكل الكشك المبني من الزجاج والمعدن والذي يوجد على شاكلته حوالي ٢٠٠٠ مبنية على نفس الطراز، والتي بدأت تظهر للوجود منذ حوالي عامين. وفي اليوم الذي تكون فيه الشمس ساطعة، تجد الكثير من الناس يجلسون خارج المقهى لإحتساء قهوة الإكسبريسو الرائعة على تلك الكراسي البلاستيكية البيضاء والتي أعتقد أنها تعبر عن ذوق رديء في غرب أوروبا على ما أعتقد، بينما ينظر إليها هنا في ألبانيا على أنها رائعة وجذابة، فهذا النوع من الأثاث حديث الآنتاج حيث كان لا يرى أو ينتج حتى وقت قريب. أما غالبية الزبائن في هذا المقهى هم من الشباب صغار السن، الذين يدخنون بشراهة، ويستمعون إلى موسيقى الديسكو والهارد روك الصاخبة. والآن صديقك يسألك: إلى أين أنت ذاهب؟ فترد عليه قائلاً: أنا ذاهب إلى **أوروبا**.....ألا يبدو هذا جيداً؟! أما بالنسبة للشباب فأنه يعتبر أن

أحد أهم مظاهر الحرية هو أن ترتاد مثل تلك المقاهي وتجلس في الخارج مرتدياً الجينز الواسع جداً ولديك شعر طويل جداً.

أما عن **بوخارست** فهي لا تقتفى أثر **تيرانا** و**صوفيا** حيث يوجد بها الكثير من المقاهي الخاصة الصغيرة البسيطة، غير مرتفعة الثمن ولكن في نفس الوقت فإن أسماء تلك المقاهي يدعو بشكل واضح إلى التغريب حتى وإن كانت تلك المقاهي صغيرة للغاية كثقب في جدار، إلا أنه يجب أن تحمل أسماً مثل **بوينت وست** كما أن محل بقالة صغير يسمى سوبر ماركت تجاهلاً أن هذا الدكان يحتوي على ٢٠ منتجاً فقط مما يجعل من الصعوبة بمكان إطلاق إسم ماركت عليه حيث أنه أصغر بكثير من **السوبر ماركت فعلى نفس السياق يمكنك الإستمتاع بقهوتك على مقهى آخر يحمل** إسماً غريباً من السهل تذكره مثل **"هوليوود"**.

أما نفسك في أحد شوارع **بودابست** فسوف تلاحظ بما لا يدع مجالاً للشك أن غالبية المحال تحمل اسم شركة أجنبية كبيرة مثل (مكدونالدز ـ كوكاكولا ـ شل ـ بنيتون) ولذلك فأنه من الصعب أن تجد فيما بينها إسماً مجرياً ظاهراً حتى إنك تشعر أنك بدون شك موجود في **باريس** أو **فيينا** بإستثناء أن أغلب البنايات غير متناسقة ومهملة بشكل عام، كما أن ما يرتديه الناس يختلف قليلاً والشوارع أكثر إزدحاماً بالسيارات، بالإضافة إلى أن هناك الكثير من سيارات **اللادا** و**الترابانت** والتي لا زالت تسير هنا وهناك، لكنني أستطيع أن أؤكد أنك لا تستطيع في أي بلد أوروبي أن تشتري حلوى من محل يدعى **"بونبونيرة هيمنجواي"** فمن المؤكد أن المالك يجب أن يكون أحد المعجبين بالكاتب أو ربما لا يدري بالمرة أن هذا هو إسم لكاتب كبير لكنه إختار الإسم فقط لأن له إيقاع موسيقى.

في مدن مثل **براغ** أو **براتيسلافا** أو **ليوبلانا** والمدن الكبيرة الأخرى في شرق أوروبا، وحتى في بعض القرى تستطيع أن تأكل أو تشرب أو تنام أو تختار ملابسك أو تقوم بالترفيه عن نفسك في أماكن مثل **بونجور** أو **تارجت** أو **فور روزيس** أو **ليدي** أو **ذى إند** وبعض الأسماء الأمريكية ولكنها أقل أنتشاراً. تلك عينة للظاهرة المستفحلة والتي أدت بدورها إلى إرتفاع الأصوات المحتجة وخصوصاً في تلك البلاد التي يرتفع فيها الحس القومى مثل كرواتيا، وقد كتب أحد الصحفيين في واحدة من أكثر الجرائد اليومية إنتشاراً هناك ـ مبيناً أسباب قلقه الشديد أن السائحين الذين يزورون **زغرب** ربما قد ينخدعوا ويعتقدوا أنهم يزورون **إنجلترا** بدلاً من **زغرب**. قد يكون هذا الموضوع مثيراً للضحك إذا لم يكن قد تم طرحه للنقاش في البرلمان الكرواتي بشكل جدي، حيث تقدم أحد النواب بإقتراح قانون

يؤدي إلى إجبار الشركات على أن تستعمل إسماً كرواتياً، لكن الذي لا لم يفهمه هذا الصحفي بالطبع هو أن الهدف من إستعمال تلك الأسماء الغربية هو إعطاء الإحساس بأنك قد أصبحت في الغرب، فليس هناك عقيدة قومية أو حتى ذلك القانون الأخرق تستطيع أن تستوقف أو تحد من تلك الرغبة العارمة في التأكيد على أن زغرب وكرواتيا ينتمون للغرب. ظاهرياً يبدو هذا السلوك كأنه مجرد وسيلة لجذب الزبائن، ولكن ذلك له مدلول أكثر عمقاً، إذ أنه يعكس صورة صادقة لكيف يرى الناس أنفسهم في هذه البلاد، أو بالأحرى كيف يود الناس أن يروا أنفسهم. في الوقت الحاضر لم يعد مفهوم الثورة في دول شرق أوروبا هو جلب الديموقراطية وإقتصاد السوق الحرة، فقد حدث هذا بالفعل حتى وإن لم يكن كما كان متوقعاً إلا أنه برغم هذا موجود، وكبديل لذلك أصبحت الثورة موجودة في تفاصيل اليوم الصغيرة، مثل أصواتنا وتعبيرات وجوهنا وكيف نبدو.

أصبحت الأسماء الأجنبية هي أقصر الطرق وأروعها لنقل ما تهدف إليه الثورة. فعند إستعمالك ببساطة إسماً كهذا فأنت لا تقدم مجرد صورة بل نظام كامل من القيم كما أن تلك الأسماء تفصح عن شوق ورغبة يرجعان إلى ما هو مستقر في الإدراك عن غرب أوروبا، وفي نفس الوقت يتم إستعمالها كنوع من الحدود، وذلك لسعيهم إلى التنكر من أوروبا الشرقية وقت خضوعها للنظام الشيوعي القديم. في واقع الأمر أنه غير ممكن إيجاد الدلائل الكافية التي تبين وتؤكد أن تلك المجتمعات لم تعد بالضرورة تلك المجتمعات الشيوعية الفقيرة والمتخلفة والبدائية العجوزة والتي تنتمي إلى شرق أوروبا. ألا تستطيع أن ترى أننا ننتمي أيضاً إلى الغرب بإستثناء أننا كنا في المنفي لمدة نصف قرن؟!

إذا سألت طفلاً يركب فوق عصاة خشبية: ماذا تفعل؟؟ فسيرد الطفل بدون تردد أنه يركب حصاناً، فبالنسبة لطفل هذه القطعة هي فعلاً بمثابة حصان. أنه تماماً مثل مناداة شئ ما بإسم آخر، فأنت قادر على تحويل هذا الشيء إلى الصورة التي تريدها عليه أو ما تريده أنت أن يكون عليه، فأنت تستطيع أن ترسم لنفسك خيالاً لحظياً للجنة، متخيلاً أنك تملك القوة الإلهية. وحتى هذه اللحظة لم يقل أحد لأطفال أوروبا الشرقية أن العصاة الخشبية ليست حصاناً! تخيل الموقف بصورة عكسية، مثل فيضان مفاجيء في باريس أو لندن بإسم مثل تيرانا أو دورس أو بلجراد أو الشرق أو حتى نابرداك وتعني التقدم أو بوبييدا وتعني الآنتصار، أنها أسماء مرتبطة تماماً بالنظام الشيوعي. إن هذا لا يعني أن مقابل هذه الأسماء غير موجود أو غير مستعمل في عواصم أوروبا ولكن العدد القليل

المستعمل من هذه الأسماء يطلق على أماكن إلتقاء المهاجرين التي يخيم عليها الحزن. والتي تعد الوسيلة التي لم يختاروها للتعبير عن إختلافهم، عن أنهم جزء من أوروبا الشرقية.

هناك مقهى **أوروبا** في فيينا وذلك في شارع **كارنتنر شتراسه** وهو نقطة الإلتقاء الرئيسية للشوارع المخصصة للمشاه، هذا المقهى هو عبارة عن جزء من فندق **أوروبا**، أما مقهى أوروبا الثاني فهو عبارة عن بار في منطقة جانبية بالقرب من شارع **ماريا هيلفر شتراسه**، داكن اللون ومتلىء بالضجيج ورائحة البيرة الكريهة، وهناك أيضاً مقهى ثالث بالقرب من قصر **بلفيدير**، والمقاهي الثلاث مجتمعة لا يحمل أي منهم أي نوع من التراث أو الثقافة لأنه لا يوجد داع لإيجاد نوع من الرمزية، فلا يوجد هناك أي نوع من القيم الثقافية التي يحملها سواء الاسم أو الديكور.

في عام ١٩٩٠ ـ أرادت **كرواتيا** كدولة حديثة الإستقلال أن تبعد نفسها قدر المستطاع عن الجزء الأخر الغير أوروبي مثل **يوغسلافيا** السابقة أو العدو الصربي ـ أعيد تسمية أجمل سينما في زغرب بـ **"أوروبا"** بعد أن ظلت لعدة عقود تحمل إسم **"البلقان"** ففجأة أصبحت كل الأسماء القديمة ترمز إلى الماضي والبدائية والحرب أو بالأحرى بشيء غير أوروبي. أما بالنسبة للإسم الجديد فأنه يحوي في ثناياه الكثير من القيم الإيجابية المتداخلة، ففي المقام الأول تأتي تلك القيمة التي تؤكد الإبتعاد عن الماضي والتي تشير إلى أن **كرواتيا** كانت جزءاً من المملكة **النمسومجرية** ـ نسبة **إلى النمسا والمجر** ـ وذلك حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، بينما تقع **صربيا** في عمق **البلقان** (**الكروات** لا يعرّفون بلدهم بإعتبارها كانت جزءاً من **البلقان**) وظلت تحت الحكم التركي لمدة ٥٠٠ عام كما أن هناك أيضاً ميلاً للتأكيد على أن **كرواتيا** كانت دوماً تنتمي إلى الجزء ذي المذهب الكاثوليكي الأكثر تطوراً في أوروبا وذلك على النقيض من جيرانها ذوي المذهب الإرثوذكسي، فهي تمثل الضمير المسيحي والسلوك المتحضر بالإضافة إلى القيم البرجوازية.

"أوروبا" تحتوي على كل ما يريد الناس أن يصلوا إليه، أو ما يتمناه الناس وليس ما هم عليه، كالحال تماماً عندما نغير اسم سينما فإن ذلك يعطينا إمكانية أن ننقل أنفسنا بخطوة بسيطة من **البلقان** إلى **أوروبا** بغض النظر عما يعنيه هذا.

عندما نستعمل إسم مثل **"أوروبا"** فإننا نفترض جدلاً أن الجميع لديهم إدراك لما يعنية إختيار مثل هذا الإسم، الشيء المؤكد أن هذا الاسم لم يعد دالاً على كل الدول التي تقع في القارة، لكنه يدل فقط على الجزء الغربي منها، وهو مسمى ذو مدلول جغرافي وثقافي

وتاريخي وسياسي، فقد تم تقسيم أوروبا تبعاً للتطور التاريخي لأجزائها مثل الشيوعية والتي يحيط الفقر بأغلب أجزائها، كما أن هناك بعض الدول التي كانت تنتمي في الأصل إلى الجزء الغربي من أوروبا مثل تشيكوسلوفاكيا والمجر والتي وجدت نفسها ضمن الكتلة الشرقية. إن دول شرق أوروبا التي كانت شيوعية لديها جميعاً في الوقت الراهن رغبة مشتركة وواضحة جداً هي دفع خط التقسيم تجاه الشرق إلى أبعد ما يكون، مما يؤدى إلى أن يكون مدلول أوروبا شاملاً للجميع في قارة غير مقسمة، مما حدا بهذه الرغبة نفسها لتحديد خط التقسيم الفعلي، أما الغرب نفسه فلم يعد يشعر أن الموضوع يعنيه أو أن يسمح لتلك الدول الواقفة على معابر حدوده بالدخول. أنه فقط ينظر ليستقبل تلك الدول المحظوظة التي تستطيع أن تتوافق مع معاييره، ومن ثم يمكنها الآنضمام إلى الإتحاد الأوروبي أو حلف الناتو أو أي من منظماته الأخرى.

إذاً ماذا تعني أوروبا في المخيلة الشرق أوروبية؟ أنها ليست بالتأكيد مسألة جغرافية فقد إجتزنا هذه النقطة فيما يخص هذا الموضوع من معابر ولا داعي لبذل مجهود للوصول إليها. أنه أمر بعيد المنال، أنه أمر يمكن تحقيقه، أنه أمر يستحق أن نبذل المجهود من أجله. أنه شيء مرتفع الثمن وذو جودة عالية فالملابس الجيدة لها هيئة معينة ورائحة خاصة ينبعثان من الأشخاص الذين يرتدونها. إن أوروبا شديدة الثراء والتنوع من حيث الغذاء والسيارات والأضواء، فكل شيء عبارة عن مهرجان من الألوان والتنوع، أنها كثيرة البدائل والإختيارات والجمال، فهي تمنح الإختيار بدءاً من نوع الشامبو وصولاً إلى الأحزاب السياسية، فهي تمثل حرية التعبير، أنها الأرض الواعدة بيوتوبيا جديدة، أنها مصاصة لولي بوب. ومن خلال التليفزيون فإنك تجد تلك الـ"أوروبا" في شقتك وبألوان فاقعة جداً إلى الحد الذي يصعب معه أن تكون حقيقية.

بعد كل ذلك نجد أنفسنا غير بعيدين عن وضع تعريف عما تعنيه أوروبا. ربما يكون الإقتراب عن طريق النفي أكثر إفادة: فأوروبا هي عكس ما نحن فيه وما نريد التخلص منه، أنها التخلص من الشيوعية ومن الخوف والتجريد من الحقوق. يصف الكاتب البوسني جيفاد كاراسان فندق أوروبا بالمؤسسة النمسومجرية في وسط سراييفو كنقطة ثقافية وجغرافية حيث يتقابل الغرب بالشرق، وقد دمر هذا الفندق أثناء العدوان على سراييفو، هكذا إختفت أوروبا من سراييفو. وكذلك فعلت المدينة والقرى الصغيرة، حتى الناس فقد غادروا أيضاً وهم محبطين من أوروبا التي لها الكثير من الوجوه فلا يجب علينا أن ننسى ذلك أبداً.....

والآن هل يستطيع أحد أن يقول أين تكون أوروبا اليوم، وكل ما تدعو إليه من مبادىء، من أين تبدأ وإلى أين تنتهي؟ ربما فكرة أن دولة شرق أوروبية يجب أن تستحق الانضمام إلى أوروبا، أي يجب أن تكون مؤهلة لذلك بطريقة ما قد أصبحت فكرة عليها الكثير من التحفظات. خلاصة القول أنه منذ مائة عام مضت في الولايات المتحدة الأمريكية كان السود غير معترف بهم في تعريف القارة أما الآن فإن السكان الأفروأمريكيين ومساهمتهم في الولايات المتحدة لا يمكن فصله عن أمريكا ذاتها. ربما يتوجب على دول شرق أوروبا أن تساهم بشيء إيجابي وذي قيمة في أوروبا اليوم هل هو الفن أو التنوع والتعدد الثقافي بشكل عام؟ هل هي نموذج للسياسي ذي الأخلاق كما قدمه فاتسلاف هافيل؟ أو ربما تكون هي أهم مهارة إنسانية على الإطلاق، ألا وهي القدرة على التشبث بالحياة في ظل ظروف مستحيلة؟

إن أوروبا ليست كالأم التي تدين لأطفالها الذين تم إهمالهم منذ فترة طويلة، كما أنها ليست تلك الأميرة التي يجب أن تتنحى من أجلها، كما أنها ليست الفارس الذي أرسل ليحررنا، كما أنها ليست تفاحة أو قطعة من الكيك نستمتع بها أو فستاناً حريرياً وبالطبع ليست هي تلك الكلمة الساحرة "ديموقراطية". أغلب الظن أن أوروبا هي ما نصنعه نحن كدول وأفراد بأنفسنا من أجلنا.

... حوائط غير مرئية تفصل بيننا

أصابني هلع شديد عندما تفحصت جواز سفري حيث إن تصريح إقامتي في أمريكا قد إنتهت مدة صلاحيته. الغريب في الأمر أن سبب الهلع لم يكن رغبتي في السفر إلى الولايات المتحدة ولكنها عادةً تملكتني ـ بإعتباري مواطنة من دولة شيوعية سابقة. فمن خلال خبرتي التي إمتدت لسنوات عديدة أعرف أن تصريح الإقامة الذي يسمح بمرات دخول متعددة ويسري لمدة عام يجعل من السهل جداً دخول أي بلد في غرب أوروبا. لكننا الآن في عام ١٩٩٥ لم نعد نعيش في يوغسلافيا الشيوعية بل في كرواتيا الديموقراطية وهو نفس الحال بالنسبة للرومانيين أو البولنديين أو البلغار. إذاً لماذا لم تختفي تلك الرهبة من الحدود؟ لماذا تنتابني تلك الحالة من الشد العصبي تماماً كما كان الحال فيما مضى؟! ما الذي تغير الآن بالنسبة لنا نحن الشرق أوروبيين عند العبور إلى غرب أوروبا عن العصر الشيوعى السابق؟

لقد إعتقدنا أنه بعد عام ١٩٨٩سوف نستقبل بالترحاب في أوروبا الموحده. إعتقدنا أننا سوف نصبح بطريقة أو بإخرى وبشكل رسمي كما كنا فيما مضى، أعني بذلك "أوروبيين"، في النهاية نستطيع أن نتواصل مع الاخرين مثل الفرنسيين أو الألمان أو مع السويسريين لكننا في واقع الأمر كنا مخطئين لتغذية هذا الوهم.

لقد أصبح من السهل اليوم رصد دليل يعبر بشكل كبير عن وضعنا اليوم في أوروبا. هذا الدليل سيكون بإنتظارنا عند عبور أية حدود غربية أنه وجه ضابط شرطة الحدود الصارم الذي ينظر دائماً إلينا بإستعلاء حتى وإن لم يقل كلمة.

هذه النظرة لم تتغير فقد حفظتها عن ظهر قلب فلا أزال أتذكر رجال شرطة الحدود الذين كانوا ينظرون إلينا بنفس تلك الطريقة

حيث كانوا يدركون تماماً أن تلك النظرة سوف تصيبنا بالتوتر في الوقت الذي كان يجب علينا عدم الإفصاح عن المبلغ الذي بحوزتنا أو إن كنا نكذب بخصوص الخالة المتوفاة والتي كان من المفترض أننا سنقوم بزيارتها أو عن تلك الزجاجة من البراندي المعتق المصنوع في المنزل.

ثم بعد ذلك تأتي النظرة الثانية: أنها نظرة ذلك الموظف الذي يتابع من خلال شاشة الفحص بآشعة إكس والذي لديه شك في أن الجميع يرغب العمل في بلده بطريقه غير قانونية وذلك إذا لم يكن لا سمح الله طالباً حق اللجوء. بمجرد أن يصلك الإحساس بمثل هذه النظرة من الشك فلن تستطيع أن تنساها أبداً وتستطيع بعد ذلك أن تتعرف عليها وتشعر بها من على بعد أميال.

ربما أنا نفسي لا أملك أن أشكو كثيراً فيما يخص مسألة عبور الحدود فقد غادرت يوغوسلافيا لأول مرة عام ١٩٥٧وكنت ذات ثمانية أعوام مع جدتي حيث كنا في زيارة لإحدى خالاتي في إيطاليا ولا أزال أتذكر أنه كان على خالتي أن ترسل خطاب ضمان. في هذا الوقت كان موضوع الساعة في العائلة هو الحديث حول هذا الخطاب، متى سيصل؟ وهل سيكون ذلك كافياً حتى تسمح لنا السلطات بالخروج؟ فقد كنت آنذاك في سن يسمح لي بإدراك أن الكثير من الناس لم يكن مصرح لهم بالسفر إلى الخارج في هذا الوقت فقد كان هذا السفر الكثير من الرفاهية بالنسبة لي ولذلك حتى قبل أن أبدء الرحلة فقد قمت بإخبار كل أصدقائي وزملائي في المدرسة وكل الجيران مما أعلى كثيراً من شأني.

جاءت خالتي من مدينة أنكونا. وكنت قد شعرت بإعياء شديد في طريقنا إلى نابولي كما أصابتني حالة من القيء الشديد. هذا هو كل ما أتذكره من هذه الرحلة، على آية حال عند رجوعي إلى المنزل أحسست بنشوة الآنتصار التي كنت أستحقها فقد رأيت العالم!!.

منذ أواخر الخمسينيات أصبح موضوع السفر أسهل بكثير وتقريباً فإن كل مواطني يوغوسلافيا أصبح لديهم جواز السفر الذي يسمح لهم بدخول أوروبا الغربية بدون تصريح دخول مما جعل مواطني يوغوسلافيا يشعرون أنهم أعلى شأناً من سائر الدول الشيوعية الأخرى والتي كان مواطنوها مجبرين على البقاء ببلدانهم.

كان المواطنون اليوغوسلاف أيسر حالاً فقد كان دخلهم يسمح لهم بالآنتقال كسائحين من أجل المتعة وأيضاً من أجل التسوق حيث يقومون بشراء كل مالا يستطيعون الحصول عليه في بلدنا.

إن الملايين من اليوغسلاف الذين سافروا للخارج في السبعينيات والثمانينات والتسعينيات لم يكونوا مهاجرين لأغراض إقتصادية أو

سياسية بل على النقيض فقد سافروا لكي ينفقوا أموالهم، وعلى الرغم من ذلك لم يتم الترحيب بهم كما لو أن أموالهم لم تكن جيدة بما فيه الكفاية أو كما لو أن هذه الأموال لها رائحة شرق أوروبا!!.

في البداية كان البوليس اليوغسلافي يرتاب فينا بسبب وجود قواعد صارمة بخصوص نقل الأموال خارج البلد، وقد كان من غير الممكن تغيير عملتنا المحلية إلى عملة أجنبية من البنك لذا كان لزاماً علينا أن نحصل على ما نحتاجه من السوق السوداء. بعد ذلك كنا نودع النقود التي تم تحويلها بشكل غير شرعي في حساب ونستطيع بموجبه أن نحصل على شهادة، بعد ذلك كان في مقدورنا صرف الكمية المسموح لنا بأخذها عند سفرنا للخارج ـ لنقل مثلاً ١٥٠ دولاراً ـ ولم يكن هناك أي شخص لسؤالنا من أين لك هذا؟

على كل الأحوال كانت تلك الشهادة مجرد ورقة تستخدم كغطاء لإخفاء كمية أكبر من النقود لذا كان يعترينا الخوف من شرطة الحدود الذين كانوا يعرفون أن بحوزتنا من النقود أكثر بكثير مما هو مسموح لنا بحيازته وكان الأمر يتوقف على حالتهم والتي على أثرها يكون البدء في إستجوابنا والبحث عنا. عند دخولنا البلد الأجنبي بعد ذلك لم يكن رجال شرطة الحدود مسرورين لرؤيتنا حيث إن أي مواطن من دولة شيوعية كان يصنف مشبوهاً، لذلك كان يجب أن يتم إستجوابه لإثبات أحقيته فيما بحوزته من نقود، حيث كان لزاماً عليه حتى وقت قريب إنكار حيازته لأموال أخرى، وتأكيد مدة إقامته وأين ولماذا!!.

أتذكر أنه في أواخر الستينيات كان أفضل شيء هو أن تقول إنك في زيارة لأحد أقاربك (في بعض الأحيان تكون مطالباً بتقديم خطاب يؤكد ما تقول) ذلك أن رجل شرطة الحدود كان يعتقد إلى حد بعيد أن ما بحوزتك من نقود غير كاف لشخص بمفرده. ولاحقاً في السبعينيات والثمانينات كان يكفي أن تقول إنك ذاهب للتسوق حتى وإن كان ذلك غير حقيقي. غير أن الشعور بالذنب يتضاءل في كل مرة أقترب من ذلك الصندوق الزجاجي حيث كنت أشعر بتوتر شديد بمجرد أن ينظر إلى ذلك الشرطي من خلف الزجاج بمجرد أن يبدأ في مراجعة بيانات جواز سفري، كما لو أنه لايصدق أنني لست بمجرمة مطلوب القبض عليها تحاول الفرار من بلدها.

أحياناً كنت أستفيد من ميزة أنني إمرأة وأقوم بإعطاء إبتسامة لطيفة، قد تنفع وقد لا تنفع، عموماً لا نستطيع أن نجزم بالنتيجة. في أحدى المرات كنت على وصول في مطار باريس من نيويورك وبمجرد أن قمت بإعطاء إبتسامتي لرجل الشرطة، أصدر الأمر بتفتيش حقائبي. بالطبع أنا لم أكن بريئة فقد كان بحوزتي جهاز لاب

توب وكنت أحاول أن أقنع شرطي الجمارك أنني أصطحب الجهاز معي إلى بلد ثالث حتى لا يجعلني أسدد رسوم جمركية على الجهاز (إستطاع المرء أن يحفظ القواعد الجمركية في البلاد التي يزورها عن ظهر قلب) لأن رحلتي التالية سوف تكون صباح اليوم التالي لذلك كان لزاماً على أن أدخل فرنسا، وقد كان رجل الجمارك مصراً على أن يجعلني أسدد الرسوم الجمركية لكنه تركني أمر بعد نقاش طويل لكن ما حدث أكد ما يعتقده بأن الشرق أوروبيين ليسوا محل ثقة حتى وإن إبتسموا أو ربما بسبب ما فعلنا. كل ذلك جعلني أكتشفت أنك إذا كنت شرقي أوروبي فلا توجد قواعد!.

أعرف تماماً أن الأشخاص الذين اهتموا جداً بمظهرهم وهندامهم كي يكونوا مرغوبين إنما أرادوا أن يلقوا قدراً أكبر من التقدير والإهتمام لكن فيما يبدو أن هؤلاء الأشخاص وجهوا الرسالة الخطأ وهي أن هذا يعني أنك في الوقت الراهن شخص متورط في أعمال غير قانونية كشيء وارد الحدوث بسبب سفري الدائم فقد مررت بكل أنواع الفحص والتفتيش فيما عدا ذلك الإختبار المهين بشدة للكرامة والذي بموجبه يتم فحص أعضائي التناسلية (آجل فقد وقفت عارية في تلك الكابينة الصغيرة الموجودة في كل نقطة عبور على الحدود).

إن عملي في الخارج في تلك الأيام كان يفرض على أن أضع الكثير من الأمور في الإعتبار لأنتقل من مكان لآخر بدون مشاكل بينما من كان في مثل موقفي من مواطني أوروبا الغربية لم يكن يعير مثل هذه الأمور أدنى إهتمام. على ما أعتقد أن هذا هو ما يسجل الإختلاف الحقيقي بيننا. لكن على الرغم من كل هذه الصعوبات كان العمل هام بالنسبة للآفراد القادمين من يوغسلافيا لأننا كنا نستطيع تأدية ذلك العمل في الوقت الذي لم يكن يستطيع مواطني دول شرق أوروبا الآخرين ذلك. لقد كان ذلك أيضاً نوعٌ من العصيان ضد النظام الشيوعي بأن نجعل أنفسنا مستعدين دائماً للتصدي إلى أية محاولة تهدف إلى الإساءة إلى أفكار أو نظام حياة الغرب. اليوم أرى أن الأمور لم تسر على هذا النسق. كان جيلي هو الأول الذي إستطاع أن يسافر بكل حرية لكننا كنا نسافر بكثير من النفاق، والتملق، وكنا نصدق إلى حد ما تؤكده العقيدة الشيوعية من أن السفر للخارج لا يستطيع أنً يؤثر علينا. بالإضافة لذلك أننا سافرنا وعرفنا إننا غير مرحب بنا في أوروبا الغربية، لكن في واقع الأمر أن مثل تلك التعقيدات تمت معادلتها بحقيقة أن مواطني الدول الشيوعية الأخرى لم يكن يحق لهم العمل. فقد كان يكفيك أن تذهب إلى براغ أو بودابست لتشعر إنك أعلى مقاماً أو أفضل شأناً.

لكن هذا كان بمثابة خطأ كبير فالتحول التاريخي قد حول يوغسلافيا السابقة إلى أكثر الأماكن عنفاً في أوروبا كما أن نقطة تفوقنا الواضحة قد تم تدميرها.

على كل الاحوال فقد كنت محل عدم ثقة وغير مرحب بي حتى أنني تعرضت للإهانة أثناء سفري فقد كنت أسرع بالسفر كلما سنحت الفرصة بذلك. فقد كنت أذهب لشحن طاقاتي، لشراء كتاب ومشاهدة أفلام وأيضاً مقابلة أشخاص يجذبونك للإلتقاء بهم ومعرفتهم. إن العمل بمثل تقريباً بالنسبة لي نبض حياتي أو الطاقة التي تجعلني قادرة على الإستمرار. لقد كنت أحتاج للقيام بهذا العمل لأن الفكرة المستقرة في قرارة نفسي أن البقاء في مكان واحد طوال الوقت هو شيءٌ يشبه الموت تقريباً، وقد كافحت بكل ما استطيع لجمع المال اللازم لجعل ذلك ممكناً آلا وهو تحمل النفقات اللازمة للحصول على مستوى معيشي أفضل. حتى يومنا هذا فما أزال غير قادرة على رفض أي دعوة توجه لي لحضور مؤتمر أو إلقاء محاضرة في بلد فأنا أشعر ببساطة أنه يجب على أن أذهب كما أشعر أنه ليس لدىّ سبب حتى أرفض مثل هذا العرض. الآن أصبح الأمر أكثر سهولة حيث أنه يتم تحمل كل نفقاتي عندما أكون مدعوة. لكن هذا لا يعني أن هناك شيئاً حقيقياً قد تغير.

أنا متزوجة من رجل سويدي وكونه غرب أوروبي هو أمر غير ذي أهمية بالنسبة لي باستثناء عندما نسافر سوياً. منذ مدة قصيرة كنا مدعوين سوياً إلى أوسلو في النرويج. تجهيزاتي للرحلة لم تكن تسير بشكل متوازي مع ما يحتاجه هو من تجهيزات. كل ما كان يحتاجه زوجي هو حجز تذكرة السفر وحزم حقائبه في اللحظات الأخيرة قبل السفر. أما فيما يخصني فقد كان لزاماً على أن أبدأ في تجهيزاتي قبله بكثير، فقد كان يجب عليَّ أن أتصل بالسفارة لأعرف إذا كان لزاماً عليَّ كمواطنة كرواتية أن أتقدم لطلب الفيزا، في هذه الحالة لم أكن مطالبة بالحصول على الفيزا ولكن إذا كان مطلوباً مني تقديم الفيزا فأنه يجب عليَّ أن أعرف كم من الوقت أحتاج للحصول عليها (إن تصريح السفر لكندا على سبيل المثال يحتاج إلى يومين لأنه يجب عليك أن تسافر من زغرب إلى فيينا للحصول عليها)، وكم يتكلف هذا، بالإضافة إلى ما يجب على أن أقدمه من وثائق للحصول تصريح السفر هذا مثل تحقيق الشخصية الخاص بالطلبة، خطاب من صاحب العمل، صورة من كشف حسابي الخاص بالبنك أو شهادة موثقة تثبت ملكيتي لعقار في بلدي. وعادة لا يتوقف الأمر عند هذا فبعض البلدان مثل بريطانيا تحتاج إلى نوع آخر من الضمان وهو يتمثل في خطاب الدعوة. ويجب أن يكون هناك شخصٌ ما يكون

ضامناً لك فكونك قادم من بلد شرق أوروبي فإنك لست محل ثقة. وحتى الآن فهم غير راغبين في تصديق أنك قد أتيت إلى بلدهم في رحلة عمل، ناهيك عن كيف ينظرون إليك إذا كنت قد أتيت كسائح عادي ببساطة.

دائماً ما يعيد هذا إلى ذاكرتي خطاب الضمان ذلك من خالتي التي تقيم في إيطاليا منذ حوالي أربعين سنة.

في شهر يناير الماضي شاهدت بعيني مشهد من الإهانة الشديدة في مطار هيثرو في لندن. حيث كان هناك رجل وزوجته من كبار السن الكروات يتم إستجوابهم لأنهم ترانزيت في لندن في طريقهم إلى باربادوس لقضاء عطلتهم!. سائحون من كرواتيا ذاهبون إلى باربادوس؟! هل سمع أحد بشيء من هذا القبيل؟! بدأ الرجل وزوجته في تقديم إيضاحات تفصيلية مطولة كما قاموا بتقديم تذاكر سفرهم وحجوزاتهم للفنادق وأيضاً تصريحات السفر التي بحوزتهم وربما أيضاً ما بحوزتهم من نقود وقد كان كل شيء على ما يرام تماماً.

من خلال نبرة صوتهم تعرفت على ما يشعرون به في هذه اللحظة، أنه ذلك الشعور بالرهبة والخوف تماماً كما حدث لي كثيراً فيما مضى. بعد ذلك يستطيع المرء أن يجزم أن ضابط الشرطة المتغطرس المسئول في نقطة فحص جوازات السفر يفترض تلقائياً أن أي شخص قادم من هذا الجزء من العالم لا يمكن أن يكون أي شيء آخر سوى مهاجر محتمل ولذلك فهو يمثل خطراً!!!!.

إجراءات تجهيز السفر الطويلة ليست هي الفارق الوحيد بيني وبين زوجي السويدي فعندما نقترب من كابينة فحص جوازات السفر في المطار فعليه فقط أن يمرر جواز سفره والضابط المسئول يشير له بالمرور بدون حتى أن يزعج نفسه بالنظر داخل جواز السفر. أو حتى مؤخراً فأنه يستطيع إختيار أن يخرج من المكان المخصص للطيران الداخلي ومواطني أوروبا!، وذلك بالطبع أفضل من المكان المخصص لـ"الآخرين" والذي يجب على أن أمر من خلاله. أنه ها هنا أمام تلك النافذة الزجاجية ذات الفتحة الصغيرة يبدء الحائط غير المرئي بين الشرق أوروبيين والغرب أوروبيين. في أول الأمر فأنه يتفحص جواز سفري بعناية شديدة كما لو أنه غير متأكد إذا كان جواز سفري أصلي أم لا ثم بعد ذلك فأنه بعد ذلك يبدء في مراجعة إذا كان إسمي مدوناً في لائحة المجرمين الخطرين أو المطلوب القبض عليهم. أما أول سؤال يوجهه لي فهو: "ما هي المدة التي تنوين إقامتها؟" عادةً فأنه يكفي أن أريه تذاكر السفر مما يجعله لا يسترسل في طرح تلك الأسئلة. إذا لم يتوقف فأنا أعرف أن السؤال التالي سيكون: "كم تملكين من المال؟" وهذا السؤال يجعل دمي

يغلي. هل هي حقيقة لمجرد أنك قادم من بلد غرب أوروبي فإن هذا يكفي لكي تصنف كشخص ثري؟!. على كل فقد أعددت نفسي جيداً للرد على هذا السؤال أيضاً لذلك فأنا أقوم بكبح غضبي وأريه الشيكات السياحية التي أحملها فقط من أجل الإجابة على سؤاله هذا بالتحديد. إذا استمر في الإصرار على طرح الأسئلة عن مكان إقامتي فأنا أريه خطاب الدعوة الذي يوضح بعد كل هذا أنني "مدعوة" إلى بلده اللعينة وإنني لست متسللة!!!.

هذا ربما ـ فقط ربما ـ يجعلني أنال بعض الإحترام، ولكن حتى هذا الإحترام فأنه كاذب حيث أنه لا يزال غير واثق في أنه يعتقد أن هذا الخطاب ربما يكون ملفقاً. الآن أشعر أنني شخص فقير وحقير وأشعر بالخزي، تلك هي حالتي عندما خطوت أولى خطواتي في بلد غرب أوروبي.

هل يجب عليّ أن أتوتر لأن زوجي السويدي غير ملزم أن يجيب على أي من هذه الأسئلة؟! ببساطة أي من هذه الأسئلة لم تطرح عليه بالمرة.

ربما يكون هذا هو ما يشبه التطهر فقد قلت لنفسي أنني على وشك العبور إلى الجانب الأخر. تسمرت عيناي على أحد مشاهد عبور الحدود حيث لمحت مجموعة صغيرة من الغجر والألبان أو اللاجئين من اليوسنة مفصولين حتى عنَّا مما جعلهم في وضع شديد الإهانة. بمجرد أن نظرت إليهم للحظة كنت أعرف وهم يعرفون كما أن ضباط البوليس يعرفون أن الحدود موجودة، وأن مواطني دول شرق أوروبا سوف يكونون مواطنين من الدرجة الثانية لفترة طويلة مستقبلياً، و ذلك بغض النظر عن سقوط الشيوعية أو القرارات السياسية الأخيرة. إن بيننا وبينهم هناك حائط غير مرئي. أجل إن أوروبا قارة مقسمة وفقط هؤلاء الذين لايستطيعون السفر إلى أوروبا ليرونها بأنفسهم قد إعتقدوا أن الشرق أوروبيين والغرب أوروبيين ممكن أن يصبحوا سواسية. إن الحقيقة الوحيدة التي أستطيع قراءتها في أعين رجل الشرطة هي أننا ببساطة لسنا كذلك، الأكثر من ذلك أنه يبدو لي أن مواطني الدول الديموقراطية الجديدة أصبحوا محل شك أكثر من ذي قبل لأنهم أصبحوا قادرين على السفر للخارج أكثر مما سبق.

أصبحت الآن قلقة على زواجي في حالة إمتداد هذا الفصل العنصري إلى أبعد من ذلك، فسوف أجد صعوبة شديدة في إقناع زوجي أن سبب زواجي منه هو الحب وليس من أجل أن يقف خلفي في بعض نقاط التفتيش على حدود الدول الغرب أوروبية فقط من أجل أن يردد تلك الكلمات السحرية : "أنها زوجتي".

obeikandl.com

... لماذا لم يسبق لي زيارة موسكو بالمرة

حدث هذا في مؤتمر أدبي في إنجلترا في عام ١٩٩٥، وكنت قد بدأت بالمشاركة في مثل هذه المؤتمرات في أواخر الثمانينات، وهي أنَّ فكرة المؤتمر الأدبي أصبحت مشوشة بالنسبة لي. فقد كنت معتادة على شيء مختلف تماماً يمكن أن نقول أنه كونجرس الأدب، لأنه كانت هناك مناقشات لا تنتهي عن المفكرين وعن القوى السياسية، عن الرقابة والرقابة الذاتية، عن أهمية أن تكون كاتباً أو مفكراً بوجه عام أكثر بكثير من التحدث عن الأدب نفسه. بمرور الوقت مع إزدياد خبرة المهرجانات بالخارج إتضحت لي فكرة الإحتفال بالأدب وتناول قراءات والتحدث عن الأدب خارج الإطار السياسي الملزم، أنه بالأحرى نوع من إنعاش الذاكرة. في هذه الإحتفالية وبعد أن قمت بتقديم ورقة العمل الخاصة بي تمت دعوتي إلى مائدة نقاش مستديرة حول موقف الكتّاب في شرق أوروبا بعد أنهيار الشيوعية. كان يوجد منا عشرة كتّاب من كل أنحاء شرق أوروبا. فأنا أتذكر جيداً الكاتب الألباني والروماني والتشيكي والبولندي والروسي والمجري يجلسون في مائدة نصف مستديرة في مواجهة الجمهور مع الإحساس في نفس الوقت بنوع من الإثارة كنا على دراية بأننا نستطيع أن نعبر عن أنفسنا باللغة الانجليزية بشكل جيد ولكن في نفس الوقت بقدر كبير من الرهبة بالإضافة إلى ذلك لم نكن نعرف ماذا كان يجب علينا أن نقول. لكن منظمي الإحتفالية قد إقترحوا علينا بشكل ودي أن يبدأ كل منا بالحديث عن تجربته الذاتية ثم يلي ذلك الحديث عن بعض الأفكار العامة ثم تلخيص ما آلت إليه الحياة في بلداننا بالنسبة للكتاب والفنانين والمثقفين.

لقد شعرت بعدم الراحة بسبب هذا التقسيم الواضح بيننا وبينهم، أعني الغرب أوروبيين. فأنا لم تعجبني فكرة أن أجلس في دائرة نقاش لا يجمعنا أي شيء مشترك، حتى اللغة مختلفة، فيما عدا ذلك حقيقة أننا جميعاً جئنا من بلدان شيوعية سابقة من نفس المكان في العالم. وإني لأتسائل لماذا لا زلنا نلقي في سلة واحدة سواء كنا شيوعيين أو شيوعيين سابقين؟. متى سيكون لنا الحق أن نُقبل بشكل نهائي بما نحن عليه ككُتّاب بأسمائنا نحن وبكتبنا؟ الخلاصة هي أنني لم أشاهد أي دائرة نقاش من كتاب غربيين أو حتى بريطانيين يناقشون موضوعات سياسية أو إجتماعية أو إقتصادية خاصة ببلدانهم أو الشعور بأنهم مجبرين على إبداء أراءهم بخصوص هذه الموضوعات.

على الرغم من إعتقادي أنه أخيراً خلال الأعوام القليلة الماضية لم نعد ملزمين بفعل ذلك إلا أنه في سياق هذا في مدينة شلتنهام وجدنا أنفسنا جنباً إلى جنب معاً وينتظر منا أن نتحدث في كل الموضوعات، من التغييرات السياسية إلى الحرب، في الدين وفي البطالة. هناك تغير فيما يحدث الآن عما كان يحدث فيما مضى، حيث كان يتوقع مواطنو البلاد التي جئنا منها هم الحديث في مثل هذه الموضوعات بينما الآن مواطنو الدول الغربية هم من يتوقعون منا الحديث في مثل هذه الموضوعات على أساس إقتناعهم وتمسكهم بفكرة أن الكاتب الشرق أوروبي هو ضمير شعبه. وقد جعلني هذا أؤكد أثناء حديثي إلى الجمهور في شلتنهام أن أداء هذا الدور ليس بالأمر السهل. فعند سؤالنا المشاركة في نقاش المائدة المستديرة كان المتوقع منا أن نؤكد بشكل عام على كبرياء الكاتب الشرق أوروبي أكثر من ذكر ما كنا نريد التحدث عنه.

لا أدرى إذا كان أحداً من الزملاء شعر بمثل ما شعرت به لكن أدبهم الشديد منعهم من قول ما لديهم حقيقة في قلوبهم. ربما كانوا يشعرون أنهم مجبرين على ذلك لكرم مستضيفينا لأنه بالنسبة لغالبيتنا فإن الوسيلة الوحيدة للسفر للخارج هي الدعوة إلى حلقة نقاش مائدة مستديرة، ونحصل على تذاكر السفر مدفوعة مقدماً وغرفة في فندق مناسب بالإضافة إلى مبلغ من المال كمصروف جيب. قد نكون أحراراً الآن ولكننا لا نزال في غاية الفقر لذلك لم يكن سهلاً على زملائي أن يفصحوا عما بداخلهم في إطار هذا النقاش. كان هناك كاتبة من نفس البلد التي جئت منها والتي إتخذت موقفاً مناقضاً لنا على طول الخط. وتابعت قائلةً: أنه لشيء مؤسف حقاً أن تحاول الإبتعاد بنفسك عن مفكري الدول الشيوعية السابقة عندما يكون لدينا جميعاً نفس التجربة والخبرة التي تحدد ماهيتنا كبشر وأيضاً كمفكرين فلا فائدة من إنكار ذلك أو محاولة الهروب من ماضيك فنحن جميعاً ملتصقين بهذا. كانت نبرة صوتها تبدو حزينة و مستسلمة لقدرها.

إن هذه النظرة الصارمة بشدة بها بعض الحقيقة وأنا أعتقد أن كلاً منا لديه الحق في وجهة نظره فأنا أصر بشكل مستديم على حق الكاتب في فرديته، أما هي فأنها لا تنكر هذا الحق وإنما إمكانية تحقيق ذلك على أرض الواقع، وبإعتبار أنني في تلك الأمسية ألقيت نظرة فاحصة على الجمهور الموجود في القاعة كان يجب على أن أقر أنه في أعين الجمهور قد تم وضعى في حزمة واحدة دون تفريق مع باقى الكتاب الموجودين.

كان الإحتفال الأدبي الذي شاركنا فيه في مدينة "سبا"والكثير من الأفراد الذين يقيمون في هذه المدينة هم من الأثرياء المتقاعدين. منذ أن أصبح هذا الإحتفال أحد الأحداث القليلة التي تحدث هناك، فقد كانوا يأتون إلى حلقات القراءة والنقاش مبديين الكثير من الإهتمام، الرجال بشعرهم الأبيض والعصى التي يتعكزون عليها للسير والأجهزة الصغيرة المركبة على الأذن لتحسين السمع، والنساء يتحركن بخفة ورشاقة والكثير من الحلي الذهبية حول أعناقهن والإبتسامات البريئة على وجوههن، بالإضافة إلى بعض المثقفين المحليين والصحفيين ومدرسي الأدب. وجهاً لوجه مع نظراتهم المرتبكة وأسئلتهم السطحية رأيت أن هناك بالتأكيد بين الكتاب والجمهور ـ أياً كان متطوعاً أو متعاطفاً ـ حدوداً أو عوائق واضحة. فالجمهور لم يكن لديه ببساطة خلفية من المعلومات توضح لهم عما يدور حديث هؤلاء الكتاب الجالسين على المنصة. بمواجهة هذا النقص في الفهم لم يكن لدى أي إختيار آخر سوى التعلق بزملائي الكتاب من شرق أوروبا، على الأقل فأنهم يعرفون عما كنت أتحدث، على الأقل فهم كل منا مشاكل الأخر حتى وإن كان هذا مريحاً لشخص واحد فقط منا. وفي حالتي حتى وإن صرخت بصوت عال: إنني لا أنتمي إلى أي مجموعة إلا أن الجمهور كان قد وضعني في جعبة واحدة معهم.

ربما للمرة الأولى التي أدرك فيها كم كنت متعبة كوني أُدفع للخلف بشكل متواصل للرجوع إلى المكان الذي جئت منه في كل مرة حاولت فيها أن أحرر نفسي من هذا الإطار.

إستمرت محاولتس للخروج من الجعبة التي تجمعنا معاً، عن ماضينا المشترك، حتى أنني في هذه اللحظة في شلتنهام كنت غير مدركة تماماً إلى أي مدى كنت في أمس الحاجة إلى ذلك وقد كنت قاب قوسين أو أدنى من تحقيق ذلك.

بعد فترة وجيزة من حكاية شلتنهام وجدت أنه قد تراكم عندي عدد كبير من الأميال التي قضيتها مسافرةً مما يعطيني الحق في رحلة مجانية إلى المدينة التي أختارها، هنا إقترح زوجي بلهفة شديدة قائلاً: "دعينا نذهب إلى سان بطرسبرج، أنا واثق تماماً أنها سوف تنال كل إعجابك". قبل أن يواصل التحدث عن سان بطرسبرج بذلك الإعجاب الشديد ـ وكان قد زارها عدة مرات فيما مضى وقت أن كانت لا تزال تحتفظ بإسم "لينينجراد" ـ صرخت بأعلى صوتي "لا" حتى أنني كنت مندهشة جداً لرد فعلي العنيف على كلامه.

فجأة إنتابني إحساسٌ عارم بالذعر كما لو أنه سوف يجبرني على الذهاب إلى هناك أو أن ذكريات أليمة تجثو بظلالها على أن هذا

الطوفان من المشاعر السلبية تجاه سان بطرسبرج يشبه تماماً حالة الشعور بالغثيان أو الرغبة في التقيوء قبيل الذهاب إلى طبيب الأسنان. سيبدو غريباً عندما أذكر أن هذه الحالة ليست نتيجة لخبرات سيئة حدثت لي هناك فأنا لم أذهب مطلقاً إلى سان بطرسبرج كما أنني أيضاً لم أذهب مطلقاً إلى أي من جمهوريات الإتحاد السوفيتي السابق، إذاً هل مشاعري ببساطة هي نتيجة طبيعية للتعصب؟! وإذا كان الأمر كذلك، فهل يمكن أن يكون هذا التعصب قوياً لدرجة أن فكرة السفر الفعلي تثير غضبي بهذه الطريقة؟! ليس من السهل تحديد مصدر هذه الحالة من الهياج، والتي يبدو أنه نتيجة للخبرات المتراكمة فيما مضى من حياتي، من البيئة التي تربيت فيها والعقيدة التي كنت محاطةً بها في يوغوسلافيا الشيوعية. عندما أعيد التفكير الآن، أرى هذا الغياب الغريب لأي دافع لزيارة أي من جمهوريات ما كان يطلق عليه الإتحاد السوفيتي. إن ما استقر في ذهني هو أن إتحاد الجمهوريات السوفيتية ما هو إلا عبارة عن كتلة خرسانية شديدة الضخامة لا تمثل سوى شيء واحد فقط ألا وهو الخوف !!!. أتصور أن هذه النظرة العدوانية تجعلني لا أختلف كثيراً عن نظرة المواطن الأمريكي العادي، بينما أتصور أنه منذ بدأ ميخائيل جورباتشوف في تطبيق البيروسترويكا بدأ الأمريكيون في تغيير وجهه نظرهم أما عني فأعتقد أنني لم أغير وجهه نظري مطلقاً. وجه الإختلاف هو أنني عشت في ظل هذا النظام السياسي بينما هم لم يرضخوا لمثل هذا النظام. أنا أعرف كيف يعمل هذا النظام من الداخل ومن الخارج رأيت كيف أن هذا النظام يطحن الناس ويحولهم إلى رماد. بالنسبة لي الإتحاد السوفيتي السابق هو عبارة عن آلة طحن عملاقة أكبر وأقوى وأشد خطراً من التي كانت موجودة في بلدي. أنه لمن الصعب الآن مراجعة ومحو ما يثيره اسم سان بطرسبرج من صور استقرت في نفسي، وأنا أدرك أفضل شيء مناسب لهذا هو الذهاب إلى هناك ولكن حتى الآن فأنا لأتجنب هذا. إن هذا غير عادل بالنسبة للروس. لكن على الرغم من ذلك، كلما أفكر في الذهاب إلى هناك فأنه ينتابني ذلك الشعور كما لو أنني قد إبتلعت ثعباناً.

إذا كانت هذه الرؤية شديدة الرمادية للإتحاد السوفيتي مترسخة بقوة في ذهني فإن علاقتي بهذا البلد أكثر تعقيداً. في عام ١٩٤٨ قبل ولادتي بعام قرر تيتو هدم علاقته بستالين. إن تحرير يوغوسلافيا من قبضة الأخ الأكبر الحديدية كان عملاً جريئاً بإعتبار أن كل الدول الشيوعية الأخرى في أوروبا كانت راضخة تحت قبضة الإتحاد السوفيتي بالفعل. وبين عشية وضحاها فإن الأبطال السوفيت الذين

ساعدونا على التخلص من المحتلين الألمان أصبحوا هم أعدائنا. كذلك فعل الألاف من الناس داخل يوغوسلافيا من الذين انتهى بهم المطاف في معسكرات العمل والتي كان أكثرها شهرة هو معسكر "جولى أوتوك". كانت "جريمة" هؤلاء الناس الوحيدة هي أنهم في وقت إرتباكهم كانوا شديدي البطء في أن يديروا ظهورهم إلى الرفيق ستالين تماماً كما تطالبهم المفوضية السياسية الآن. وكان تدمير حياة هؤلاء الناس هو المساهمة اليوغوسلافية في الحقبة الستالينية والتي أودت بحياة الملايين في الإتحاد السوفيتي. وبمجرد أن صنف الإتحاد السوفيتي كعدو خطير أصبح كل ما يأتي من هناك يعامل على أنه يمثل تهديداً.

من أحد توابع هذا الموقف أن الغالبية العظمى من أبناء جيلي لم يتعلموا اللغة الروسية في المدرسة كما لم نبد أي إهتمام تجاه هذا البلد. حيث لا يمثل هذا البلد سوى نقطة فارغة في خريطة إهتمامنا. في الستينيات عندما كنا في فترة المراهقة كانت يوغوسلافيا منفتحة على الغرب فقد كنا نستطيع السفر إلى بريطانيا وإلى ألمانيا وإلى فرنسا. ما هو السبب الذي قد يجعل أي شخص يرغب في السفر إلى الإتحاد السوفيتي؟ لاحقاً بعد تولي خروشوف السلطة تحسنت العلاقات بين البلدين بشكل كبير ولكن وبشكل ما كان هذا متأخراً جداً. وقد أصبح تحت أيدينا بالفعل "ألكسندر زولتسينتسين" مما Alexander Solzhenitsyn الترجمة الكاملة لكتب جعلنا نعرف معسكرات الموت في سيبيريا، مثل معسكر كوليما وكنا قريبين بما يكفي في معسكر جولاج عندنا وقد ظهر ذلك من خلال الأعمال الأدبية، مما أدى إلى قتل أية رغبة قد تكون لدينا لمعرفة الأتحاد السوفيتي بشكل أفضل. أما هؤلاء الذين سافروا إلى موسكو أو لينينجراد في أوائل السبعينيات فقد عادوا بقصص عن المرشدين السياحيين الذين كانت مهمتهم هي التجسس عليك، عن الناس الذين يقفوا في طوابير من أجل الطعام، عن النقص في اللوازم الأساسية مثل ورق التواليت، عن الأشخاص الذين يجرون وراءك طالبين شراء العملة الصعبة منك لأن هذا هو السبيل الوحيد للحصول عليها.

هكذا تكونت صورة الإتحاد السوفيتي في ذاكرتي، صورة الأرض القاحلة، التي لا يوجد بها حياة والمغطاة بقشرة رقيقة من الجليد السيبيري. لقد عرفت ما يكفي ليمنعني من وجود رغبة لمعرفة المزيد. لقد عرفت أن الحياة هناك عبارة عن الفقر واليأس والعجز وإنتهاء الصلاحية، رائحة مرقة الشعرية والبطاطس العفنة عندما تدخل إلى أية شقة في المساكن الشعبية، الحوائط المتهدمة

والواجهات المقشورة قاتمة اللون والرطوبة ورائحة الموت العالقة في الهواء، والناس الذين يتم إمتهانهم بشكل مستمر لديهم رغبة وحيدة وهي ألا يكونوا موجودين هناك، ألا يكونوا ما أصبحوا عليه. بفضل هذا أدركت ماذا تعني كلمة المصير.

أن تمتلك جواز سفر يوغوسلافي فإن هذا يعني أنك تستطيع السفر غرباً وشرقاً وكان الإتحاد السوفيتي هو المكان الوحيد الذي لم أقم بزيارته في الكتلة الشيوعية. ليس هذا فقط ولكنني لم أقابل أيضاً أي شخص روسي في حياتي حتى أواخر الثمانينات. أستطيع أن أقول أن كل هذا كان بمحض الصدفة كنوع من التوضيح الآنيق ولكنني أعرف الآن أنني تجنبت ذلك وأنا في كامل وعي. لماذا أقوم بزيارة مكان مماثل تماماً بل أسوأ بكثير من مكان في بلدي؟ في الواقع، أنا أعرف تحديداً السبب وراء رغبة بعض الأفراد في زيارة الإتحاد السوفيتي. بجانب تلك الرغبة القوية في التعاطف مع الناس الذين يعانون من الفقر هناك، حيث تمكنوا من الحصول على فرصة نادرة للشعور بالأفضلية. رأيت هذا يحدث أيضاً في بلاد أخرى من الكتلة الشيوعية والتي لم يكن بإستطاعة مواطنيها السفر إلى غرب أوروبا. كان من الممكن أن يستوقفك المواطنين من هذه الدول في الشارع أو في الفندق الذي تقيم فيه لمعرفتهم أنك أجنبي من الملابس التي ترتديها. كل الزائرين من اليوغوسلاف كانوا يعرفون ذلك. فقد كانوا يستطيعون أن يملؤا حقائبهم بملابس الجينز والملبوسات والملابس الحريمي الداخلية بل وأيضاً بالعلكة، ويأخذون ذلك إلى دول الجوار الأقل ثراءً حيث يبيعون ذلك في السوق السوداء وتحديداً إلى مرشديهم السياحيين، إلى حاملي الحقائب، أو إلى عاملي الغرف في الفندق أو إلى جرسونات المقاهي الذين غالباً ما يعيدون بيعها. يستطيع المرء أن يجني الكثير من المال عند القيام بمثل هذا العمل ولكن هذا المال لا قيمة له خارج البلد التي جاء منها لذا كان لزاماً أن يتم إنفاق المال في نفس المكان. وكان هذا يمثل ذروة الرحلة كلها وذلك عندما يقرر رجل أعمال أو وكيل أحد المؤسسات أو عضو صغير في حزب سياسي أو حتى سائح بسيط محو آثار الأحداث السيئة والإستمتاع بالحياة الليلية في موسكو أو براغ أو بودابست، يحتسي الخمر ويأكل الكافيار ويتصرف كما لو أنه ملك حتى لو كان هذا الأمر لمدة يوم واحد أو يومين.

هكذا إستفدنا نحن اليوغسلاف من مقدار الحرية النسبي الذي نستمتع به. إن مصدر شعورنا بالأفضلية غير نبيل بالمرة فما هو إلا من تهريب وبيع الملابس الداخلية. كما أن حالة النقص الحادة للمواد الأساسية أو الحرمان منها وخصوصاً في الإتحاد السوفيتي قد

أشبع غرورنا لأن الناس هناك بجانب حالة الحرمان الشديدة التي أصابتهم فقد كانوا معزولين عن الكل. ربما كان هذا نوعاً من التعويض مقابل المعاملة التي لاقيناها في الغرب حيث شعرنا بالإهانة من الطريقة التي كان ينظر بها الأثرياء والغرب أوروبيين إلينا مما جعلنا نحن نشعر بالدونية.

إن العيش تحت وطأة النظام الشيوعي في أوروبا الشرقية قد علمتنا أن نقارن أنفسنا دائماً بهؤلاء الذين لديهم أقل مما لدينا وليس بهؤلاء الذين لديهم أكثر منا، أن نقارن أنفسنا بالأسوأ منا وليس بالأفضل عنا. أن نقارن أنفسنا بمن هم في مستوى معيشة أفضل ويتمتعون بقدر أكبر من الحرية كان يحتوي على قدر كبير من الخطر ـ ربما نكون قد بدأنا في طرح العديد من الأسئلة، بل ربما أيضاً كنا سنطالب بأن يكون لنا مثل ما لهم. فلم نكن أحراراً، كما أننا لم نكن أيضاً أغنياءاً، لكن عزاءنا أن هذه الراحة النسبية كانت تعطينا قدراً من الإطمئنان. لقد كان كافياً أن تقوم برحلة قصيرة لتقنع نفسك بأن هناك من يعيش في إحوال أكثر بؤساً ـ اللبن غير كاف، مواد التنظيف والفوط الصحية غير موجودة(ولا داعي لذكر الملابس الجينز والرمز المهم التي كانت تشير إليه). لقد أعطانا هذا نوع من اللذة الرخيصة لكن الأمر نجح على أية حال. فقد أخبرني الناس كيف أنهم قاموا بتقبيل أرض المطار عند عودتهم من زيارة موسكو ولم يكن لدى أي سبب قد يجعلني أعتقد أن هؤلاء الناس يكذبون.

إن كلمة "تقدم" تعتبر أحد مفاتيح كلمات لغتي السياسية في فترة الشباب، إنظر إلى التقدم الذي حققناه من بلد زراعي فقير، كم عدد الطرق الأسفلتية التي قمنا بإنشاءها، وكم عدد المصانع، أنظر إلى أي مدى تطورت حياتك للأفضل! فلم تعد تتضور جوعاً كما أن أولادك أصبحوا يذهبون إلى مدارسهم بأحذية نظيفة، كما تصل الكهرباء في الوقت الحاضر إلى جميع المنازل. لم يعد لدينا مرض السل أو أي أوبئة أخرى مريعة! أليس هذا تقدماً؟! وإلى الآن لا يزال الناس يتذكرون أن الشيوعية هي التي جلبت كل هذا. صحيح أن أغلب الناس كانوا يعيشون في مستوى أكثر فقراً قبل الشيوعية كما أنهم لا زالوا يتذكرون ذلك فكيف لهم أن يسألوا المزيد؟! فقط الأطفال والأحفاد الذين تربوا في ظروف معيشية أفضل أو أسوأ يستطيعون أن يتوقعوا المزيد.

بسبب كل هذا لا أستطيع أن أسمح لنفسي بأن أكون سائحة فيما يخصني من ماض. لن أستطيع أبداً أن أكون سائحة حقيقية في الإتحاد السوفيتي فعند ذلك سيكون الألم الشديد قريب جداً من

نفسي. فقد أدركت ذلك عندما كنت في زيارة إلى رومانيا منذ عامين. فبمجرد وصولي إلى مطار أوتوبيني في بوخارست فقد عرفت أنني قد عدت إلى بلدي مرةً أخرى، عدت إلى الماضي الذي يخصني. كان فقط على أن أتنفس رائحة التبغ الرخيص القوية أرتدي ملابس الشتاء الثقيلة فوق جسد غير نظيف كل ذلك حتى تعود إلى ذاكرتي كلها. شرطية الحدود هناك والتي كانت تزين وجهها بشكل مبالغ فيه على وجهها فاللون الأزرق لتظليل العينين والبودرة الغامقة اللون وأحمر الخدود وأضف إلى ذلك أحمر الشفاه الفاقع اللون. وكانت تجلس هناك إمرآة عجوز تغطي رأسها بمنديل عند دورة المياة ذات البلاط الأحمر تبيع قطعاً من المناديل الورقية ذات اللون البني القاتم، مما جعلني أشعر آنذاك بالثقل الشديد كما لو أن صخرة قد ربطت بعنقي بشدة.

عندما وصلت إلى المدينة وجدت أن النساء تسير مرتدية الأحذية البيضاء مثلما كنا نفعل في زغرب منذ عشرين عاماً مضت، رأيت أيضاً الرجال ممتلئي الأجسام ذوي البشرة الداكنة ويضعون فوق رؤسهم أغطية الرأس التي يرتديها الفلاحون. في فندق دوروبانتي الذي يمثل قباحة التشييد القائمة على الصلب والزجاج، المفروشات القذرة والأثاث الرث في الداخل مما جعل العين تتأذى بسبب غياب أي نوع من الجمال. قمت بعد ذلك بزيارة صديق لي يعمل كفزيائي وهو يقيم في شقة ذات غرفة واحدة، وجدت أن حوض الإستحمام لديه ملىء بالماء وذلك لأن الماء الجاري لا يصل إلى الدور السادس. يحصل على حوالي ٤٠ دولاراً كدخل شهري. كل ذلك كأنك تشاهد فيلماً قديماً بإستثناء أنني موجودة داخل الفيلم. أعرف أنني أخذت الموضوع كله بشكل شخصي، ولكن كيف أستطيع أن أفصل نفسي عما يحيط بها والذي أنا على دراية تامة به. لقد كانت رحلة قاسية عبر الماضي والتي قررت على أثرها أن أخوض تجربة مشابهه لذلك في المستقبل. لذلك لم أقم بزيارة سان بطرسبرج، أو موسكو لهذا السبب. لقد كنت في غاية الإرهاق، ليس فقط من بوخارست وصوفيا ولكن حتى أيضا من بودابست، من حياتي كلها تحت ظل الشيوعية. أعتقد أنني أحد هؤلاء الأشخاص الذين يبغون في نهاية الأمر الوصول إلى أوروبا، بغض النظر عما يعنيه هذا. والآن ماذا تعني أوروبا، تلك التي نتوق إليها؟

في مقال للكاتب الليتواني "تيموثي جارتون ـ آش: قال"إن زيارة إلى إحدى الدول التي كانت تتبع شرق أوروبا الشيوعي تعطي إجابة قصيرة وواضحة" أوروبا هي... ليست روسيا" أنه تعريفٌ قاس و ينم عن جهل حتى أنه ليس من العدل أن تقول ذلك، لكن هذا التعريف

عما هي وعما ليست هي أوروبا يعجبني على الأقل في الوقت الحاضر.

obeikandl.com

... داخل حمام زوي

لقد تبولت فى مرحاضها، وغسلت يدى فى حوضها الوردى اللون وقمت بتعديل زينتى حوض إستحمامها-الوردى اللون بالطبع.ربما هذا هو كل ما تتمناه أى إمرأة من رومانيا لتستمتع بالترف الباذخ فى حمام الأميرة **شاوشيسكو** فى الفيلا التى كانت تستعمل كمقر رئاسى فى شارع **سبرنج** فى **بوخارست.** أعرف تماماً أنها لم تكن لتوافق على ما فعلت ولكن بعد أن تم إرداء والديها قتلى كما تم تجريدها هى وإخوأنها من كل ممتلكاتهم بالإضافة إلى كل ما لهم من صلاحيات،فإن **زوي** فقدت كل ما كانت تملك من سلطات ،سواءٌ على هذا أو على أى شىء آخر. هكذا بمبلغ معقول من المال أو إدعاء أننى سوف أقوم بتصوير شيئاً ما، أستطيع أن أفعل هذا، أن أتبول فى مرحاضها. أنه إشتياقٌ لفعل رخيص بالتأكيد.

عندما تدخل إلى الفيلا التى يفصلها عن الشارع سور عال، فإنك تمر عبر صالة الدخول المزينة بالفسيفساء من الرخام والذهب على الأرض وعلى الجدران أيضاً. ثم ندخل بعد ذلك إلى صالة مزينة بالرخام الأبيض والتي تشبه إلى حد كبير قاعة الرقص،وفيها نجد درجات السلم الأنيقة التى تقود إلى غرف المعيشة لإثنين من أولاد **شاوشيسكو** الثلاثة،للإبن **فالنتين** والإبنة **زوي** والتى تتكون شقتها من صالون وغرفة نوم وحمام ولا يوجد مطبخ(على الأقل لم أر مطبخاً).بينما الصالون وغرفة النوم تم تأثيثهم على نظام الروكوكو ، بورق حائط حريرى وستائر حريرية غليظة فإننا نستطيع أن نرى بوضوح أن الحمام تم تصميمه بإسلوب ردىء للغاية.

لقد قيل الكثير عن ثراء عائلة **شاوشيسكو** وحبهم -وخصوصاً الأم - للذهب والرخام والكريستال والفضة والدليل على ذلك هو هذا العدد الكبير من مقار الإقامة الرسمية فى جميع أنحاء البلاد. ولكن الشيء الصادم فى فيلا **شاوشيسكو** ليس الثراء وإنما هو رداءة الذوق وأفضل دليل على ذلك هو حمام **زوي**. فجميع التركيبات لونها وردى،بينما جميع الصنابير والدش والمقابض والقضبان المخصصة للمناشف كلها مطلية بالذهب.أنه مزيج من الصنابير الذهبية المبالغ فيها والتى قد لا تناسب حمام أحد أباطرة الرومان أنفسهم،ونوعان من البلاط ، كلاهما له أرضية من اللون الوردى وتصميم مختلف- أحدهما بتصميم هندسى مجرد على الجدران، والأخر عبارة عن حزمة من أغصان الورد والتى نجدها على البلاط الذى يغطى الأرضية -وكل هذا يفقد قيمتة بسبب المكان الموجود فيه.

وفجأة إنتابنى بفضول ذلك الإحساس كأننى رأيت هذا فى مكان آخر ، كما لو أننى فى فندق أمريكى من تلك الفنادق التى لها أفكارها الخاصة بها وبزبائنها عن الآناقة والفخامة كما لو أن مزارعاً من **لوّا** إعتاد على زراعة البطاطس قد تم تكليفه بعمل تصميم ذلك الحمام وفقاً لذوقه. والذى يتوافق تماماً مع عائلة **شاوشيسكو** فكلاهما الرجل وزوجته ينحدران من عائلة ريفية فقيرة ولم يحصلا على التعليم الصحيح أو المناسب.لأشخاص من هذه النوعية أتصور أن هذا ما يتصورون أنه بكل تأكيد الحمام الملكى.

إن حمام **زوي** ليس إرستقراطياً بالمرة ولكنها محاولة مثيرة للشفقة من أجل التمسح بالإرستقراطية.أنه حمام عادى-وإن كان واسعاً-تماماً مثل النوع الذى يمكن أن تجده فى منازل الطبقة المتوسطة فى الغربزلكن عندما كانت **زوي** تعيش هنا فإن حمامها كان صورة صارخة من الإرستقراطية لأنه أول الأمر مزود ويعمل بالماء الساخن،بالإضافة إلى الصابون وورق التواليت.وكان هذا يمثل حالة إستثنائية فى رومانيا مما أدى إلى وصف المكان ب"أرستقراطى".

قمت بزيارة أحد أصدقائى والذى يقطن فى ناطحة سحاب فى **بوخارست**. تتباهى الشقة الصغيرة بأن بها حوض إستحمام ،ولكن فى أغلب الأوقات لا يوجد ماء لملء حوض الإستحمام به. فالماء، مثل الكهرباء، دائماً مقطوعين.إذا دخلت أحد المطاعم المملوكة للدولة أو القطاع الخاص أو دورة مياة عامة فى المدينة فسوف تشعر تماماً كما لو أنك دخلت عالماً سفلياً حيث أن أى نوع من الحياة المدنية قد توقف تماماً وأصبح غير موجود. إن أول الأشياء التى ربما يلحظها الوافد الجديد إلى هذا البلد عند وصوله: أولاً رائحة المكان، والحالة التى عليها دورات المياة. حتى المطعم الشهير الذى يدعى"**كارول كو**

بير" -والذى يقع فى قلب **بوخارست** فى مبنى يعود للقرن التاسع عشر والذى يقال أنه كان عبارة عن كنيسة فيما مضى- لا يستثنى من هذه القاعدة. المنحوتات الخشبية والزخارف الموجودة على الحوائط وكل ما فى الجو الكلاسيكى للحانات تم الحفاظ عليه بالإضافة إلى أن الطعام جيد ولكن هذا الآنطباع الجيد سرعان ما يتلاشى إذا خاطرت وقررت الذهاب إلى دورة المياة. والتى بمجرد أن تغلق الباب خلفك فسوف تختنق من رائحة البول الحادة وسوف تحاول يائساً أن تجد مكاناً جافاً تضع عليه قدميك حيث البول يغطى الأرضية كلها. ولاداعى لذكر أنه لا يوجد مقعد فى دورة المياه ولكن عندما تزور هذا المطعم الشهير سوف تكون قد أدركت أن مثل هذه الأشياء غير متوقعه. ثم بعد ذلك عليك أن تقوم بشد حبل متسخ لجعل الماء ينهمر. الصابون موضوع فى مكان غير معلوم أما عن ورق التواليت فيبدو أنه من الكماليات غير المعروفة هنا، فلا يوجد فى **بوخارست** كلها دورة مياه واحدة بها ورق تواليت. كيف يمكن فهم هذا الغياب التام لكل المقاييس الصحية الأساسية ؟ وما هو مدلول هذا الغياب؟

وبإعتبار أننى جئت من بلد شيوعى سابق فقد قمت، منذ مدة طويلة وبسهولة- ظاهرة الرائحة النتنة ودورات المياة البالية عبر العالم الشيوعى بطريقة غاية فى الوضوح. السبب الأول هو الإختلال الوظيفى للنظام الشيوعى نفسه فى التعرف على حاجات الناس الأساسية وإشباعها،من اللبن إلى ورق التواليت.

السبب الثانى يندرج تحت مستوى: ماذا فعلت الشيوعية لنا وما الذى يجب فعله حيال العقلية التى تربت على شيوع الملكية؟! فمنذ أن أصبح كل شىء ملكية مشتركة لم يعد هناك مسئول حقيقى،لم يعد هناك من يتحمل المسئولية، لم يعد هناك من يهتم. فقد تم إعفاء كل فرد من المسئولية لأنه أو لأنها قام بتفويض المسئولية إلى مستوى أعلى فى النظام المسئول. شخصٌ ما هناك سوف يقوم بإتخاذ قرار بكل ما يجب إصلاحه فى دورة مياة عامة. ثم هل يتم إقالة عاملة النظافة لأنها لم تقم بمسح أرضية دورة المياة؟ بالطبع لا! أما السبب الثالث فهو الأجور المنخفضة والسلوك الذى يترتب على أن يدفع لى شخصٌ ما أجراً قليلاً فسوف أقوم ببذل أقل ما يمكن من مجهود.

بعد زيارة بوخارست، يجب أن أقر أننى كنت على خطأ. منطقياً يمكن الإستمرار فى تبرير ما يحدث إلى أبعد مدى، لكن هذا لا يذهب بنا بعيداً بما فيه الكفاية. فأنا لا أستطيع أن أجد إجابة على سؤال جوهرى: كيف نستطيع نحن أنفسنا أن نتحمل هذه الفوضى المثيرة للإشمئزاز؟ كيف نستطيع نحن أن نتبول يومياً فى مثل هذه الأماكن بدون الشعور بالخزى والعار من سلوكنا. إذا لم يكن هناك قواعد

مراحيض فى رومانيا، أو كانت أسعارها شديدة الإرتفاع،ربما إذا قمنا بسرقتها فسوف يتم تفهم الأسباب التى دفعتنا إلى ذلك. لماذا نقبل بقطعة السلك الصدىء أو حبل لجعل الماء يتدفق فى المرحاض؟ لماذا نتقبل وجود مثل هذه الرائحة؟ ولماذا لا يوجد ورق تواليت؟ لماذا نتقبل هذه القذارة كأنها شيئٌ طبيعى؟ لا يوجد تغير حقيقى فى رومانيا التى كانت شيوعية....كيف هذا؟

إذا تجولت منتصف الشتاء فى وسط المدينة فى بوخارست فكل ما يمكن أن تراه هو بحرٌ من القبعات المصنوعة من الفراء. أنها بلد القبعات المصنوعة من الفراء فكل الناس يرتدونها كباراً كانوا أو صغاراً. ليس السبب أنه لا يوجد بديل لهذه الموضة من الطواقى الصوفية أو القبعات، كما أنه ليس بسبب إرتفاع ثمنها: أنه ببساطة لأن هذه القبعات المصنوعة من الفراء هى جزء من الزى التقليدى للمزارعين. الرومانيون يرتدون قبعات الفراء لأن أغلبهم قدموا حديثاً إلى المدينة ولا زالوا يحنون إلى عاداتهم القديمة. فمن المؤكد أن هذه أمة من المزارعين مثل أغلب الدول التى كانت شيوعية (ليست كل الدول و تشيكوسلوفاكيا مثال على ذلك). من الجدير بالذكر أنه قبل أن تندلع الحرب العالمية الثانية وقبل الثورة الشيوعية كان الغالبية من السكان ريفيين. بعد النصر المجيد للشيوعية، هاجر الغالبية من الناس بأعداد ضخمة إلى المدن لشغل الوظائف التى أوجدها التصنيع فى رومانيا. على كل حال لا يعنى هذا أن الناس تحولوا فى الحال إلى مدنيين.

الصلة بين قبعات الفراء والنظافة الشخصية أصبحت فجأةً واضحة بالنسبة لى فى شوارع بوخارست. فأى شخص قد سبق له على سبيل المثال القيام بزيارة قرية فى البلقان أو الإتحاد السوفيتى السابق فأنه سيفهم ماذا أعنى عندما أقول أن الفلاحين كان لديهم فكرة أجمل عن النظافة من سكان المدن. فى الريف أنت تحسن من وظائف جسمك بشكل طبيعى عندما تعمل فى الحقل،أو فى الكشك الخشبى فى مزرعتك. وما ينظر إليه على أنه"نظيف"يختلف بالتأكيد عما ينظر إليه فى المدن بإعتباره كذلك. لكن بالطبع فإن هتاك إختلافا كبيرا بين صيانة حفرة فى الأرض محاطة بسياج بأربعة ألواح خشبية وخزان مياة موجود فى مكان عام-أو على الأقل يجب أن يكون هناك واحد.

إن الرغبة المكثفة للشيوعية فى التحول للحياة المدنية لم تساعد الوافدين الجدد فى تغيير عاداتهم، سواء من حيث إرتداء قبعات الفراء أو إستعمال ورق التواليت أو ترك دورة المياة نظيفة بعد إستعمالها. لقد تم إجبار الناس على القفز من القرية إلى المدينة

لعمل الطفرة العملاقة من النظام الإقطاعى إلى النظام الشيوعى، بدون الوقت أو التعليم لتنمية المجتمع المدنى وكل قيمه وعاداته، من مفهوم الملكية الخاصة إلى حقوق الآنسان، من الديموقراطية ألى ورق التواليت. إن هذا الخطأ يجب أن يتم تصحيحه الآن، لكننى أخشى أن هذا سوف يستغرق وقتاً وهؤلاء الناس من الذين يعيشون فى الدول التى كانت تتبع المعسكر الشيوعى السابق يجب عليهم أن يغسلوا أيديهم ويستعملوا الورق لسنوات قبل أن نعطيهم الفرصة الحقيقية لتنمية الديموقراطية. فأحدهما لا يمكن أن يتم تفعيله من دون الآخر.

إن مستوى دورات المياه فى رومانيا يعكس طبيعة النظام الشيوعى الذى يعد بمثابة ميراث، كما أن غياب أى نوع من التحسن ما هو إلا تحذير لمستقبل الديموقراطية.إن الناس فى حاجة إلى وقت لتغيير عاداتهم، ولتفهم وتنفيذ الأفكار والقيم الجديدة، وأحد أصعب الدروس هو ذلك الذى يعنى بمسئولية الفرد فى كل مرحلة من حياته، بدءاً من السياسات نزولاً إلى ممارسات الحياة اليومية. أما إذا كنا بصدد إجراء قفزة ضخمة مرةً أخرى،هذه المرة فى إطار ديموقراطى،حتى إن زادت النتيجة أو قلت فسوف تكون مشابهه، ولن تصبح الديموقراطية شيئاً سوى مجرد إيديولوجية جديدة، التى يحتكرها قوادنا الجدد لتحقيق أغراضهم الخاصة. بالإضافة لذلك، ماذا تمثل هذه الديموقراطية الجديدة بالنسبة لنا؟ هل هى أكثر من مجرد إيدولوجية جديدة؟ أنها لا تزال مجرد حلم، مفهوم يوتوبى جديد، دواء لكل داء،أداة لحل جميع مشاكلنا، من الفقر إلى الفساد،القومية والحرب،كل ذلك بطريقة غير محددة.

علاوة على ذلك فإن أغلب الناس لديهم فهم خاطىء عن الديموقراطية كأنها نكبة طبيعية قد حلت بنا، ليس كشىء يجب علينا فهمه،ورعايته والعمل من أجله.إن قيم المجتمع المدنى يجب أن يتم خلقها بواسطة مواطنيه، كما أن جيلاً أو جيلين من الريفيين الذين يعيشون فى المدينة فى ظل النظام الشمولى ليست لديهم أى فرصة كى يصبحوا مدنيين، سواء من الناحية السياسية أو الناحية الثقافية.

عند جلوسى فى حمام **زوي** أدركت أن فرصتنا فى الوصول إلى مجتمع ديموقراطى متمدن ضئيلة للغاية فى أن تتأصل فى بلدان حيث أن الحصول على حمام طبيعى ونظيف يتدفق فيه الماء الساخن ويوجد به ورق تواليت وصابون هو نوعٌ من الإرستقراطية المحجوزة للديكتاتوريين.

obeikandl.com

... ما تملكه وما لا تملكه

فى أحد الأيام وعلى سلم المبنى الذى أسكن به تقابلت مع جارتى التى تسكن فى الدور الأول. كنت فى طريقى للصعود إلى الشقة حيث كنت عائدة من السوبر ماركت وأحمل شنطة قماشية ضخمة مليئة بالأغذية فى يد، وفى محاولة منى لحفظ الإتزان حملت فى اليد الأخرى علبتين من مسحوق الغسيل وشنطة من الحفاضات. جارتى "آندريا" كانت مندهشة لأننى أحمل كل هذا إلى شقتى وفى نفس الوقت لم تبد أى إهتمام لما أحمله فى يدى من حفاضات. ثم بادرتنى سائلةً"لماذا إشتريت هذا؟"ربما كانت تعتقد أنه قد فاتها أحد الأخبار الهامة. أخبرتها أننى سوف آخذ كل هذا معى إلى كرواتيا. فالحفاضات هى لطفل صديقتى فى زغرب حيث أن الحفاضات هناك أغلى بكثير منها فى فيينا. كنت أخشى قليلاً أن أضطر إلى الدخول فى حديث عن العام خمس ما يجنيه الفرد فى النمسا، ولا تزال الحفاضات فى كرواتيا أغلى ثمناً منها فى النمسا. ولكن **أندريا** لحسن لباقتها لم تطلب منّى أى إستفسار عن تقلبات الإقتصاد الكرواتى. ولكن بدلاً من ذلك صعدت مسرعة إلى شقتها ثم ظهرت بعد ذلك وفى يدها شنطة أخرى للحفاضات لم تعد إبنتها **فانى** فى حاجة إليها، والتى جاءت مع أمها إلى شقتى لتخبرنى بكل فخر أنها لم تعد تتبول على نفسها.

كرواتيا-الحرب واللاجئين، أعتقد أن هذا هو ما كان فى مخيلة **أندريا** عندما أحضرت لى لفافة الحفاضات. لكن صديقتى التى عادت إلى وطنها ليست لاجئة، فلديها عمل ثابت ولكنها ببساطة لا تستطيع أن توفر لشراء حفاضات لإبنتها، لهذا السبب فأنا أصطحب معى بعض منها فى كل مرة أذهب إلى هناك. أما عن السبب وراء

فعلى هذا فسوف يكون صعباً علىّ أن أوضحه لجارتى الطيبة فى فيينا: أشعر أننى مجبرة على فعل هذا تجاه صديقتى و إبنها وإلى أمى وأقاربى وأصدقائى الأخرين الذين يعيشون هناك أيضاً. أنهم لا يملكون المال حيث أن دخلهم الشهرى يتراوح بين ٣٥٠ و ٥٠٠ ويواجهون إرتفاع تكاليف المعيشة أكثر مما يواجهه الناس فى غرب أوروبا. بعد أن رزقت بطفل حديث الولادة، كان لزاماً علىها القيام بعملين فى اليوم الواحد حتى تستطيع أن تفى بحاجاتها الأساسية. كما أنها لم تنل حظها فى الحصول على فرصة للعمل فى الخارج ،أو فى المكان الذى تمنت أن تعيش فيه، لكن أن يكون لديك القدرة على أن تقيم فى الخارج فهذا يعنى أنك شخص محظوظ للغاية من وجهة نظر الجميع. هذا لا علاقة له بحياتى أو حياة صديقتى-أنه ببساطة ما ورثه لنا التاريخ وهو نوع المجتمع الذى إعتدنا أن نعيش فيه. هذا الإعتقاد أصبح متجذراً فى عقولنا وقد تقبلناه: هؤلاء الذين يقطنون فى الخارج- مقارنة بنا- هم أفضل منا،فقط لأنهم يعيشون فى الخارج.

فى الواقع إن سؤال أندريا قد جعلنى أفكر فى كل الأشياء التى أشتريها لأخذها معى إلى كرواتيا فقد كنت على وشك المغادرة إلى زغرب فى خلال يومين وكالعادة فقد بدأت فى الإعداد للرحلة وبالطبع إعداد قائمة للمشتريات بعناية، فمن السوبر ماركت سأشترى السلامى والجبنة والشيكولاتة والنيسكافية وعدد إثنان كيلو من حبوب القهوة المحمصة ومسحوق الغسيل والسمن واللبن المجفف والطماطم المعلبة وزيت الزيتون والفواكه الطازجة- كل هذا أرخص سعراً فى فيينا. ثم الحصول على عدد من الجوارب والتى تباع فى مجموعات من عشرة جوارب، وملابس داخلية لأمى وربما أيضاً بلوفر أنيق. وسوف أصطحب معى أيضاً عدة موديلات للقمصان لجارة أمى، ومن هناك يمكننى أيضاً الحصول على حبوب الفيتامينات(والتى تعتبر هدية جيدة لإرتفاع ثمنها هناك) ثم بعد ذلك هناك أدوات التجميل والعطور وهدايا أخرى. بعد عبور الحدود النمساوية سوف أكون مضطرة للذهاب إلى المنطقة الحرة لشراء الويسكى ونوع جيد من السجائر من أجل طبيب العائلة. رويداً رويداً سوف تمتلىء السيارة عن آخرها بالبضائع والسلع التى سيذهب أغلبها كهدايا.

لماذا أفعل هذا فى كل مرة أذهب فيها إلى زغرب، بغض النظر عن وسيلة السفر سواء بالقطار أو بالسيارة؟ لماذا تمتلىء حقيبتى دائماً بمثل هذه التوافه؟ فقط عندما أسافر من النمسا إلى السويد على سبيل المثال، أستطيع القول أننى أسافر خفيفةً. إذ لا يوجد الكثير الذى يستحق أن ينقل من أحد هذه الدول إلى أخرى،فأنا لم يخطر على بالى أن أشترى عطراً من النمسا لصديق سويدى، فى الواقع لم

يخطر ببالى أن أشترى له أى نوع من العطور لأنه لايوجد سوى فروق طفيفة فى الأسعار بين هنا وهناك. أكثر ما أشتريه كهدية لصديق نمساوى هو السلمون المدخن وحتى هذا فهو فقط فى المناسبات. لكن عندما أذهب إلى كرواتيا – او إلى أى بلد شيوعى سابق – فى كل مرة من الغرب إلى الشرق يجب أن أصطحب معى جميع الآنواع من كل شىء.

عندما أعود الى منزلى فى كرواتيا فأنا أشترى نوعين من البضاعة: غذاء رخيص وأدوات منزلية،لأ دخر المال بالطبع حيث أن كل ما قمت بشراؤه من أدوات تجميل وعطور ومشروبات...إلخ قد إستهلك أغلب ما إدخرته من نقود. أين المنطق فى هذا؟ هل أحاول أن أشبع ما يتوقعه الناس؟ ومن يتوقع هدية منى؟ أقاربى، وأصدقائى بالإضافة للأشخاص الذين يحتاجون شيئاًمحدداً :المرأة التى تعمل فى مكتب التوظيف والتى تهوى جمع مكعبات القصدير الجميلة، والممرضة التى تحب أن تشرب الشاى بنكهات قوية مختلفة، والجار الذى يعشق الحلوى النمساوية، والأخر الذى يعانى من البدانة لدرجة أنه من الصعب أن تدخل قدماه فى أحد الجوارب. نفس القصة تحدث عند الذهاب إلى ألبانيا أو بلغاريا فيما عدا أنه بمجرد أن أعتاد على إحضار أشياء مفيدة لأصدقائى ،حيث أحضر لهم الآن زجاجة نبيت فرنسى، ماء كولونيا جيد وآخر إصدارات من الكتب. لقد تغير الوقت كما تغيرت الهدايا لكن ما يتوقعه أو ما ينتظره الناس لم يتغير.

هذه التوقعات مستمرة منذ فترة طويلة عندما كان هؤلاء الذين يستطيعون العمل فى الخارج يعتبرهم الناس فى رفاهية حقيقية. لكن الآن يمكن أن تجد هؤلاء الناس ذوى الكفاءة فى كل مكان عبر أوروبا الشرقية. وجه الإختلاف اليوم أنه لم يعد هناك نقص فى الإختيارات، وأيضاً حقيقة أن هناك قلة من الناس تستطيع أن تنعم بالرفاهية. إن هذا هو ما يجعلنى أشعر بأننى غريبة وأنا أحمل مشترياتى صعوداً إلى شقتى فى الدور الثانى فى فيينا. بدون إسهاب فى التفكير، أجدنى أطيع القانون غير المكتوب،وهذا فقط عندما تسألنى جارتى فى فيينا،لماذا أتوقف وأفكر وأسأل نفسى نفس السؤال البسيط والمنطقى. فى الماضى كانت الإجابة واضحة إذا كنت تعيش فى إحدى تلك الدول التى تمنع مواطنيها من السفر إلى الغرب، وذلك بسبب الخوف من أن يغادر الجميع(أحد النكات المرتبطة بذلك هى أن آخر من يخرج عليه أن يطفىءجميع الآنوار). لقد كان هذا شديد الوضوح حتى وإن كنت تعيش فى بلد مثل يوغوسلافيا، والتى منذ الستينيات وما بعده تستطيع أن تعمل بحرية، لأنك تحتاج إلى المال

لتفعل ذلك. إذا إستطعت أن تتدبر أمورك وجمعت المال اللازم لرحلة إلى الغرب،فقد كنت توصف بأنك شخص مرفه بالتأكيد.

في تلك الأيام،أيضاً كان بإمكانى أن أدون قائمة طويلة بالأشياء التى أريد ، وأنا أعرف أنه في النهاية كان على أختار بين كتاب أو زوج من الأحذية. أغلب الظن أننى كنت سأشعر بإحباط مشابه إذا كنت أقيم فى الغرب ، لكن هذا لم يكن ليخطر ببالى آنذاك. مثل باقى الشرق أوروبيين، تصورت بسذاجة أن الإقامة فى الغرب تضمن مستوى معيشة معين، ومثل تلك الخيارات لم تكن معروفة. إن فكرة أن أكون فقيرة تعيش فى الغرب،ربما أكون أيضاً عاطلة عن العمل: حقيقة أن المعاناه وإنعدام الأمن المادى هو ظاهرة موجودة فى جميع أنحاء العالم كانت بعيدة تماماً عن كل ما أتخيل. إذا كان جميعنا فقراء هنا فيجب أن يكون كلهم أغنياء هناك. إلى أين ذهب تفكيرنا عندما عرفنا أن من يعيش على الضمان الإجتماعى فى الغرب، فأنه يعتبر شخصاً غنياً مقارنةً بأخر لديه عمل ويعيش فى بلد شيوعى؟ كان أى زائر لغرب أوروبا من بلد شيوعى يعتقد أن الفقراء هنا قد تركوا عملهم طواعية بكامل رغبتهم ولم يفقدوه أو يجبروا على تركه.كان من الممكن أن يتجنبوا ذلك إذا بذلوا قدراً أكبر من الجهد. عموماً، لقد رأيت فى البلاد التى زرتها - ألمانيا،إيطاليا،فرنسا، بريطانيا – الكثير من الفرص لكسب المال ومستوى معيشة أفضل بكثير مما كان يحدث فى بلدى.

لكن الأسطورة المتعلقة بمزايا المعيشة فى الغرب لم تفقد قوتها بعد زوال الشيوعية. إحضار الهدايا ليس عادة إجتماعية فقط،الإيماءة اللطيفة والمتوقعة من 'شخص كان هناك'. وهناك أيضاً الآلية النفسية فى العمل، فقد تربينا جميعاً على مبدأ المساواة. هذا يذكرنى بالولد ذى السبعة أعوام الذى قابلته فى بوخارست. فعندما توقف التاكسى الذى كنت أركبه عند أحد إشارات المرور، جرى هذا الطفل ناحيتى وسألنى بالآنجليزية"هل تتحدثين الآنجليزية؟"عندما قمت بهز رأسى بالإيجاب، قام بمد يده من نافذة التاكسى المفتوحة قائلاً: "أعطنى نقوداً" سألته: "لماذا؟"،لكن فى واقع الأمر لم أتوقع منه أن يفهمنى. لكن ما زاد من إندهاشى أنه نظر إلي وهو يبدو مندهشاً من غبائى. ثم قام بالتوضيح بمنتهى الجدية وبلغته الآنجليزية البدائية "أنت تملكين وأنا لا أملك"!

لم يكن هناك أى خطأ فى منطق هذا الطفل. فقد كان واضحاً أنه لا يملك أية نقود، وإلا لم يكن ليسألنى عنها. وقد كان واضحاً أن بحوزتى بعض المال، وإلا لم أكن لأتجول فى المدينة راكبة التاكسى. حتى فى هذه السن فقد عرف أن هناك مستويين أساسيين للناس فى

المجتمع: هؤلاء الذين يملكون وهؤلاء الذين لا يملكون. لكن طبقاً لمبادىء المساواة فى أى مجتمع شيوعى، فإن هؤلاءالذين "يملكون" يجب أن يتقاسموا مع الذين"لا يملكون". ولأن ما هو موجود غير كاف على كل حال، فإن مبدأ العدالة يقتضى التوزيع المتساوى للفقر. على الأقل فأنه من الممكن تحقيق ذلك نظرياً- لكن من واقع الخبرة العملية، لم يتحقق ذلك.

لا أزال أتذكر بوضوح الحملة الكبيرة التى نظمت فى يوغوسلافيا منذ أكثر من عشر سنوات مضت. كانت الحكومة هى من قام بتنظيم الحملة تحت شعار "إذا كان لديك منزلاً فقم بإعادة الشقة".الفكرة كانت قائمة على أنه من كان قادراً على بناء بيته بنفسه فإن عليه أن يعيد شقته إلى دائرة الحكم المحلى التى يتبعها أو المؤسسة أو المدرسة أو المستشفى أو أيما كانت الجهه التى ينتفعون بحق الإستئجار. السبب وراء هذه الحملة كان بالتأكيد هو النقص فى العدد المتاح من الشقق للإيجار وتطبيقاً لمبدأ عدالة التوزيع فإنك لا تستطيع أن تمتلك منزلاً وشقة وفى نفس الوقت هناك آخرون لا يملكون شيئاً بالمرة. هذه كانت آخر محاولة جادة لأتذكر ما كان يدعو إليه مبدأ "أنت تملك، أنا أحتاج". ذلك المبدأ الذى لم ينل حظه فى الصمود. فى ذلك الوقت كانت يوغوسلافيا تسبح فى مياه حرة، مع تنامى الطبقة المتوسطة، وتعمل فى إطار إقتصاد السوق الحرة. لقد كان من الصعب إقناع الناس بالتخلى عن حقهم فى الشقة، وكما كان متوقعاً فقد فشلت هذه الفكرة اليوتوبية السخيفة. لكنها تبين وتوضح كيف يتحرك مفهوم الظلم الإجتماعى فى مجتمع شيوعى :إن هؤلاء الذين يملكون،قلة، ويجب أن يشعروا بالخزى والعار – أما الأخرين فلديهم أيضاً الحق لأنهم قد تلقوا وعداً بذلك. الاختلاف الطبقى

تم تسويته بسرعة بعد الثورة الشيوعية، أولاً بواسطة هؤلاء الذين روجوا بأنفسهم لمجتمع الطبقات وهم القادة أو البورجوازية الحمراء-مثل ميلوفان دجيلاس-كما أطلقوا هم على أنفسهم. لكن فكرة المساواة ظلت متواجدة بأشكال مختلفة، كمافى نظام التكافل الإجتماعى على سبيل المثال.تطبيق هذا على حالتى يكون كالأتى: أنا أعيش فى الغرب، إذاً فأنا أملك، وتبعاً لذلك فأنا ملزمة بأن أتقاسم ما أملك مع من لا يملك. أشعر أننى مجبرة على ذلك كما أننى لا أستطيع أن أرد أحداً مخذولاً. فأنا لا زلت أسيرة هذا المنطق. وعلاوة على ذلك، كونى متزوجة من رجل من غرب أوروبا فى مثل هذا المجتمع الأبوى، فإن هذا يعتبر إنجازاً حقيقياً، ربما أكبر من الحصول على عمل جيد أو تكون ذا شهره فى الغرب. لا أحد قد ثاوره الشك

ولو للحظة واحدة أن زوجى أجنبى ثرى – فهل هناك أى سبب قد يجعلنى أتزوج من رجل فقير؟ زواجى يعنى أيضاً أننى أخلص أهلى من المصير الشيوعى الذى يعنى: الحرب،والفقر،وعدم الإستقرار، والبطالة، والإحباط، والإضطراب السياسى،والأجور المنخفضة،والشعور أن الوقت ينفذ بسرعة ولا تستطيع أن تتأكد إذا كان المستقبل سوف يحضر لك ما هو أفضل. كما لو أن معيشتى فى الغرب قد أدت إلى تطعيمى ضد سوء الحظ. من منا لا يشعر بالذنب للهروب من مثل هذا الموقف، حتى وإن كان "هروبى" هو من صنع خيالى؟بالتأكيد أنا أشعر بالذنب.فأصدقائى لا يستحقوا أى شىء أقل.

هناك أمر وحيد أحمله على أصدقائى عندما أعود إلى بلدى، حيث أنهم يدينون لى بشىء أيضاً. ما يجعلنى مستاءة جداً هو أننى لم أتلق أى إتصال منهم. حيث أنهم لم يتصلوا هاتفياً، كما لم يرسلوا لى أية خطابات. أعرف أنهم لا يملكون المال وأن المكالمات الدولية باهظة الثمن بسبب إحتكار الدولة للنظام. يقبل الناس الإتصال بك عندما يكونون فى حاجة إلى شىء ما – مكان للإقامة، إقتراض المال،إرسال أو إستقبال شىءٌ ما – أو حالة طبية طارئة. أستطيع أن أتفهم هذا. لكن لماذا لا يكتبون لى؟ إن طوابع البريد ليست باهظة الثمن.

هذه الخبرة لا تخصنى وحدى: أنه سلوك عام للأفراد فى أوروبا الشرقية. صديقة لى تعيش فى إستكهولم ،قامت بزيارة بلجراد فى الصيف. بعد ذلك قامت بإرسال خطابات وكتب وبعض الطرود. وعندما قابلتها منذ عدة أيام قالت لى شاكيةً أنه قد مرت ستة شهور ولم يصلها أى رد. ولأنها سويدية، فقد كانت فى حيرة من أمرها. حيث أنها تتساءل متعجبةً: هل وصلت الخطابات والكتب إلى هناك أم لا؟!

بالطبع وصلت الخطابات والكتب. ولكنها هى وليس أصدقائها ،المتوقع منها أن تتصل وتراسل وترسل الأشياء والإبقاء على الإتصال مفتوحاً. أنهم "هناك":أنهم محتاجون، وبسبب إنشغالهم بالمعاناة فأنهم لا يستطيعون الرد. وإذا كنت لا تقبلين الإتصال فى إتجاه واحد، فمن المؤكد أنهم سوف يقولون لك أنك نسيتيهم، وإنك لم تعودى فى حاجة إلى صداقتهم فأنت تعيشين على طبق من الفضة.

لذلك فأنا أتصل بهم. ماذا أستطيع أن أفعل أيضاً؟ فأنا أحتاجهم. إن سرى هو أننى لا أحب السبب الذى من أجله يعتبروننى محظوظة،أنا لا أريد أن أمضى المتبقى من عمرى مقيمة فى الخارج.

obeikandl.com

... إبتسامة فى صوفيا

كانت ترتدى قميصاً أبيض نصف شفاف،كما أننى أستطعت أن ألمح حمالة الصدر الرقيقة تحته عندما إنحنت تجاهى لتأخذ جواز سفرى. أستطيع القول أنها كانت تستعمل أيضاً نوعاً جيداً من العطور. كما أن قصة شعرها تحاكى الموضة وتتحدث الأنجليزية بشكل جيد. بينما كنت أشاهدها وهى مشغولة خلف مكتب الإستقبال فى فندق شيراتون، شعرت بالحرج. بدأت أشعر بإنطباع غريب وغير ودى من موظفة الإستقبال وبالتأكيد كان نفس الأمر من زملاءها الثلاث هناك. كانت تجيب على أسئلتى بإقتضاب وبفظاظة كما لو أن إعطائى المعلومات هو منحة تنعم بها على وليس جزءاً من عملها. كما أنها لم تبتسم. كان هذا علامة تؤكد أننى فى صوفيا.

إن موظفى الإستقبال وحاملى الحقائب وعمال المصعد والمضيفات جميعهم لا يبتسمون،حتى وأنت تدفع ٢٦٠ دولاراً فى الليلة مما يجعل فندق شيراتون فى صوفيا الأغلى من نوعه فى العالم. خلف مكتبهم فى بهو الفندق الرخامى الآنيق والذى يغلب عليه الطابع الغربى، يتصرف موظفو الإستقبال كأنهم أمراء. ربما لأنهم تقريباً يشعرون أنهم يملكون الفندق. عموماً، حتى وقت قريب، ألم تكن ملكية كل شىء هنا للشعب؟ وعندما يصل نزيل إلى الفندق،فأنهم ينظرون إليه فى جو من التواضع ولكن فى نفس الوقت بمنتهى الإستفزاز، كما لو أنك تقول"من أنت؟ماذا تريد؟" بالإضافة إلى ذلك،يجعلونك تفهم بشكل واضح أنه يجب أن تبذل مجهوداً كى تعامل بطريقة لائقة،كنوع من المكافأة الشخصية. يبدو أن لديهم الكثير من الكبرياء مما يجعلهم لا يبتسمون، موضحين للزبائن(الذين يشعرون أنه تم الإحتيال عليهم وإجبارهم على الدفع لشىء لم يحصلوا عليه):نعم،نحن هنا من أجلك،ولكنك لن ترى إبتسامتنا، لأنه

لا يمكن شراؤها.فيما يبدو أن أحداً لم يخبرهم أنهم موجودون هنا من أجل الخدمة.

أنا لا أتعامل مع الأمر بصورة شخصية ولكنى لا أستطيع أن أتصور أن من يزور صوفيا سوف ينال أى نوع من الراحة. أنها نفس القصة التى تتكرر فى كل ما يتعلق بمجال الخدمة العامة.

بمجرد أن دخلت مكتب الخطوط الجوية النمساوية فى بولفار(شارع) ماريا لويزا، بالكاد قامت الفتاتان برفع أعينهن من على شاشات الكمبيوتر لتقديم التحية. وبدلاً من إعطائى إجابة على سؤالى ،قامت إحداهن بهز كتفيها وواصلت محادثاتها التليفونية الخاصة. بعد الآنتظار حوالى نصف ساعة بدون شكوى،تم إعطائى تذكرة خطأ. بعد ذلك تم تصحيح الخطأ بدون تقديم أى إعتذار:بالطبع لأن السيدة كانت غاضبة منى بسبب الخطأ، كأننى أنا من تسبب فى الخطأ. مرةٌ أخرى،لم يكن واضحاً حقيقة أن فريق العمل موجود هناك لخدمة المسافرين، الذين يعدوا المصدرالذى يكسب من خلاله فريق العمل لقمة عيشه. ولم ألحظ ولو للحظة واحدة آى أثر لإبتسامة على الأربعة وجوه المتجمدة لموظفى الخطوط الجوية النمساوية فى صوفيا.

فى مستشفى بيروجوف، حيث ذهبت لإجراء إختبار دم سريع، بدأت إمرأة من داخل المعمل فى الصراخ فى وجهى بمجرد أن فتحت الباب. أعتدت على هذا النوع من المعاملة فى بلدى، لذلك إنتظرت بمنتهى الرزانة إلى أن تهدأ. وأخيراً، سنحت لى الفرصة لأشرح لها ما أحتاجه ولماذا، وعندما أدركت أننى أجنبية، قررت أن ترأف بحالتى – مرةٌ أخرى، كنت أنا تحت رحمة مزاجها. فى كل مكان، سواء كنت ضيفاً أو زبوناً أو مريضاً، كنت أعامل بنفس الطريقة.

لكن أى فرصة تم إعطائها لهؤلاء الناس ليتعلموا معاملة الناس بنهج مختلف؟ أين سبق لهم رؤية الإبتسامة؟ محاطين بالكآبة طوال حياتهم وتلك الوجوه القاتمة والكئيبة من المشقة التى يعانون منها كل يوم، فمن أين لهم الفرصة ليغيروا من طباعهم خلال الليل – وخصوصاً إذا لم يكن لديهم إدراك أنهم فى حاجة إلى ذلك.

رحلتى الأولى للولايات المتحدة الأمريكية كانت فى عام ١٩٨٣على خطوط بان أمريكان فى رحلة إلى نيو يورك، وأنا أتذكر ذلك بالتفصيل بسبب شيء حدث لى هناك. بمجرد أن هبطت الطائرة فى مطار **جى إف كيه** قامت إحدى المضيفات بتوجيه الشكر لنا للسفر على متن بان أميريكان – وذلك فى حد ذاته كان شيئاً غريباً على أذنى- ثم أضافت بعد ذلك:"نحن فخورون للقيام على خدمتكم" مما أثار إندهاشى. الفخر للقيام بالخدمة؟! كيف يكون أى شخص فخور

للقيام بالخدمة؟ أتذكر تماماً، فيم كنت أفكر بمجرد أن غادرت الطائرة. لقد كانت صدمةً حضاريةً لى. أنا لم أفهم ذلك بالمرة حيث أننى لست معتادة على التوظيف الإيجابى لكلمة "يخدم". فى معجمى الشرق أوروبى من الممكن أن تعنى فقط الرق، الإستعباد أو الإهانة: شيئا غير جيد وسلبى تماماً.

عند وصولى إلى الولايات المتحدة تلقيت صدمةً حضاريةً أخرى: فقد قوبلت بإبتسامة عند دخولى أى محل أو مطعم. ياله من مشهد غير معتاد بالنسبة لى، حتى وإن أدركت بعد ذلك أنها إبتسامة مزيفة – على الأقل هذا ما قلته لنفسى، بسبب عدم فهمى فى ذلك الوقت أن المجاملات هى شىء أساسى بالنسبة لأى مهنة. ذهبت إلى مخبز فى صباح اليوم التالى مباشرة. الفتاة ذات أصول مختلطة والتى تقف خلف الكاونتر إبتسمت وقالت:"كيف حالك اليوم؟" مما أربكنى للحظات. وفى نهاية المطاف أجبت قائلة"لا زلت متعبة بعض الشىء من جراء الرحلة الجوية الطويلة" لكن قبل أن أنهى جملتى، سألت الشخص الذى دخل المكان بعدى نفس السؤال "سؤالى".أنها لم تبد أى إهتمام بالإستماع إلى الإجابة أو ما تحويه تلك الإجابة مما جعلنى أشعر بالحرج. كنت لا أزال فى هذا الوقت غير مدركة أن هذا ما هو إلا كود أو وسيلة للتواصل ولم يكن لها أى علاقة بالإهتمام أو الثقة أو مشاعرى الحقيقية. الإجابة الوحيدة المناسبة والمتوقعة كما تعلمتها بسرعة هى:"شكراً،كله تمام".لكن بغض النظر ،إلى أى مدى كان كل هذا لا معنى له، إلا أن هذا التبادل السريع لإثنين من الجمل التقليدية قد ساعد على تحسين التعبيرات المتشككة، غير الحميمة فى مواجهه الباعة فى الجزء الذى أنتمى إليه من العالم. لذلك إذا قام شخصٌ ما بتحيتى مع إبتسامةو "يوماً سعيداً" أرد عليه بإبتسامة قائلةً:" وأنت أيضاً." أدركت أن هذا النوع من الإبتسامة مهمّاً،كما يجب أن تبدو لطيفا أيضاً.

لكن كما قلت أن الإبتسامة هى شىء نادر فى صوفيا. فأنت تستطيع ان تتجول من متجر إلى فندق إلى مطعم، سواء كان خاصاً أم لا، فإن هذا فى واقع الأمر لا يهم- اللهم إذا كنت شخصاً مبتسماً كمن يضرب الذهب. حتى بائعو الشوارع لم يكتشفوا بعد خدعة غواية المارة لشراء قلم رصاص أو قطعة شيكولاتة أو برتقالة. أنهم ينظرون إليك كأن هدفك الوحيد فى الحياةهو سرقة برتقالهم.

صوفيا تعد مكاناً جيداً للملاحظة صدام العالم الرأسمالى مع العالم الشيوعى، لأن التغييرات السطحية واضحة تماماً للعيان. حيث أن وجه المدينة قد تغير تماماً خلال ثلاث سنوات. هناك الكثير من المحال ذات الملكية الخاصة، التى تبيع الطعام والملابس أو البضائع

الإليكترونية، وهناك أيضاً المطاعم والمقاهى. إن صوفيا أصبحت تزدهر بروح المنشأة الجديدة، من المنصات الموجودة فى الشارع إلى المؤسسات الإستشارية.ولكن حتى الآن فهم لم يدخلوا بعد حلبة المنافسة. ربما لأنهم لم يحتاجوا بعد إلى الدخول إلى حلبة المنافسة، فالناس هنا جوعى لكل ما هو جديد و غربى، وسوف يستمر ذلك لبعض الوقت قبل أن يصبح الناس متشبعين بما هو معروض وبالتالى تبدأ المفاضلة بين أفضل الوسائل لما هو معروض. إذا كنت تستطيع أن تستوعب فى ذهنك أن مستهلكى اليوم كان يجب عليهم بالأمس تقديم الرشوة للباعة من أجل قطعة من اللحم الجيد أو زوج من الأحذية الجيدة أو أى شىء أخر، إن سلوك كل المستهلكين وهؤلاء الذين يعرضون السلع أو الخدمات هو أيسر بكثير للفهم. لكن لسوء الحظ أنه ليس أسهل لإدراك المسألة. كلما نظرت حولى إلى مدينة صوفيا الوافدة حديثاً إلى الرأسمالية، كلما تذكرت كلمات المضيفة الجوية الأمريكية،والتعبيرات المهذبة التى سمعتها مراراً فى الولايات المتحدة. أما هنا فالإبتسامة ليست إشارة إلى التهذب، بقدر ما هى إشارة إلى دونية الشخص المبتسم. قد تكون الرأسمالية موجودة لكن لا يوجد فهم لمبادئها:مقولة "أن الزبون دائماً على حق" على سبيل المثال،لم يسمع بها.بل على العكس،فى كل ما يشكل واجهه للرأسمالية تجد أن منطق الموظفين فى المؤسسات الجديدة هو :لا تفكر ولو للحظة واحدة أنك أفضل منا فقط لأنك تملك المال! ربما قد تملك المال، لكننا نملك كبريائنا.

هذا السلوك يوضح شيئين. أولاً،بسبب أن هؤلاء الناس لم يسبق لهم إمتلاك المال ،لذلك فهم لا يدركون قوته. كما أنه يوضح أيضاً ماذا يعنى حدوث إلتباس أو تشويش فى طريقة تطبيق الرأسمالية. فبدلاً من تغذية ذلك الوعد بمجتمع سرعان ما ينعم بالرخاء، على الجميع أن يعمل بجد وإجتهاد،وقلة هم من سيصبحون أغنياء. كما أنها لا تضمن لك عملاً أو تأميناً أو رعاية صحية أو معاشاً بعد التقاعد. إن فكرة العدالة الإجتماعية،حتى وإن كانت لا تعنى شيئا أكثر من الفقر للجميع، إلا أنها لا تزال متواجدة هنا بقوة،إن لم يكن سياسياً فهو موجود أخلاقياً، وهناك صراع بين الإقتصاد الجديد والقيم الشيوعية القديمة. الناس هنا غير معتادين على أن يحوز أحدهم على المال، كما أنهم يتعاملون مع الثروة بعدوانية وإحتقار. إن المال لن يجعلك شخصاً أفضل، لكنه بالتأكيد يعطيك الحق فى أن تطلب الخدمة التى تدفع لها.

عندما أتذكر كتب تاريخنا القديمة، التى كانت تصور الرأسماليين كرجال ذوى جسم بدين ويدخنون السيجار، بينما العمال يبدون

نحيفى القامة وضعفاء،كما لو أنهم على وشك الموت، وكانت الدروس التى نتلقاها فى الماركسية عن الإستغلال الطبقى، ليس فقط لطبقة العمال ولكن أيضاً للفلاحين،أستطيع الآن أن أفهم من أين جاءت ثقافة عدم الإبتسام. إن الطبقة الشيوعية المتحررة العاملة لها كبرياؤها ومفهومها الأساسى فى خدمة الفرد لا يتناسب مع العقيدة الجديدة أو مبدئها للمساواة. لذلك فأنها لا تستطيع أن تجد لنفسها مكاناً فى وسائل الإتصال هنا. بالتأكيد، فهذا يعادل الإهانة. ونفس الأمر يعود على الإبتسامة. منذ وقت غير بعيد كانت الإبتسامة قد تؤدى إلى عدم الثقة. لماذا يبتسم هذا الشخص؟ هل هذا يعنى أنه أو أنها سعداء؟ - كيف يمكن هذا والبؤس يحيط بنا من كل جانب؟ آى مشهد يوحى بالسعادة كان يعد سبباً كافياً ليصبح الشخص محل شك – وفى أفضل الظروف كان ينظر إليه على أنه شخص غير مهذب. إذا كان كل شخص فى ظل الشيوعية يعرف بأنه شخص غير سعيد وبالتالى فأنه من المنطقى أن لا أحد يبتسم، وأن هذا لم يكن سلوكاً بغرض وظيفى أو تجارى.

فى ثقافة "الغير-مبتسمين" ، لم يتم إحتواء قوانين النظام الجديد وقيمه الجديدة وسلوكه بشكل كامل. إن كل الناس لا يبتسمون فى "ثقافة المبتسمين"،الكثير يفعلونها لأن طبيعة عملهم تقتضى ذلك، لكن وجه الخلاف أن الإبتسامة مشروعة:أنه حقٌ شرعى أن تشعر أنك سعيد أو أن تشعر بالراحة، وتعبر عن ذلك بالإبتسامة.

فى مدينة صوفيا، أصبحت مدركة أن تبعاً للظروف الجديدة فإن غياب المرجعية التى يعتد بها ويمكن الرجوع إليها فى ما يخص العادات والسلوك الإجتماعى تكشف عن سوء فهم شديد، حتى أنه يمكن إعتبار ذلك إشارة لصدام حضارى. حتى يمكن إجتياز ذلك، فإن الأمر يحتاج إلى أكثر من مجرد تمهيد لإقتصاد السوق الحرة، مثل المبادرات الخاصة أو حتى الديموقراطية. عندما أزور مدينة صوفيا وأجد أن شخصاً ما يبتسم، فسوف يكون ذلك بمثابة إشارة لى أن هنا تغييراً حقيقياً قد حدث.

وأنا فى طريقى لمغادرة مدينة صوفيا، ركبت تاكسياً إلى المطار. سائق التاكسى-ماركة لادا قديم- لم ينظر حتى إلى. ثم تمتم بالسعر الذى سيتقاضاه منى وهو يضع سيجارة على الجانب فى فمه. كانت السيارة تهتز بسبب موسيقى الديسكو الصاخبة. وكان قد ترك راديو السيارة مفتوحاً مما سبب نوعاً مريعاً من الإزعاج. لكننى لم أقل كلمة: لم أكن أجرؤ على هذا.بمنتهى الوضوح أستطيع أن أعتبر نفسى أننى كنت محظوظة لأنة سمُح لى أن أستعمل سيارته التاكسى الخاصة كوسيلة نقل عامة. وقد جاءت الرسالة واضحة تماماً:"هذه

سيارتى، وأنا أفعل بها ما يحلو لى.هل فهمت؟" ،"نعم،سيدى سائق التاكسى:لقد فهمت ماتريد" على ما أعتقد.

obeikandl.com

... مؤثرات برج المراقبة

عندما رأيت صفاً من خمسة أبراج مراقبة بمجرد خروجى من مطار ريناس بالقرب من تيرانا،كان رد فعلى:"هذه هىّ، أجل هذه هى ألبانيا،كما قرأت عنها وكما توقعتها أن تكون، بلدٌ تحولت إلى

سجن شيوعى".بالطبع أنا كنت أعرف هذا مثل الجميع، لكن المفاجأة بالنسبة لى كانت فى مكان مختلف، أنه الوجود الفعلى لأبراج المراقبة. عندما ترى الصف الأول وتفكر،ربما أن المطار يحتاج مثل هذا النوع من الحماية. الصف الثانى، يبعد فقط عشرين متراً عن الخط الأول،ربما لتدعيم الخط الأول. لكن بعد ذلك تلاحظ أيضاً الثالث،ثم الخط الرابع والخامس، والفرق بين الواحد منهم والآخر جميعاً من عشرين إلى خمسين متراً. والآن بعد أن توقفت عن العد وبدأت تفكر أن هذا لا يمكن أن يكون حقيقياً. إذا كان هناك هذا العدد الكبير من ابراج المراقبة فى هذه المساحة الصغيرة، فإن البلد بالتالى تكون ممتلئة بمثل هذه ابراج المراقبة! بالطبع لا، فلا أعتقد أنه يوجد أحد بمثل هذا الجنون. إن خيالك سوف يجمح وأنت تحاول أن تتخيل مئات بل آلاف من الكتل الخرسانية المتوحشة البارزة من الأرض مثل بعض أنواع عيش الغراب البالغة الضخامة والسامة والغريبة ،كأنك قمت بتلوين الطبيعة بألوان سيئة أو أنك تعد لمشهد من مسرحية عبثية.

لقد كان سيئاً بما فيه الكفاية أن فكرتى المبدئية تم تأكيدها، لكن ما أصابنى بالذعر أن الواقع كان أقوى بكثير من كل ما كنت أتخيله. لقد قام أنور خوجة ببناء حوالى ٦٠٠,٠٠٠ إلى مليون برج مراقبة عسكرى فى ألبانيا. فى هذا الوقت كنت تستطيع بتكلفة بناء برجين للمراقبة أن تبنى شقة سكنية فيها عدد ٢ غرفة نوم. لقد كان من الواضح أن الشيوعية فى ألبانيا مرتفعة التكلفة، كما يبدو أيضاً أن الثورة التى بدأت فى عام ١٩٩١ أيضاً لم تكن رخيصة.

بمجرد أن إعتادت عيناى على مثل تلك الأشياء الغريبة،والآثار التى تعود إلى الماضى، أثار شىء ما إنتباهى:أنها تلك المبانى المعدنية على جانبى الطريق، والتى يبدو منظرها غريباً، تماماً مثل ابراج المراقبة. لقد إحتجت إلى بعض الوقت لأعرف الغرض من تلك المنازل: أنها المنازل الخضراء التى إستخدمها الألبانيون لزراعة الخضراوات للتصدير. لم يكن من السهل التعرف على تلك المنازل لأنه تم تحطيمها. وما ظل باقياً هو دعامات الأساس الحديدية،والتى أنهار جزء منها، وجزء أخر خرج عن إطاره ولكنه ظل فى مكانه.عندما نظرت إلى الخروف وهو يأكل الخضروات والأعشاب، لاحظت أن الأرض مغطاه بما قد يكون أطنان من الزجاج المكسور. شعرت كما لو أنى أشاهد فيلم خيال علمى مثل "ماد ماكس ٢". لقد كان هناك إنزعاج وألم شديدين على هذه الأرض المهدرة وهذا التدمير الواضح.من فعل هذا، ولماذا؟

عندما سألت أصدقائى الألبانيين عن هذا،أجابنى أحدهم أن كل ذلك قد حدث أثناء الثورة،فى عام١٩٩٢ قام فقد قام الناس بتدمير كل ما كانت تستطيع أن تصل إليه يدهم-حتى أنهم دمروا المصانع،فعلى سبيل المثال قاموا بتدمير مصنع الخبز الكبير والذى يقع خارج تيرانا.لقد قاموا بهدم ونهب المحال والمستشفيات والمدارس سواء فى المدن أو فى القرى البعيدة فوق الجبال. أخبرنى صديقى أنه شاهد بنفسه مجموعة من الغوغاء تدمر أحد المنازل الخضراء منذ حوالى ساعتين.بعض الناس أخذوا صنابير المياه أو الألواح المعدنية لإستعمالها فى إصلاح شىء فى منزلهم. لكن الغالبية العظمى منهم كانت بهدف تخريبى بحت. أضاف صديقى قائلاً أنه لم يكن هناك من وسيلة لإيقافهم، كما لم يجرؤ أو يحاول أحد ذلك من قادة الحزب الديموقراطى الجديد أو البوليس. ثم عقب صديقى قائلاً إن هذا يعد من أكثر الأشياء سادية رآها فى حياته.

هذا هو ما أدى إلى تحييد الثورة الألبانية عن باقى أوروبا الشرقية. حيث أن هذا النوع من الإبادة لم يحدث فى مكان آخر. أجل، لقد تم إزالة ما يرمز للشيوعية، وتم الهجوم هنا وهناك على مبانى الحزب،لكن لا يصل الأمر إلى المدارس أو المصانع أو البيوت الخضراء. سألت نفسى: هل هذا ممكن أن يكون الناس هنا على هذا القدر من الغباء لعدم قدرتهم على فهم مصالحهم الخاصة وحاجاتهم؟ لماذا كان هناك هذا المستوى الغريب من العنف؟ أو هل هكذا كان فهمهم للحرية: الحرية هى أن تدمر؟

لكنى لا أعتقد أن الألبانيين كانوا أغبياء عندما فعلوا هذا، لكنهم كانوا على درجة من السذاجة، كما كانت تملئهم الكراهية. لكى تفهم ما حدث فى ألبانيا يجب أن تضع فى ذهنك الخنادق. التى كان غرضها الوحيد هو خلق الخوف وتخليده. فإذا كنت تعيش محاطاً بهذه الخنادق،وعندما تأتى الحرية فى النهاية، فإن الخوف يتحول إلى كراهية وعدوان. حتى إنك تستطيع أن تطلق على ذلك "تأثير كشك المراقبة". فالناس لم تدمر الجرين هاوس،بل قامت بتدمير جرين هاوس متعاون،والذى يعد رمزاً للنظام الجماعى أو ملكية الدولة. حتى المدارس وحضانات الأطفال كانوا يمثلون الدولة الشيوعية، وقوة ظلمها التى كانت تستند إلى تلك الخنادق. العنف كان تعبيراً عن رغبة فى محو الماضى،حتى من الشواهد المادية التى تدل عليه. كما لو أن الألبانيين كانوا سيتخلصون من الشيطان على نطاق واسع،كما لو أن الحياة الأفضل بإنتظارهم على قارعة الطريق. آكاد أسمعهم يصرخون:" نحن لا نحتاج أى شىء قديم،لأننا سنحصل على كل شىء

جديد، بل سيكون أفضل.وهذا هو كل شيء عن الديموقراطية و الحرية!"

لكن من أين أتى ذلك الوعد بحياة أفضل؟ لقد إكتشفت المصدر بمجرد وصولى إلى ضواحى تيرانا: أنها شاشة التليفزيون. المنازل الرثة المتداعية، ذات إثنين أو ثلاثة طوابق والتى تبدو جميعها كأنها تتهاوى، لكن على كل سطح من أسطح المنازل ستجد عدة أجهزة ستالايت وعدة أطباق إستقبال. تستطيع فى تيرانا أن تشعر بمدى أهمية التليفزيون بالنسبة للناس إذا كانوا على إستعداد لدفع هذا المبلغ من النقود لشراء طبق إستقبال لمشاهدة البرامج الأجنبية. من هنا جاءت رؤيتهم المستقبلية للحياة، تماماً مثل الفكرة التى دعت إليها الثورة، ليس فقط تغيير القوى السياسية لكن أيضاً مستوى حياة أفضل. فى رأيى الشخصى أن إعلانات التليفزيون هى الملومة أكثر من أى شيء آخر على ما وصلت إليه الثورة. حيث أنها قد خلقت التوقعات الكاذبة للإشباع الفورى لكل الرغبات. فقط إذا إشتريت هذا المنتج،إذا شربت هذا المشروب،إذا قدت هذه السيارة، فسوف تكون جميلا وثريا وناجحا تماماً مثل هؤلاء الذين تراهم على شاشة التليفزيون.

فى إحدى الأمسيات فى تيرانا جلست مع صديقة لى وإبنتيها المراهقتين لمشاهدة أوبرا إيطالية فى منزلها. بمجرد أن ظهرت الإعلانات على الشاشة، مقاطعة البرنامج، وجه البنات كاد يضيء من الفرحة.كل منهن كانت تردد الإعلانات اللتان تحفظاها عن ظهر قلب. فى تلك الأمسية، بدا لى أنه من الممكن تماماً من أجل الحصول على مستقبل أفضل فى ألبانيا، أن تدخل إلى ذلك الصندوق السحرى وتختفى فى الناحية الأخرى من الشاشة. مثل آليس التى عبرت إلى عالم العجائب من خلال المرآة.

من الذى لا يزال يتذكر الهجرة عندما مضى عشرات الألاف من الألبانيين عبر المهانة والإذلال ليصلوا إلى أرض العجائب ،الأرض التى يحلمون بها؟ هل كانوا يعرفون ما الذى ينتظرهم هناك؟ لا أعتقد هذا.

لقد كان يكفيهم كم الإحباط الذى نال منهم لعدم مغادرة ألبانيا، لكن سذاجتهم كانت مفرطة.هذه السذاجة التى كانت أكثر الأشياء إثارة فى الجانب المتحرك للألبانيين.لا يوجد بلد آخر فى أوروبا تم عزله إلى هذا الحد.فلم يوجد بلد آخر تم "حمايته" ضد الحقيقة بواسطة مليون خندق. بدون أى إتصال بالعالم الخارجى، لذا لم يبد مدهشاً أنهم صدقوا أن الصور الجميلة هى إنعكاس للعالم الخارجى. قام الناس هنا بإخبارى أنه فى ظل حكم " خوجة " أنه قد يصل بك

الأمر إلى دخول السجن إذا قمت بتوجيه هوائى التليفزيون تجاه إيطاليا.إن خوجة كان مدركاً خطر الدعاية السياسية مدعمة بإغراء الإعلام المرئى. إن السعر النهائى للعزلة والسذاجة كان مرتفعاً:نوعٌ من التدمير الذاتى. لقد كانت كما لو أن الألبانيين إعتقدوا أن الدولة أو الأشخاص يمكنهم البدء من الصفر.

يبدو لى أن الأمل فى حياة جديدة يبدأ مع الموز. أمام فندق داجتى كان يقف شاب طويل الشعر ويرتدى الجينز وحذاءاً رياضياً على الرصيف وأمامه صندوق من الكرتون يبيع عليه بعض الموز وولاعلت السجائر وسجائر المارلبورو وبعض اللبان والشيكولاته. وقد رأيته يقف هناك كل يوم. لا يبدو لى أنه يبيع الكثير لأنه على الرغم من أن "دكأنه" لا يبدو أوروبياً إلا أن أسعاره بالتأكيد كانت أوروبية. لم يكن هناك الكثير من الناس الذين يستطيعون توفير البضاعة "الفاخرة" التى كان يبيعها. والواقع أنه كان يبيع فقط إصبعاً أو إثنين كل يوم،وربما أيضاً لا، ومع هذا لم يبد عليه أى نوع من القلق. عموماً، ماذا يستطيع هو أن يفعل بالإضافة إلى ذلك فى بلد يبدو أن جميع مواطنيها يعانون من البطالة ويعيشون على الإعانات الانسانية(فيما بين عامى ١٩٩٢-١٩٩٤ قدم الإتحاد الأوروبى مساعدات بلغت ٤٢٠ مليون دولاراً)، لكن أن تقف هناك وتأمل أن تبيع إصبع موز واحد ثم تشترى إثنين ،وتبيع إثنين، ثم تشترى أربعة،حتى.....حسناً، حتى يستطيع أن يوفر حق الكشك.

فى تيرانا،الكشك عبارة عن صندوق من أى نوع وله سقف.ويجب أن يتسع حتى يستطيع الشخص أن يقف أو يجلس بداخله. يمكن عمل هذا الكشك من مخلفات الحديد أو القطع المعدنية التى يتم تجميعها من مخلفات القمامة. كما يمكن صناعته أيضاً من الصناديق البلاستيكية. عندما رأيت هذا الشاب أمام فندق داجتى، عرفت أن حلمه كان أن يمتلك كشكه الخاص. وهذا يعد فى ألبانيا طريقة سريعة لكى تصبح غنياً. بعد جولة فى أنحاء تيرانا،شعرت أن وجه المدينة سيتغير تماماً بعد فترة وجيزة، حيث سيتفوق تماماً عدد الأكشاك على على عدد المبانى الخرسانية.

حيث تنمو ليلاً بشكل عشوائى، وهناك حوالى ٢٠٠٠ كشك -من الموجود فعلاً – ظهر فى عامين من ١٩٩٢إلى ١٩٩٤ فى تيرانا وحدها. إذا كان لك أقارب فى إيطاليا أو تركيا أو فى أى بلد أخر فى الخارج،ويستطيع أن يرسل لك بعض المال، وإذا كان لديك وسائلك للنفاذ إلى القنوات والحصول على البضائع المهربة، وإذا كنت تستطيع أن تقدم الرشوة فى الأجهزة الحكومية لإعطائك التصاريح اللازمة لهذا العمل، فإنك تستطيع أن تحصل على كشك فى غضون

يوم واحد. ربما أكون مخطئة، وأن الناس لديها ما يكفى لشراء الهامبرجر،أو قدح قهوة،أو إصبع موز، لكن حتى لو كان فى إستطاعتهم ذلك، فمن هو الذى فى الواقع الذى يصبح ثرياً؟ بالتأكيد ليس هو ذلك الشاب الذى يقف فى الشارع ليبيع السجائر على صندوق من الكرتون. ففى أفضل الأحوال سيتم تعيينه كبائع فى أحد الأكشاك بدلاً من الوقوف على الرصيف. لكن المال المستثمر سيعود من حيث أتى.ولأنه فى واقع الأمر من المستحيل أن يقوم مالكو الأكشاك بدفع الضرائب بسبب الفساد.وبالتالى فلا مال سيذهب إلى الدولة.وإذا كان لا يوجد ضرائب،بالتالى لا توجد إستثمارات،لا فرص عمل جديدة،لا طرق، لا معاش للمتقاعدين،لا تأمين صحى. إن الشاب الذى يقف أمام فندق داجتى من الممكن أن يكون سعيداً، لأن لديه عمل. لكن مع هذا النوع من إقتصاد الإستثمارات الصغيرة فمن المحتمل أن تظل البلد فقيرة.

ما يستمتع به الألبانيون الآن هو الإحتمال النظرى فى أن تصبح ثرياً،وهذا يشبه تماماً إمكانية أن تشترى زجاجة ويسكى أو نوع جيد من العطورنظرياً،فى الوقت الذى لا تملك فيه المال الكافى حتى للتذوق. على أية حال أنهم يعيشون فى نوع من الوهم: وهم المجتمع الرأسمالى، وهم الحرية ووهم الديموقراطية. إن فقر البلد لم يتعلم بعد كيف يعتنى بنفسه.كما أنه لا أحد يستطيع أن يقول كم سيستمر هذا للشفاء من مرض العزلة والفقر والإحباط.

obeikandl.com

... النقود وكيفية الحصول عليها

فى عام ١٩٩٤قام صديقى "**جان**" السويدى الجنسية والذى يعمل فى مجال الإعلام التليفزيونى بزيارة جمهورية التشيك. فى زيارته الأولى لإوروبا الشرقية كان يقوم بإعداد برنامج عن معسكرات التعذيب فى مدينة **ترزين شتات،** وكان هناك صديق تشيكى أخر يعمل متطوعاً لخدمته ويدعى **فلاديك.** كان **جان** فى حاجة إلى مترجم وسكرتيرة لمدة يومين،لذلك قام **فلاديك** بإستقدام طالبة تدعى **مارتا** والتى كانت ترغب بشدة القيام بهذا العمل. كان دور **مارتا** بسيطاً: حيث كان عليها إجراء بعض المكالمات التليفونية وترتيب بعض المقابلات مع بعض الأشخاص ومصاحبة **جان** وفريق عمله فى مدة تتراوح بين ثلاثة أو أربعة أيام، وتم الإتفاق على أن يدفع **جان** لها مبلغ ١٥٠٠مارك ألمانى نقداً بالإضافة إلى مصاريفها. كان هذا المبلغ يمثل سعراً مرتفعاً بالنسبة **لجان** ولكنه قبل به نظراً لضيق الوقت وعدم وجود إختيارات أخرى. بالإضافة إلى أن **فلاديك** قد أوضح له أن هذا هو السعر السائد فى براغ فى هذا الوقت.

كانت الفتاة ترتدى ثوبها الجلدى القصير بالإضافة إلى جوارب فيليه-التى تشبه شبكة صيد السمك- وكان هذا النوع من الملابس لا يتناسب مع طبيعة العمل،لكن جان لم يبد آى تعليق بإعتبار أن طريقة هندام الناس لم تعجبه فى جمهورية التشيك على وجه العموم،كما أنه لم يرد أن يسبب لها حرجاً. إكتشف جان خلال الثلاثة أيام التى عملت فيها الفتاه معه أن لغتها الآنجليزية لم تكن جيدة بما فيه الكفاية كما أن قدراتها فى الأعمال المكتبية كانت دون المستوى. بإختصار،لقد أدت العمل بصورة رديئة، مما جعل جان يقوم بإخبار مارتا أنه غير راض عن المستوى التى أدت به عملها ولذلك فأنه لا يستطيع أن يدفع المبلغ الذى تم الإتفاق عليه. خلاصة الأمر أن مارتا كانت مستاءة كما أن فلاديك -الذى توسط فى تكليفها بالعمل- مندهشاً،فقد كان جان يملك النقود،إذاً:فأى إختلاف يمثله المبلغ الذى سيتم دفعه؟ فالمال تعود ملكيته إلى مؤسسة التليفزيون،وليس ملكية خاصة لجان،مما جعل جان فى موقف حرج. لم يكن الشىء الوحيد هو عدم رضاءه عن العمل،والذى عبر عنه بوضوح (الشىء الذى تعلمه لاحقاً هو أن هذا هو المعتاد هنا) ولكن فيما يبدو أن كلاً من مارتا و فلاديك لم يفهما ما كان يتحدث عنه جان. بالطبع فقد كان جان يتحدث عن مبدأ عدم الدفع لشىء لم يتم إستلامه بعد،وقد أوضح أن مبلغ ال ١٥٠٠ مارك لمثل هذا العمل إذا تم تنفيذه بكفاءة يعتبر أكثر بكثير مما يستحقه فى أى بلد غربى. أنه لم يحب أن يتم إستغلاله- من الذى يحب ذلك!

أصرت مارتا على أن العمل قد تم تنفيذه،فقد كانت تشعر بالضيق من أن جان يناقش جودة أداء العمل وربط هذا بطريقة ما بقيمة المبلغ الذى يجب أن يدفع. هل يهم أن هذا المبلغ يعتبر مرتفعاً فى أى بلد أخر؟ كما أنها لم تبد أى إهتمام بمدى إنخفاض المقابل المادى لهذا العمل فى أى بلد آخر لآن ما إتفق عليه كان هو السعر السائد هنا. لقد بدا الأمر كأنه حوارٌ بين شخص أصم وأخر أعمى. أما عن مارتا فقد ذهبت إلى أبعد مدى موجهةً التهديد لجان بطريقة غير مباشرة، فقد قالت له أن صديقها سوف يكون منزعجاً جداً أذا وجد أنها تلقت من المال أقل مما تم الإتفاق عليه، كما لو أن صديقها كان مثل ذلك البلطجى الذى يدير عمل العاهرات. حتى أنها فى نهاية الأمر بدأت فى البكاء والتنهد ثم قالت "أنا أمس الحاجة لهذا المال". وقد كان ذلك هو أخر ما خرج عن مارتا فى مواجهه ذلك الأجنبى الذى لم يحاول فقط الإحتيال عليها، بل أنه حاول الإساءة إليها. ولأن جان رجل مهذب وذو عقل راجح فقد أدرك أنه يحاول أن يعمل فى عالم أخر حيث أن قوة السوق تعنى رفع الأسعار مع عدم تقديم الخدمة الملائمة، لذا فقد قام بدفع المبلغ كاملاً للفتاه، لكنه شعر بالمرارة إن لم يكن بالإهانة. هل كان الناس فى براغ يعتقدون كونه شخصا أجنبيا فهذا يعنى أنه مليونير؟!

بطريقة أو بأخرى نستطيع أن نقول –نعم، كانوا يعتقدون ذلك. وأنا أتفهم مشاعره عند المواجهه-للمرة الأولى- مع"إلتقط كل ما يمكن إلتقاطه" كسلوك عام موجه ضد الأجانب. لا أزال أحتفظ بإيصالين دفع للتاكسى منذ صيف عام ١٩٩٤ حيث قمت بعمل رحلتين يقطع التاكسى فيهما نفس المسافة كما يفصل بين الرحلتين حوالى ساعتين وقمت بدفع ١٠٠كرون تشيكى ذهاباً و٢٠٠ إياباً.ومع ذلك فأنا لم أتعرض للغش. فالنظام هنا أكثر تعقيداً من هذا. ففى كلا المرتين رأيت بعينى المبلغ مكتوب على العداد وفى كل مرة إستلمت إيصالاً بالمبلغ، هكذا وبشكل رسمى كل شىء كان على ما يرام. بالطبع أثار هذا غضبى وقمت على الفور بسؤال السائق-سائق التاكسى ذى الأجرة الأغلى-عن سبب الإختلاف فى الأجرة. فقام بهز كتفيه بإستهجان وأعطانى إجابة قصيرة جداً:أن ذلك يعود إلى إختلاف الشركتين. بالطبع فى أغلب دول العالم هناك عدة شركات تعمل فى مجال التاكسى،لكن عادة فرق السعر بينها لا يصل أبداً إلى١٠٠ فى المائة.السبب بسيط للغاية:لا أحد سوف يستقل التاكسى التابع لهذه الشركة وسوف يتوقف نشاطها وتغلق قريباً. فى براغ يستطيع السكان المحليون أن يعرفوا بشكل جيد أى الشركات يمكن التعامل معها،

حيث أنه من الواضح أن الشركات المرتفعة الثمن "مخصصة" للأجانب.

فى المرة التالية التى كان على فيها أن أستقل تاكسياً يتبع الشركات غالية الثمن فى براغ،لم أتحدث بالآنجليزية.فقد إستعملت اللغة الكرواتية والتى تشبه اللغة التشيكية إلى حد كبير.وعندما أدرك سائق التاكسى أننى كرواتية،رأف بحالتى(بسبب الحرب) وكنتيجة لهذا دفعت الأجرة العادية. لا أستطيع أن أقول أننى رأيته يغير شيئاً فى العداد، لكن من المؤكد أنه قام ببعض التعديلات فيه.منذ ذلك الوقت وأنا أتحدث فقط الكرواتية فى براغ ويجب أن أقول أنه منذ ذلك الوقت قد تمت معاملتى بشكل مختلف. على الأقل لم يتصرف أحد معى على أننى مليونيرة. ومع ذلك لم أتصرف بنفس الطريقة فى بودابست وجعلت نفسى أقع ثانية فى نفس النوع من المشاكل. من محطة القطار قمت بإستقلال التاكسى الأول فى صف الآنتظار وقد كلفنى ذلك ٢٧٠٠فورينت (٢٧دولاراً بالتمام) لأصل إلى مقصدى. وهذا هو ما كان يجب على عدم فعله، كما أخبرنى صديق لاحقاً. حيث أن هناك شركتان فقط للتاكسى فى بودابست سوف يتقاضون تعريفة أجرة التاكسى الطبيعية. لذلك يجب أن تسأل سائق التاكسى فى أول الامر كم ستتكلف أجرة يوم، ثم تبدأ الفصال فى قيمة الأجرة، لأنك تستطيع أن تكون متأكداً أن الأجرة الأصلية للتاكسى بعيدة تماماً عما ذكره السائق. وإذا كان السعر لا يزال يبدو مرتفعاً عليك سؤال التاكسى الذى يليه،وهكذا دواليك – فهم قد إعتادوا على ذلك. وزيادة فى التأكد ،لاحظت الفرق، حيث أنه لاحقاًبعد يومين ، عندما عدت إلى محطة القطار ، فقد قمت بدفع مبلغ أقل أربع مرات تقريباً لنفس المسافة.

يبدو لى أن سائقى التاكسى فى بودابست يفهمون قوانين أو مبادىء الرأسمالية بشكل سلبى: مثل غياب أية قواعد، بإستثناء المقايضة المعتادة مع السائحين، ربما أيضاً الغياب التام للقانون.أما سائقى التاكسى فى براغ الذين يتقاضون فقط ضعف الأجرة الأصلية، فأنهم مثل الملائكة مقارنة بمثلائهم فى بودابست. وقد لاحظت أنه لا البوليس،ولا أية سلطة للدولة تستطيع أن تفعل أى شىء حيال قانون الغابة هذا والذى يعد أحد الموضوعات الرئيسية فى الصحافة هنا. قيادة التاكسى هنا ينظر إليها كمنشأة خاصة،وذلك فى ظل منافسة شريفة وهذا ينظر إليه هناك على أنه مفهوم دخيل. من المؤكد أنه لا توجد هيئة تتولى تنظيم هذا الأمر. لكن هناك أيضاً شىءٌ يقول لك أن سائقى التاكسى منظمون جداً،عبارة عن مافيا غنية لديها الكثيرمن السلطة والقدرة على تحريك الأمور عند الضرورة.لكن إذا قمت

بإستقلال تاكسى بأجرة مرتفعة الثمن بشكل مبالغ فيه للمرة الأولى عند وصولك إلى –لنقل - جمهورية التشيك،فإن العديد من المفاجآت فى إنتظارك، على سبيل المثال، فعند الوصول إلى الفندق سيتم مطالبتك بأجرة مضاعفة فى نفس الوقت الذى يدفع فيه الشخص الذى بجانبك فى الإستقبال نصف ما تدفع، ويقوم عامل الإستقبال بهذا الغش وهو يتحدث إلى الضيف الأخر مبتسماً باللغة التشيكية. لماذا؟ لأنه مواطن تشيكى وأنت أجنبى. نعم، فأنت تدفع هذا الثمن لأنك أجنبى والتى لا زالت تعنى بالنسبة لنا ما يوازى "ثرى". هذه القاعدة تم إرساؤها منذ مدة طويلة إبان الحكم الشيوعى،وذلك فى كل بلاد أوروبا الشرقية، وعلى الرغم من تغير نظام الحكم إلا أن هناك العديد من الدول التى لا تزال تطبق هذه القاعدة، ويعود ذلك لسبب واضح ألا وهو النقود. ربما تعتقد أن هذا التفريق فى المعاملة بسبب جنسيتك(كنوع من الإحساس القومى!) كان يحب إختفاؤه لأن إقتصاد السوق الحر لا يفرق بين المحلى والأجنبى. لكنه يحدث هنا هذا النوع من التفريق.لكن إذا كنت على دراية بأن هذا النوع من التفرقة فى المعاملة موجود بالفعل، فمن السهل أن تدرك أن هذا السلوك قد إمتد أيضاً إلى سائقى التاكسى. فإذا كنت تدفع الأجر مضاعفاً لتأجير غرفة فى فندق،فلماذا لا تفعل نفس الشىء مقابل توصيلة تاكسى، أو أى شىء أخر؟

ولذلك فأنه ليس من الغريب أن يشعر الأجانب الذين يزورون هذا البلد أنه يتم الإحتيال عليهم فى كل شىء يفعلونه، فعلى سبيل المثال حاول أن تقوم بإصلاح سيارة فى مدينة **براغ** ، سوف ترى كم أن المبلغ الذى سيكون لزاماً عليك أن تدفعه هو أكبر بكثير مما يجب عليك دفعه. وإذا كان لديك لوحة أرقام أجنبية على سيارتك فلا تندهش إذا وجدتها مهشمة بعض الشىء من الخلف مع وجود قطعة ورقية خلف ماسح الزجاج الأمامى مدون عليها "سيدى العزيز: لقد إصطدمت بسيارتك مساء أمس لأنك تركتها فى المكان الخطأ ولقد تهشمت سيارتى من جراء ذلك بشدة ، و تبعاً لذلك فأنا أتوقع منك أن ترسل لى مبلغ ٤٠٠ مارك ألمانى على حسابى فى البنك رقم....." و هو ما حدث تماماً لصديق لى منذ حوالى ثلاث سنوات مضت. فالأجانب يشعرون أنه يتم الإحتيال عليهم، و هو شىء طبيعى لأنه بالفعل يتم الإحتيال عليهم.

فمن خلال اللغة يتم التعرف على الأجانب بوضوح وتحديد أنهم ينتمون إلى فئة أخرى من الناس،تلك الفئة التى يتم الإحتيال عليها وسرقتها.

هذا السلوك يمكن فهمه جزئياً من خلال المعايير المزدوجة جنباً إلى جنب مع تلك الفرص الجديدة التى تعطى إمكانيات متعددة للتحايل من أجل الحصول على المال لتعويض المعاناة التى إمتدت لسنوات تحت وطأة النظام الشيوعى تماماً كما فى حالة **مارتا** ، أنه الخضوع مرة أخرى لمبدأ "أنت تملك وأنا أحتاج" لكن من المؤكد أن جزءاً من هذا يخضع لمفهوم الثورة والعمل، والعلاقة بين الإثنين. فى زيارته الاولى لدول العالم الشيوعى توقع صديقى السويدى أن يحصل على درجة من الخدمة ترتقى الى المستوى المطلوب والتى تحتوى على بعض المبادئ الاساسية مثل الالتزام بالمواعيد وتفويض السلطة على أقل تقدير بالاضافة الى إحترام وتقدير قيمه المال تماماً كما يحدث فى السو يد ولكنه لم يجد ذلك بل وجد سلوكًا شيوعياً تجاه الأعمال والمال والأجانب بل اتجاه المبادئ أيضاً فمن وجهه نظره أن على المرء أن يبذل المجهود المناسب ليحصل على ١٥٠٠ مارك ألمانى حيث أن المال لا ينمو على الأشجار، لكن كيف يمكن لمجموعة من الناس لم يعرفوا مطلقاً أى علاقة تربط المال والعمل؟ يذكرنى بلعبه (سيبى كارى) ولعبه الودع ولعبة مراهنات الشوارع بأشكالها المختلفة والتى توجد فى العالم كله فى أغلب المدن تجد مجموعة من الرجال يقفون على الرصيف محاطين بمجموعة من الرجال الذى يشاهدونهم وهم يحركون بأصابعهم كره ورقية صغيرة وثلاث علب كبريت فارغة، حيث يقوم رجل بإدارة علب الكبريت بسرعة فى يديه وعلى الآخرين يراهنوا علبة الكبريت التى تحتوى على الكرة الورقية الصغيرة ومن المستحيل أن تربح فالشخص الوحيد الذى يستطيع أن يربح هو شريكه بالثلاث علب كبريت، إن محاوله هؤلاء التلاعب بالاخرين هو أمر لا يدعو للدهشة لكن الذى يدعو فعلا للدهشه هو وجود الرغبة الحقيقية من بعض الأفراد المشاركة فى هذه اللعبة والمحاولة وخسارة نقودهم أنها ليست كمية كبيرة من المال، ولكن هذا ليس بيت القصيد، ولكن بيت القصيد هنا هو الحصول على بعض المال عن طر يق اللعب (القمار) وهذا تحديداً هو السلوك تجاه المال فى دول العالم الشيوعى السابق

نشاهد الناس الآن العديد من الألعاب المسلية التى تنتشر فى كل مكان الآن وطريقة ممارسة هذه الألعاب أكثر تعقيداً بمراحل من لعبه الثلاث علب كبريت

كما فى لعبه النرد، تستطيع أن ترى العديد من مجموعات الألعاب السهلة والمغرية للاستحواذ على المال من السوق السوداء والمضاربات العقارية والتهريب وسيطرة الاحتكار على الخصخصة والاسهم والفساد وتبيض الأموال (غسيل الأموال) أو بعض أساليب

المافيا الأخرى أو أى أعمال مليئه بالإجرام فلا أحد يصبح غنياً عن طريق العمل، فالناس يعتقدون أنه يجب أن يكون هناك خدعة او حيلة للحصول على المال فقط إذا كانوا يستطعون حل اللعز ينقلون الصواب فأخلاق العمل غير موجودة على أى حال فلم يسبق لأحد أن اصبح غنياً عن طريق العمل، يتم ذلك فقط عن طريق الصعود على سلم الحزب او اكتشاف طريقة من وسائل الاغتناء بدون مجهود كما ذكرنا فيما سبق، فمن خلال الخبرة المتراكمه لدى الناس العاديين ان تعمل قليلاً وتحصل على قليل من المال واذا قمت ببذل المزيد من المجهود فى العمل فلن تحصل على مزيد من المال، فلما الآنزعاج بمثل هذا الامر ؟

فقد احضرنا معنا الى النظام الجديد عقلية العقل الإجبأرى، أنت تعمل ولا تحصل على أى شيء مقابل هذا العمل فلا ترقيه ولا الشعور بالرضا ولا فخر ولا احترام، وأيضا ولا نقود، لذا فأنت لا تستثمر طاقتك او تدخر طاقتك ومعرفتك لاستخدامها فى مجال آخر فى عمل إضافى إذا أمكن ذلك وبفضل أن يكون ذلك خلال ساعات العمل الرسمى فأنت تتصرف بشكل تخريبى على قدر الإمكان، وفى النهايه فأنت تحصل على مبلغ زهيد للغايه والنتيجه المترتبة على ذلك هي مشكلة اليوم الرئيسية على وجه التحديد حيث أنه عليك اليوم أن تبذل مزيداً من الجهد فى العمل مقابل الحصول على هذا الاجر الزهيد (٤٠ دولار هو متوسط الراتب الشهرى لنقل فى البانيا _ رومانيا _ بلغار يا أو صربيا) وفى مثل هذه يعد مستحيلا تنمية الجانب الأخلاقى فى العمل أن تضع فى عين الاعتبار مستوى الجودة فى أدائك أو أن تعامل بالمثل هؤلاء الذين لا يمتلكون المال (المحليون)أو الاجانب الذين يزالون أغنياء فى إطار طرحنا للموضوع

لا يزال هناك عنصر نفسى فى السلوك المعاصر او بالاحرى سلوك الوقت الحاضر تجاه المال الا وهو غياب المستقبل وهذا يعد أيضا من موروثات الشيوعية بشكل اساسى، وبالتالى ليس هناك مستقبل، فمستقبل افضل كان يحصد أساسا فى غش الحاضر فكان هذا يتكون من مجموعة من الناس تعرف عن ظهر قلب خضوع أكبر للسيطرة خوف أكبر ربما ايضا كمية أكبر من الغذاء، جهاز تليفزيون ملون، ثلاجة أو سيارة فى أفضل الأحوال المشهد لا يوجد فيه ما يبعث على البهجة، فعندما لا تستطيع أن نخطط أو نستثمر أو نتقدم فى مجالك الوظيفى (عملك) أو فى مستواك العلمى وأن تعمل بحريه وأن تنتقل الى وظيفة أفضل لأولادك كل هذا ليس بكثير انتظاره فى المستقبل، لذلك فالقليل من المال هناك كان من السهل الحصول عليه ولا يتطلب بذل الكثير من المجهود، كل هذا الى نبوءة الحياة

فلم يكن هناك الكثير الذى يتوقعه المرء وقد تم الاعتياد على هذا بالتأكيد عندما تبدو كلمة المستقبل كشعار أجوف فكان الناس على حق لشعورهم أن بذل المجهود بدلا من تحسين بعض الأمور الطفيفة (الصغيرة) فأنه قد يؤدى الى الأسوأ فى نهاية الأمر فان ما هو متوقع حدوثه بشكل مؤكد منح الناس فى النهايه شعورا بالأمن وشعورا بالحماية من نواقص الامور أن أكثر ما ينقص الناس الآن هو الشعور بالأمن الذى فقدوه مع سقوط الشيوعية مثل العمل، الوجبات المدعمة، التامين الصحى والاجتماعى إجازة الوضع (الولادة) الإجازات المرضية وكنتيجة لذلك فأنت لا تستمر أو تبنى أو تدخر من أجل المستقبل أنت فقط تنتزع من ما هو متاح ليومك لأنه من الممكن أن يكون موجودا فى اليوم التالى فلذلك فلا يزال المستقبل غير موجود أو بصيغة اخرى فإن المستقبل بعيد وغير واضح و يزال غير ممكن الوقوف به وقد قام أحد مالكى المطاعم بشرح هذا لى ببساطة عندما توجهت إليه بالسؤال: لماذا لم يقم بتخفيض أسعاره؟ عندما أصبح هذا المطعم الآنيق خاليا من الزبائن؟ فقد قال لى يجب ان أحصل على كل ما أستطيع اليوم فأنا لا أعرف ماذا سيحدث غدا واذا كنت سأنال مثل ما قد حصلت عليه اليوم فلا يزال الناس غير قادرين على فهم أن هذا لا يعد بمثابة اخر فرصة لهم فمن الأفضل لهم أن يعملوا وهم يضعوا المستقبل نصب أعينهم فإن تمزيق فيهم الفرد من الممكن أن تؤدى عودته ولكنك تتعلم فقط عن طريق الخبرة وخمسة أعوام ليست بالفترة الكافية للحصول على مثل هذه الخبرة وبالا المصادقه فبمجرد أن انتهيت من كتابة هذا المقال قامت الحكومة التشيكية بإصدار قانون يقضى بإعطاء ضباط الجمارك على الحدود الحق فى التأكد من أن كل سائح يدخل للبلد يجب أن يكون معه لحد ادنى حوالى ٢٠ الف دولار لليوم، ومن المثير للإهتمام أن التشيك قام بإحياء هذا الاجراء من الماضى سواء كان شيوعياً أم لا؟ وهو ليس بالشىء السيء طالما أنهم يجزم اهتمامك ولقد قرات فى صحيفة الفانينشال تايمز فى عددها الصادر فى ١٠ اكتوبر ١٩٩٥ السيد يارو سلاف ليزز أن المسئول السابق الخصخصة الشامل قد تم الحكم علية بالسجن سبعة أعوام بتهمة الفساد وبتغريمه ما يوازى ٣٨ ألف دولار السيد لزيز الذى أشرف بدوره أيضا على الأوراق المالية تم القبض عليه خارج مطعم فى مدينه براغ بعد حصوله على محتوى على مبلغ ٤.٣ مليون كرتونة تشيكى نقدا وقد تم اتهامه مقابل إجراء ترتيبات للحصول على أسهم هل يكون هذا مجرد مصادفة اخرى

أخيرا أصبحت النقود بالتأكيد ليس هذا المبلغ الكبير ولكن كل شىء نسبى فاذا كنت قد أمضيت حياتك كلها نضالا من أجل البقاء

على قيد الحياة فإن امتلاك بعض الأموال نقداً فبالنسبة لى يعد هذا بمثابة انجاز وكل هذا الآنجاز قى ذاته هو مشكلة فماذا افعل بمثل هذا المال ؟

فاذا اخبرنى أحد منذ عشر سنوات أن امتلاك المال أن يسبب مشكلة فمن المحتمل أنى كنت سأنفجر من كثرة الضحك وربما كنت ساقول أعطى المال وأنا اعرف ماذا سأفعل به فاذا اعتقد اننى فى هذا الوقت كنت أعرف تماماً كيفيه إنفاق هذا المبلغ من المال فالآنفاق كان هو الشيء الوحيد المتفق علية بخصوص المال فقد كان هو الشيء الذى من أجله وجدت النقود لقد أصبحت اليوم أدرك أننى لا اعى شيئا اطلاقا عن النقود كيف يتسنى لى أن اعرف ؟

فالقليل من المال كنت أدخرها كنت اقوم بإنفاقها بمنتهى السهولة وبدون أى تردد فقد كان هناك دائماً العديد من الأشياء التى كنت فى أمس الحاجة لها ولم أملك القدرة على شرائها فقد كان هناك لا جدوى من محاولة الإدخار لأنه مهما حاولت فلن أستطيع أن أدخر بما فية الكفاية أعرف أن هذا لا يبدو منطقيا فاذا كنت تحصل فقط على القليل من المال بالأمر الطبيعى هو أن تقوم بالإدخار كى تحصل على المزيد لكن من أجل ماذا سوف ندخر؟ هل يكون ذلك من أجل استثمار رأس المال ؟ لقد مضى وقت طويل على فعل مثل هذه الأمور فى منتصف الستينات عندما كان مستوى المعيشة والدخل اعلى كان من الممكن لوالدى على سبيل المثال بناء منزل لقضاء العطلات على الساحل بالطبع كان هذا نتيجة لسياسة تيتو الناجحة فى الاقتراض من الغرب والتى ادت فى النهاية الى تراكم الدين الخارجى حتي وصل الى ٢٠ بليون دولار لكن من كان يهتم فى ذلك الوقت لمسالة الدين الخارجى ؟ المهم أن جيلى قد كافح من أجل البقاء لم يكن عندى أدنى أمل فى أن أستطيع الادخار من مرتبى الشهرى كما لم يستطيع أحد آخر أن يفعل ذلك فى منتصف الثمانيات أصبحت القروض التى كان يقدمها البنك لشراء منزل غير موجودة وكان التضخم يتصاعد بسرعة كبيرة حتى ولو كان لديك مال ادخرته وأردت تشغيله قلن تخبى شيئاً خلاصة الأمر أن النظام الاقتصادى كانن يعمل ضد الادخار لقد كانت فترة اندحار ولم يكن هناك شيء يمكن عمله سوى انفاق المال على ما تستطيع تحمل نفقاته مثل الغذاء الملابس العمل لذا لم أجد صعوبه فى انفاق المال الذى كان بحوزتى من وقت لآخر كنت أمتلك الجرأه فى أن أتخيل نفسى أملك الكثير من المال كان ذلك يبدو لى كمن يعيش فى صفة المستهلكين فكان ضخما بنظام الخدمة الذاتية تستطيع أن تتسوف فيه الى حد التخمة لكن القاء نظرة فقط على حوائط شقتى الغير

مدهونه والأثاث المتهالك والسيارة الرينو الى استعملتها منذ عشر سنوات ولا داعى لذكر الأشياء الى كنت فى أمس الحاجة اليها جعلنى أشفى من مثل تلك التغيرات الغير صحيحة أدركت الآن أن أول شيء سوق احتاج اليه إذا اتيح لى أن أمتلك لبعض المال أمتلك بعض المال هو اعادة طلاء شقتى لكن الشقة كانت فى درجة من السوء جعلتنى لا استطيع ادخار المبلغ الازم لإصلاحها كل ما كنت أستطيع فعله هو اغلاق عيناي وتستمر العجلة فى الدوران حيث أقوم بعملية تضميد المنزل هنا أو هناك وشراء البضائع البسيطة التى كنت أستطيع توفير ثمنها بالإضافة الى بعض الكتب والمجلات والعطور وأدوات المكياج والملابس حيث كان لدى فى هذا الوقت ملابس أكثر بكثير وعندما يأتى صديق لزيارتنا فى زغرب فى منتصف السبعينات كان يلاحظ أن النساء كن يرتدين أفخر الملابس وأتساءل عن إمكانيه حدوث ذلك بمثل هذا الدخل القليل ولكن فى هذا الوقت كانت تكلفة المعيشة منخفضه للغاية وانفاق الجزء الصغير المتبقى من الدخل كان هو مصدر سعادتنا الوحيد والنتيجة لذلك أنه كان يبدو علينا وأيضا تصرفنا كأغنياء فقد قمنا تنمية سلوك ينطبق عليه المثل الشعبى كما يأتى سريعا يذهب سريعا لكن حتى الآنفاق الذى قومنا به كان يتطلب استراتيجيه فعند السفر للخارج كنت أستطيع شراء ملابس فقط فى موسم التخفيضات لم اكن أزعج نفسى بالحديث عن التسوق فى بلدى لأنه فى المقام الاول لم يكن هناك الكثير الذى يمكن شراؤه فقد كان بيع البضائع هناك ذا مستوى متدنى للغاية فالبضائع فى موسم التخفيضات جراتس أو ترسيت ذات مستوى فى غاية التدنى أيضا لكن كان هناك فرق بين بضاعتنا والبضاعة الرديئة المنتجة فى الخارج صحيح أنه فى واقع الامر كل المنتجات الرديئه تم تصنيعها بشكل سيىء لكن أحياناً إذا أخذت وقتا فى البحث بتأنى وكنت محظوظاً فقد تجد بعض الأشياء الرخيصة ولكنها تبدو مرتفعة الثمن الرب وحده هوه الذى يعرف إن كانت تلك السلع المباعة او سكونتى فى ترسيت حقيقة أم لا أما عن نفسى فقد كنت اعتقد أنها بضاعة زائفة وأشعر أننى قد خدعت وقد هدانى تفكيرى فى هذا الوقت تماما كما هو حال الآف من مالكى المجال التجاريه قد اكتشفوا الكلمة السحرية لجذب الزبائن ألا وهي كلمة (التخفيضات) والتى كانت تعلق لنا نحن فقراء البلقان الجياع اكواما من الملابس الداخليه والتشيرتات والاحذيه والملابس وكل شيء كان يعلق عليه تخفيضات والتى جعلتنا نتطاير كالذباب، كان هناك أيضا نوع من الطقوس فى طريقة التسوق فأنت تذهب مبكرا فى الصباح حتى تتمكن من معرفة الأماكن المعتادة مثل (جيوفانى

_ستاندا_يونت روسو) لأنك تقول لنفسك إنك سوف تتمكن من تحطيم الأسوار واختيار ما تريد قبل أى أحد اخر، ولن تتمكن من زربه ما هو أفضل حيث إن هذا يحدث فى المجالات العادية فقط ما هو الهدف من ذلك أن المحل الذى كنا نرتاده كان يمتلىء بالبضاعة الرخيصة أيضاً ولكن الأسعار فيه كانت أرخص مما يساعد على الادخار ببضعه الآف ليره فكى يساعد على التوفير لشراء زوج من البنطلونات الجينز او الجواكت والتى ظلت كما هي لم تتغير قط بعد مرور سنوات بعد الأخرى ترشحت مثل هذه العدة فى سلوكى تجاه التسوق وبطبيعه الحال أيضا تجاه المال عموماً ليس ذوقى بالطبع فالذوق عموماً عندما لا تملك المال هوه عبارة عن كيفيه شراء الملابس الرخيصة وطريقة ارتدائها والتوفيق بين الاثنين، لكن فى هذا اليوم بمجرد أن رايت الكلمة السحريه (التخفيضات) والضوء مسلط على شىء تم تخفيض سعره الى ٩٩.٩ جنيهه استرلينى او ١٩ دولار امريكى او ١٩٩ كرون سويدى او ١٩٩ شلن نمساوى او ٩٩ مارك المانى او اى مبلغ صغير كم المال من أى عمله فى الواقع كان يجب ان أتفحص جيدا المعروض وكان يصلح لى منه مثل ادوات المطبخ او المناشف _ المنظفات حتى اذا كنت بصدد شراء الأحذيه فقط أنه سلوك متراكم عندى فكان يجب أن أنظر جيداً لأتجنب الشعور بأننى ربما افتقد فرصة جيدة فى هذا الاوكازيون بالطبع لقد انتهى بى الامر بشراء شيرتات وثلاث صنادل منزلية أنا أحث بهم فعلا وعشر أزواج من الجوارب التى لم أستطيع أن أقاومها فقط لأنها رخيصة كل هذا كما أفسر عندما أعود للمنزل مقابل مبلغ زهيد من المال فماذا يوجد أهم من شراء مثل هذه الكمية من الأشياء مقابل مبلغ لا يذكر من المال مما أعطانى شعورا بالرضا أعتقد أن هذا يعيد نوعا من الفن مما يجعلنى افتخر بنفسى لبرهة من الوقت لكن لا فهو ليس كذلك وفى داخلى أنا على اقتناع بذلك فأنا أعلم ان التشرتيات تتمزق تماماً بعد غسيلها للمره الثانيه وان الصنادل المنزليه تصبح غير صالحه للاستعمال بعد اسبوع من ارتدائها، كما أن الجزء البلاستيكى فى الجوارب كان غير صالح عند الشراء فشراء مثل هذه البضاعة الرديئة ليس به أى نوع من الفن، لكنه يعد فقط سلوكا اضطراريا مثيراً للخوف او كما فى حالتى عاده سيئة لا تستطيع التخلص منها مثل التدخين فبالله عليك لقد تغير الزمن لقد تغير كل شىء كما يقول زوجى فأنت غير مقيمة الآن فى يوغوسلافيا الشيوعية حسناً قد يكون النقطه أتت معنى فحتى يوغوسلافيا نفسها لم تعد موجوده الاف فأنت تستطيع أن تشترى ما تريد حاولت أن أشرح له اننى لا استطيع لكننى اخشى أنه لم يستطيع ان يتفهمنى خصوصا كيف

يمكن له أن يفهمنى وهوه ينتمى الى غرب أوروبا بالاضافى الى ذلك فهو من هذا النوع من الرجال الذين يشترون الاشياء مرتفعه الثمن ليتاكدو ا أنها ستظل صالحة صالحة الاستعمال لعدة أجيال. فماذا استطيع ان افعل ؟

اقوم بالكذب عليه عندما أقوم بشراء كا بسعر منخفض أقوم بإضافة صفر أو صفرين الى السعر أنها كذبه صغيره بيضاء وأنا أتصور أن أى رجل سوف يكون سعيدا إذا قامت زوجته بالكذب عليه بهذه الطريقة بدل من أى طريقة اخرى ملتوية لكنه ليس سعيدا فهو يريد أن أعتاد على حقيقة ما بعد الشيوعية وهي أن اشترى بضائع ذات جودة عالية حيت أنه تعرف على منذ حوالى عامين إذا فهو لا يعرف تاريخى فى التسويق فهو لا يدرك أننى لا أهتم كثيرا بمستوى الجودة وقد أوضحت له أننى تعودت على الأشياء المتداعية وأنا لا أشعر بالذنب عندما أشترى مثل هذه الاشياء وأننى لا أقوم بإنفاق الكثير من الأموال فى الشراء لكنة قال مجادلاً إننى هكذا أقوم بإهدار المال ورددت عليه قائله ربما لكننى لم أتعلم هذا الدرس بعد فأنا احتاج المزيد من الوقت لكن مشكلتى أسوأ بكثير حيث إننى لم أجرؤ على الاعتراف له بها فاذا قمت بشراء شىء مرتفع الثمن فأنا لا املك القدرة على ارتدائه حيث إننى لا اشعر بالرضا بسبب ارتفاع ثمنه فانا اخشى أن يتلف او يتسخ او ان اقوم أنا بتدميره بطريقه او بأخرى فمنذ عامين مضوا قمت بشراء فستان من قطعتين من (كنزو)وبالرغم من معرفتى كم أبدو جميلة عند ارتدائه فأنا اقوم بإرتدائه فى المناسبات الخاصة فعلى سبيل المثال عندما قابلت ملكه السويد لكن كم مره تتوقع ان تقابل ملكه حياتك ؟ كما أن لدي فستان غاية فى الآناقة من أرمانى وعندما افكر فى هذا الفستان أتعجب كيف واتتنى الشجاعة وقمت بشرائه من المؤكد أنه انتابنى حاله من الهوس أو الجنون عندما قمت بفعل ذلك لكننى قمت بارتدائه مرتين كنتيجه لذلك قريبا سوف يصبح هذا الفستان غير مسايرللموضة وعندها سوف أندم أكثر على القيام بشرائه ربما سوف يكون أكثر إحباطاً لى أن ابنتى من الممكن ألا تفهم ولعى الشديد بالشراء حتى وان كانت قد نشات فى ظل الشيوعية ولم تتركها الا مجدداً عندما انتقلنا للقيام بالخارج لا عموما لقد قامت بإنفاق كل ما كان بحوزتها من مال بدون ان يعتبرها شعور بالذنب أيضا فى غير موسم التخفيضات حتى يكون الأمر واضحاً وأنا اشك حتى فى أنها قد تفهم ما أنا اتحدث بصدده فقد تأثرت بنشاتها فى خلفية شيوعية بطريقة مختلفة فقد كانت تتوقف بشراء بكل ما تشعر أنها بحاجة اليه مما جعلها تصبح شخصاً يرغب فى الشراء بنهم شديد فهى تعمل

من أجل الحصول على المال لتقوم بإنفاقه لان الآنفاق يجعلها تشعر بالسعاده ومن وجهه نظري أن هذا يعد بمثابة تعريف نموذجي للمستهلك من وقت لآخر أقوم بعمل حيلة وذلك عندما أرغب في شراء شيء ولا املك القدرة او الجراءه على فعل ذلك حيث اقوم بااصطحاب ابنى للتسوق معى وأنا لدى عذرى فى فعل لذلك حيث اننى احتاج الى ذلك بوضوح حيث تقوم هي بوضعى داخل الفستان فأنا أتذكر شرائى للفستان ماركه لورا اشلى منذ عده سنوات حيث اننى أتذكر اننى احتجت اكثر من ساعه لتجريب الفستان حيث كونت ارتديه واقوم بخلعه مرة بعد الاخرى حيث إننى كنت مترددة ولم استطيع أن أقرر لأنه بالتحديد لم يكن فستانا رخيص السعر والسبب الذى كان وراء محاولتي لشراء هذا الفستان لمناسبات معينة لم يكن مقنعاً بما الكفاية لى ثم قالت لى ابنتى ان انظرى كيف تبدولى علامات الغيظ والضجر فى عينى تلك المراه تجاهى ؟وفى النهاية تحقق مطلبى، كانت ابنتى تكرة الخروج للتسوق معى والذى قامت بوصفة قائله ان التسوق معك ياامى عباره عن محنه وجه التناقص هنا انتى اطلق على ذلك طريقتى الخاصة فى الآنفاق منذ حوالى عام وانا امتلك كارت الائتمان الذهبى الخاص بى وكما انا كشرق اروبيه منبهره بهذا الكارت وخصوصاً اننى استطيع استعمال هذا الكارت فى اى بلد أجنبى تصوروا فى أى مكان فى الفنادق او فى المطاعم ليس الأمر يتعلق بأننى لم أرى كارتا دائما قبل ذلك حتى انة كان لدى كارت ائتمان قبل ذلك وهو كارت ائتمان امريكان اكسبرس لكنه كان صادراً من يوغسلافيا لذلك فقد كان من نوع امريكان اكسبريس اليوغسلافى لسبب بسيط الا وهو الدينار لا يمكن تحويله الى أى عملة أخرى متداولة على كل الاحوال فقد كان شيئاً مبهجاً للغاية أن يكون لديك كارت ائتمان حيث أتذكر أنه وصلنى الكارت فى مظروف فى منصف الثمانينات كنت فى غايه الفخر فقد شعرت كما لو ان العالم كله قد انفتح امامى لمجرد أننى رايت الخارج فى إعلانات الكارت الأمريكانى اكسبريس بالطبع لك يكن هناك عالك جديد ليينفتح لى، لكن على الأقل استطعت الاستمتاع عن طريق تغذيه تلك الرغبه الاستهلاكيه بداخلى فاذا كنت أسير فى هذا الشوراع ورأيت فستاناً جميلاً فى أحد نوافذ المحلات وقفت مكانى وذهبت الى ذلك المحل وشراء ذلك الفستان بدون أن يكون لدى المال لشرائه وأقوم بدفع المبلغ كاملاًبعد مرور شهر وقد كان يمثل قمه الإثارة بالنسبه لى فقد فهمت لماذا يقول الأمريكان بلاستيك إذ فانتستيك أى أن الكارت البلاستيك يحقق كل ما تريده.لقد قمت بإستعمال كارت الأمريكان إكسبريس اليوغسلافى بجنون وخصوصاً

قى بدايه أزمة التضخم وقد كان ذلك شيئاً رائعاً فقد كنت أستطيع أن أهزم التضخم بسهولة إلا أن ذلك ليس بشكل يذكر.إذا عرفنا أن التضخم وصل فى نهايه الثمانينات الى حوالى ٢٠٠٠ % لقد استعملت الكارت فى كل المجالات حتى فى شراء الغذاء من السوبر ماركت إلى أن قامت بتقديم نظام مختلف حيث أنه يجب أن تقوم بدفع فاتورتك كل إسبوعين والأشد سوءاً من ذلك أن تقوم بدفع ٣٠% غرامة فى حالة التأخير عن دفع فاتوره الحساب أما كارت إئتمانى الذهبى فقد أعطانى شعورا مختلفاً للغاية، حيث أنه أجمل من ناحيه الشكل. لم يعد هناك المال الظريف الذى يخبىء خلف الكارت بل أصبح نقوداً حقيقية عمله صعبة مما يستلزم العمل بكد واجتهاد من أجل الحصول عليها، المصاريف تخصم بشكل آلى من حسابى كما أنه لا يوجد تهديد لمحاولة ضرب النظام المصرفى كارت الائتمان لا يعطى الحريه لأصول وأجور كما اشاء وبدلاً من ذلك فانة يعمل كنوع من التأمين حيث يمكننى استخدامه كدليل عند التزامى بالدفع اذا واجهتنى بعض المتاعب المالية إذا كنت أريد أن أنفق المزيد من المال وليس بالعكس وأنا لا أجرؤ على استعماله فى بعض الامور التافهة لمجرد أنه ذهبى و لا حتى استطاع الكارت أن يساعدنى فى بناء جسر ناجح يغطى الفجوة التى تفصل بين حالتين من التطرف حين تصرف ببذخ وأنت لا تملك المال أو لا تصرف وأنت لا تملك مع التناقص مجددا ً اشعر بشيء آخر فى وضعى الجديد وهو أنه يجب أن تكون هناك التغيرات الاجتماعية والسياسية حقيقة بوضوح أقول إننى لم أكن فى وضع يسمح لى أن أكون على دراية بسلوكى المتناقض تجاه المال الى أن اتغير الوضع فقد أنهارت الشيوعية واصبحنا جميعا نعيش طبقا للنظام الاقتصادى الخاضع للراسمالية لقد ادركت فقط فى هذه اللحظة الى أى مدى أنا متاثرة بالنظام الشيوعى وبفقره وأخلاقه حيث نشات قفد بدأت أول الأمر بالادخار لبعض المال خلال الحقبة الشيوعية البائدة ومفاجاتى الخاصة أننى خصخصت أول مبلغ من المال أسعى لادخاره من اجل الأيام السوداء فى المستقبل أنه من الصعب توضيح هذا الامر بما فيه الكفاية حيث أنه قد اعترانى شعور داخلى واشتياق للاحساس بالأمان قبل أن يصبح هذا النوع من الامان مضمونا ومدعك كم الدولة أنا أعرف اننى كنت ساتلقى دعماً ولم اكن احتاج أن افكر فى ذلك وحيث كان هذاالمال غير كاف فعلى الأقل هناك بعض المال الذى أستطيع أن ألجأ اليه عند اللزوم لكن الدولة لك تعد مسئولة عن تلبية كل احتياجاتنا كما يجب أن نفكر فى المستقبل بطريقه مختلفة تماماً فالكثير من الديمقراطية لا تزال تدعى أنها دولة رفاهيه لكن عند التطبيق لا يستطيعون القيام بذلك

لسبب بسيط وواضح أنه لم يعد موجوداً هذا الكم من المال الذى يفى بكل الاحتياجات وهذا يعنى أنه على أن اكر نفسى بشكل ما فالتغير فى مصطلحات علم الاجتماع يجب أن يكون جذرياً فى الحقيقة أنه ربما الكرة الاولى التى كان لازماً على جيلى بأكمله أن يفكر فى المستقبل المهم ان مستقبلنا يعتمد تماماً علينا وعلى قدرتنا ومجهوداتنا الى اخره ان الامر مخيف بعض الشيء لكنه أيضا مثير للتحدى المشكلة هى أننا نرى جمعياً أن النظام الذى يدعم الفكرة لا يعمل فى واقع الامر أن النظام الاقتصادى الشيوعى يبدو أنه تكتل غريب من المنشات الخاصه وصرحيه منظمه ونساء مستشرى فى النظام ككل عندما ترى فى كل مكان من حولك فلا تستطيع أن تصرف أن المستقبل يعتمد على قدرتك على فعل هذا؟ على السرقه ؟

لذا كان على أن أتوقف عن الآنفاق على كل شيء أعتبره غير ضرورى او غاية فى الرفاهية والبضائع التى كنت اشتريها فيما مضى بنوع بسيط من البهجة أهو نوع من البهجه المفقودة؟ ربما لكن دعونا نتذكر أن تلك البهجة البسيطة لك تكن نتائج عمل حقيقى أو بنود حقيقية لكنه نوع اخر من الغش أو الخداع لقد كان الكل يطلقون عليه رمادى أى اقتصاد غير قانونى والذى به مساعد انفسنا للعمل من أجل المكسب السريع او استعمال ساعات العمل الرسميه فى عمل شيء آخر قد يجلب لنا دخلاً إضافياً الآن إذا كنت محظوظاً بما فيه الكفاية ولديك عمل حيث إن هناك الكثير لا يعملون فإن أجور لك تكون سهله المثال وبمجرد أن تحصل على المال فى يديك فلك تسرع بالضرورة لإنفاقه فبدلاًكم ذلك تحاول أن تستغله يجلب لك مزيداً من المال فعندما تكون فقيراً فأنت تنفق وعندما تبدء فى تجمع المال فسوف تبدا أنه يكثر لقد قرأنا جميعا لهذه الكتب لكن الآن هل لنا خبره مباشره فى هذا ولأن هذا الموضوع يعنينى فان هذه الرغبة أو هذا الحب للشراء أو الشعور بهدم الإيمان يمكن أن يصبح مشكله لكل جيلى، إن سقوط الشيوعية قد حدث ونحن فى منتصف العمر، أما الاجيال التى تلينا فهى تتصرف بشكل مغاير قد يهم ميله تجاه المشروعات

ويقومون بإفتتاح مشروعات صغيره واقتراض الاموال والاستمرار أنهم يكافحون لكنهم لا يخشون المستقبل فهم يحسنون من معيشتهم ويحاولون دائما عمل ذلك بشكل أفضل وذلك بسبب أنهم بدؤا عملهم فى ظل ظروف افضل بكثير وهذا هو كل ما يعرفونه فهم يعانون بسبب عدم وجود شبكة قوية من الأمان لكنهم لا يشعرون بالخسارة، كما أنهم لا ينزعجون كم يبلغ المبلغ الذى تريد أن تدخره عندما يسود الفساد ؟ أن تشعر بالثقه وأنا اخشى أن أعرف

الإجابه الآن على مثل هذا السؤال هو بلغ كبير جداً يصعب الوصول اليه إذا كنت تبلغ من العمر ٤٠ عاماً فانت لا تستطيع حتى مع أى زياده كبيره فى المرتب

obeikandl.com

... احباطى تجاه المانيا

عندما سالنى احد عن رأيى فى الألمان أتذكر كتب التاريخ فى المدرسة الابتدائيه والرسومات فى ذلك الوقت والتى كانت تصور الجنود الألمان وهم يحاربون رجال تيتو، الجنود الألمان كان لديهم الدبابات والطائرات والبنادق الآلية بينما جنودنا كانوا مسلحين فقط ببنادق بدائية هذا الرسم يمثل ما كان يجب أن نرسخه فى الذاكره عن حرب غير متكافئه تجاه عدو أكثر قوة بكثير.

عندما ذهبت الى المدرسه الابتدائية فى منتصف الخمسينات لك تكن الحرب العالميه الثانية قد ذهبت فى طى النسيان وكانت كتب القراءة فى المدرسة مليئة بالألمان والإيطاليين وأفراد المقاومه والجنود التشيك ربما مثل كتب القراءه فى أى بلد آخر والتى قد تكون ممتلئة بالملوك والأمراء والدوقات ولكن حتى وقبل ان أذهب الى المدرسة فقد سمعت عن الألمان من القصص التى كان الناس يرددونها من حوالى كما فى بعض الجمل أيضا مثل عندما قام الألمان بالهجوم علينا لقد حاربنا ضد الألمان عندما تمت إصابته عن طريق الألمان فى الصف الاول تعلمنا أن الألمان هم الذين قاموا بإحتلال بلدنا كما قاموا بإلقاء القنابل والمتفجرات على المدن وإحراق القرى وقتل المدنيين الأبرياء عبر يوغوسلافيا مثل هذة الدروس من أستاذنا كانت

مصحوبة فى اغلب الاحيان بصورة من صور المنازل المحترقه من كتاب القراء تلك الصور التى تحرك المشاعر والاحاسيس أن الحصص المخصصه للتاريخ فى المدرسه كانت فى منتهى الأهميه لجعلنا نتذكرهم وكان من الممكن أن يأخذنا المدرس لمشاهده أحد الأفلام التى تتحدث عن الحرب والمقاومة وتيتو فى السينما ونريتفا وسو تيسكا وكوكسارا الوصول الى درفار فى هذه الافلام نرى الجنود الألمان ذوى الشعر الأصفر والعيون الزرقاء البارده ويرتدون ذلك الزى الحديدى المصفح لأنهم كانوا يصرخون بغض النظر عما كانوا يريدون قوله بدوا كما لو أنهم غير قادرين على التحدث بطريقة طبيعية كنتيجة لذلك فإن لغتهم بدات وأنها مخيفة جدا أما أبطال المقاومة فى مثل تلك الافلام فكانوا يطلقون على الجنود الألمان فقط سقاب والتى تعنى إهأنه شديدة بل فى بعض الاحيان كانوا يطلقون عليهم فقط الخنازير الألمان وأنا أستطيع أن أفهم لماذا كانوا يفعلون هذا لقد شاهدنا هذا العدد القليل من الافلام مراراً وتكراراً خلال الاعوام التاليه فى المدرسه وفى كل مرة كنت ابكى عند مشاهدة هذه الأفلام كنت أبكى بسبب وحشية الجنود الألمان غير المحتملة وحتى اليوم لا أزال أتذكر أحد المشاهد فيلم كوزار ومشاعرى ما زالت ملتهبة حيث إن أحد جنود المقاومة يختفىء فى حفرة أسفل الطريق يجب أن يعبره الجنود الألمان كان الألمان يفتشون الأرض متراً متراً بحثاً عن معسكرات المقاومه وذلك عن طريق غرس محاربهم فى الأرض بينما كان بطل المقاومه يحمل غطاءاً خشبى بيد واحدة بينما اليد الأخرى تمسك بفم طفل صغير يمنعه من الصراخ حتى لا يكشفوا موقعهم ويضطرون لترك مكان الاختباء عندما أغلق عيناى أستطيع أن أتذكر مشهد الخنجر يخترق الغطاء الخشبى ويد بطل المقاومة بينما هو يعض على أسنانه محافظاً على صمته كنت أتخيل لو أن الخنجر يخترق كف يدى أنا حتى أن الفيلم لم يكن ملون بل ابيض واسود لكن اقوى انطباع اخذته على الألمان كان من قصيده ديزانكا مكسيمو فيتش والتى يقف موقفاً حقيقياً وهو موت فصل كامل من التلاميذ تم اعدامهم بواسطه الجنود الألمان فى كراجو يفيتش كنا نقوم بتلاوة هذه القصيده كل عام فى المدرسه فى العيد القومى فى شهر نوفمبر أعتقد أن جميع التلاميذ قد تخيلوا أنهم تم أخذهم لإصطحاب المدرس لخطه إعدامه لاحقاً ثم عمل فيلم عن هذه الخطه مما أعطى اطفال المدارس فرصه كبيرة لمعرفة الفصل التى تم اغتياله

تحت هذا التأثير كيف لى أن أستطيع بتغير الرعب والكراهيه لهؤلاء الألمان المرعبين قد يبدو هذا اليوم كنوع من الخوف المجرد

والكراهيه المجرده لكن بالنسبه إلى طفل ذى الثمانيه أو التسعه أعوام فى فتره الخمسينات كان الأمر يبدو حقيقياً إلى أقصى درجه عندما كنا فى الصف الخامس حيث كان لازماً علينا اختيار لغه اجنبية لتعلمها وقلة قليلة فقط منا لديهم الجراءه لإختيار اللغه الألمانية كل هؤلاء الذين اختاروا اللغه الآنجليزيه كانوا ينظرون بإزدراء تجاة هؤلاء الأطفال المساكين الذين أجبروا على تعلم اللغة الألمانية تحت ضغط آبائهم، أما المجموعة الوحيدة التى كان عددها أقل من مجموعه اللغة الألمانية هم الذين يتعلمون الروسيه، كان هذا فى عام ١٩٥٩ حيث أن الروس أيضا ذو شعبية متدنية لأسباب مختلفة هذا العداء السافر فقط تجاه الجيش الألمانى بل كان أيضا تجاه الألمان نفسهم بشكل عام استمر حتى منصف الستينات عندما ذهب العديد من اليوغسلاف إلى المانيا كعمال موسمين وسرعان ما اصبح عدد العمال هناك بين ١,٥مليون الى ٢ مليون عامل أتصور أن كتب القراءة قد تم تغيرها فى هذا الوقت كما أتصور أن الأفلام التى يتم عرضها قد تم استبدالها أيضاً فأطفال هذا الجيل بدؤا يشاهدون أفلام والت ديزنى وقد كان هذا جيداً فكيف يمكن أن يصدق هؤلاء الأطفال أن الألمان من الممكن أن يكونوا قد ارتكبوا كل هذه الجرائم المريعة فى حين أن آبائهم يرسلون لهم النقود من عملهم هناك كيف كانوا سيشعرون أن آبائهم يعملون فى بلد اعدائهم تحت درجه عاليه من الخوف على حياتهم لذلك كانت فرنسا بالنسبه لأطفال العمال الموسمين هى جنة الله على الأرض وقد أصبحت كذلك أيضاً حتى بالنسبه لنا أيضاً لأن المال القادم من ألمانيا ذهب إلى اكثر المناطق فقراً لدينا مثل البوسنه ودالماتيا بعد مده زمنية بسيطه للغاية أصبح هناك العديد من القبلات الجميله المبينه هنا وهناك لقد أصبح اليوغسلاف أفضل بكثير وجزء كبير من هذا يعود إلى العمال فى ألمانيا حيث أنه يجلبهم المارك الألمانى الى البلد مما ادى الى حل مشكله البطالة فى البلد وجزء آخر يعود إلى تيتو الذى تعود على الاقتراض من كل صوب وحدب فجاءه بعد مرور حوالى عشرين عاماً على انتهاء الحرب اصبح هؤلاء الذين لديهم أقارب يعملون فى ألمانيا فى عداد المحظوظين حيث أن حقيقه هؤلاء العمال كانوا يعملون فى ظل ظروف سيئه للغاية كانت مخبأة

كانت تلك الأيام والتى شهدت زياره أول سائحين لسواحلنا إلا أننا لم نستطيع أن نقدم لهم سوى جمال الطبيعه ولكم يبدو أن هذا كان كافياً بالنسبه لهم فى منتصف السبعينات كانوه يزرونا بالملايين وحتى قرى الصعيد الأخيرة كانوا هناك و مكتباً لتغيير العملة ومطعم إلى كل ما تحتاجه صناعة السياحه ولا داعى لقول أن معظم

هؤلاء السائحين كانوا ألماناً ومن الرغم من الرخاء الذين أحضروه معهم فلا زلنا نطلق عليهم لقب العجائز وهو اسم يحمل إهانة أول مرة كنت أرى فيها الألمان بشكل سريع كان ناحية البحر على أحد الشواطيء أجسادهم جميعاً تميل إلى السمنه وكانوا جلدهم يميل إلى اللون الأبيض يتحول بعد قضاء وقت قصير تحت أشعه الشمس إلى لون وردى قبيح، وكانوا لديهم عادات غريبه لقد كانوا يذهبون إلى السباحه فى الماء وهم يرتدون صنادل بلاستيكية فى أرجلهم كما يدخلون إلى البحر فوق مراتب منتفخه مثل البالون والتى لم يسبق لى رؤيتها كما يغطون أجسادهم بكل الآنواع من الزيوت والكريم والتى تحمل اسمها كلها أسماء مثيرة ثم بعد ذلك يحتسون الكثير من الجعه فى المطاعم فى المساء عموماً فهم يبدون جميعهم غرباء أكثر من خطرين بالنسبة لى لكم فيما بعد فإن الكراهيه الطقوله للالمان كان قد تم شبابها أن جيلى قد كبر وترعرع وعنيه منصبه على العزب فبالنسبه لنا كان أكثر شيء ذو قيمه عندنا هو المستقبل المهنى والمال ليست هذه الأيدولوجية أو تلك فبالنسبة لنا كانوا الألمان يمثلون أوروبا والعالم والثروة والمجتمع الإستهلاكى والحريه والعمل والمتعة وكل الأشياء التى كان من الصعب علينا الوصول إليها فمن وقت إلى آخر عندما أرى الألمان كنت أتذكر طفولتى وكان ما يشغلنى هو أنه على الرغم من أن الألمان خرجوا من الحرب مهزومين الإ أنه كان لديهم أكثر فى كل شيء منا نحن المنتصرين وقد كان هذا مربكاً أن الشيوعيه لم تستطيع أن تتدم ذلك وقد حاولت إن اقنع نفسى أنه كان كم الممكن ان يكون الطرفان متساويان اعتقد أنه كان يلزمنى مثل هذه الاجابه لارضاء كبريائى لقد عانيت بعض الشيء لأن يوغسلافيا فى بعض هذا الوقت كانت رخيصه بالنسبه لهم الفنادق الفاخره، العشاء فى المطاعم الجيده، المشروبات كانوا يستطعون أن يدفعوا مقابل كل ذلك بمنتهى السهوله بينما نحن لم نكن نستطيع ذلك لكن الآن هذه الفترة من الإعجاب الممزوج بالحسد قد ولت إلى غير رجعه فإذا قمنا بزياره العديد من الدول فى أنحاء العالم فإن سائحاً ألمانياً ذو كرش يركب المرسيدس ولديه بعض من العملة الصعبة بحوزته لم يكن مشهداً يثير انتباهك بعد ذلك فى الثمينات أصبحت يوغسلافيا أرخص مقصد سياحى فى كل أوروبا فالألمان الذين يزرون سواحلنا الآن أصبحوا أناساً عاديين من العمال الذين يعملون فى السيارات ومصففى الشعر والسكرتيرات أخيراً نستطيع أن نظهر لهم ازدراؤنا منهم عندما نجلس فى الظل نحتسى القهوه وننفق المال الذى كسبناه من العمل عندهم أن الملايين التى ربحناها فى المارك الألمانى خلال السياحه قد ادت إلى رفع المستوى

المعيشى فى يوغسلافيا بالإضافه إلى ما هو أكثر أهمية الآ وهو السلام الإجتماعى ان إعداؤنا وقت الحرب أصبحوا أفضل مصادر دخلنا لكم هناك مفضله أخرى غير مشجعة مع الألمان بدأت تطفوا إلى السطح آثناء الحرب كانوا الكروات على علاقه خاصه بألمانيا النازيه وعندما أصبحت كرواتيا دوله مستقله بدت لو أنها أصبحت دوله الدميه الألمانيه بينما كانت يوغسلافيا تستفيد من السياحه ثم نسيان هذه الحاله من الضيق أو عدم التوافق لكن بعد انقسام البلد إلى عدة دويلات فان الحكومه الجديده فى كرواتيا المستقله حديثاً سارعت على الفور لإحياء العلاقه وبناء الروابط مع الصديق القديم حيث كانت المانيا هي أول بلد يعترف بكرواتيا وأصبح الكروات والألمان أصدقاءً حميمين مرة أخرى فى الواقع أن الكروات يعترفون بالفضل لوزير الخارجية الألمانى السابق هانز ديتريش جينشر حتى أنهم أنهم أقاموا نصباً إحياء لشرفه فى جزيرة براك أن العلاقة الآن بين البلدين أصبحت حميما جداً حتى أن الكروات لا يطقيون صبراً حتى يتم احتلالهم بواسطه الألمان أو على الاقل فأنها سوف تكون أقصر طريق بالنسبه لهم الدخول الاتحاد الأوروبى، إن احباطى من ألمانيا ومن الألمان منذ الحرب العالميه الثانيه الى وقتنا الحالى قد يكون قد تغير بعض الشيء ولكنه لم يختف من خلال كتب المطالعة أثناء الطفوله ومن خلال الأفلام ومن الحياة نفسها استخلصت أنه بغض النظر عما إذا كانوا أعدائك أو أصدقاءك فان الألمان لهم حضور كبير وايضاً أقوياء يجب أن اعترف ايضاً أنه برؤيتى لمواطنى كرواتيا كنموذج وكحدث لهم فى ماضيهم فإنى معجبه بهم الآن فقط حين أرى أن ابناء بلدى لم يكن لديهم القدره لفعل المثل كما أننى أستطيع أن تفهم كم كان مطلوباً من أمة أن تكون شديدة البأس لا تستطيع أن تمحو ماضيها الفاشى.

obeikandl.com

... أهميه أن ترتدى زياً :

فى اليوم الموافق السبت ٢٢ يناير عام ١٩٩٥ قام مجرم الحرب زيليكو رزناتوفيتش أركان بإحياء حفل زفاف بنفقات باهظه فى بلجراد كان الاحتفال فى كنيسه ارثوذكسية، وكانت العروس ترتدى فستاناً طويلاً من الدانتيل الأبيض والطرحة بين ارتدى أركان زياً عسكرياً والذى لم يكن كما يجب أن يكون الزى العسكرى حيث أنه ليس زى جندي حقيقي ولا ظابط مدني فى الجيش الصربى فقد كان قائداً لمجموعه شبه عسكريه تدعى (النمور) لكنه فى هذا اليوم لم يرتد ملابس الصاعقه ولا البريه الصوفي الأسود كما كان يظهر فى ملايين الصور التى أخذت له أثناء الحرب بين كرواتيا والبوسنه بل أنه قرر فى هذه المناسبه المهيبه أن يرتدى شيئاً اكثر تعقيداً ألا وهو زى الضابط اليوغسلافى الملكى القديم بالطبع لم يكن لديه أى حق فى إرتداء هذا الزى حتى أنه لم يولد فى هذا المكان الذى كان يستعمل فيه هذا الجنود الزى لذا فأنه استقر على أن يرتدى هذا الزى مع إضافة بعض التعديلات كنوع من الأزياء التاريخيه هكذا كان يتحدث كما قد يكون قد أختار زى اللورد فيلسون أو نابليون وكان أركان يبدو متصنعاً فى هذا الزى بالإضافه إلى منظره كان مثيراً للشفقه وبعيداً عن خيانته المريعه للذوق فقد حول الزواج بأكمله إلى سلسله من المهازل لم يأبه لما حدث بالمره فكل كان يهمه هو الغالبية من الناس، وكان يعرف أن الغالبيه عندما يرون هذا سوف يقومون بالتفسير كل بطريقته اذاً لماذا اراد الاركان ان يرتدى زياً تاريخياً ؟ فقد كان لا يعد إلا أن يكون زياً يتك ارتداؤه فى حفل زفاف لا أكثر ولا أقل فإذا كان فعلاً ضابطاً فى الجيش الملكى كان من الممكن تفسير ذلك على أنه نوع من التقاليد لكن عندما تكون الأمور كما يحدث الآن وخصوصاً أن حرب البوسنه لا تزال مستمره فان ما نستطيع أن نفهمه هو أن ما فعله أركان غرضه الأساسى هو الحصول على بعض الإحترام والكرامة فالزى قد يعطى فكرة أنه ظابط لكنه فى واقع الأمر مجرم متهم باغتيال عدد كبير من الناس ولذا فالاركان مطلوب القبض عليه بشكل شرعى وهذا الزى التقليدى ما كان سوى

نسخة غير اصلية تم عملها للتغطية على كل ما فعله هو وكتائبه شبه العسكرية أثناء الحرب لقد أراد بوضوح أن يزعم أن كل الجرائم التى ارتكبها قد تمت خلال دفاعه عن الوطنية وطنية الأمة الصربية كان يريد أن يعرفه الناس كبطل لهم لكن حتى يفعلوه هذا عليهم أول الامر ان يعترفوا به أولاً كمواطن صربى أما هو فى زيه الحربى الذى ارتداه فأنه يبدو فقط كأى جندى أو مجرد عضو فى أى مجموعة شبة عسكرية فى أى بلد من البلاد إذا كان قد ارتدى زياً مدنياً فكان سيبدو مثله مثل اى مدنى فلم يكن لديه اى حق فى ارتداء الزى الخاص بضباط الجيش الصربى المعاصر لذا فما كان عليه ان يرتدى زياً يستطيع من خلاله الناس أن يربطوا ذلك بتاريخهم والذى عاد يغلفه قدر كبير من الاحترام والتبجيل الموجه لمن يرتدون الازياء والذين كعاده يكونوا ضباطاً فى الجيش فى المدرسه القديمة الذين كانوا ملزمين بإرتداء الزى فى المناسبات لأنه كما هو معروف فى البلقان أن هذا سوف يجلب لهم المزيد من الاحترام والتقدير هذا الاحترام والتقدير بعيدا عن الخوف وهذا ما أراد أركان الحصول عليه أيضاً وقد كان على صواب فى اختياره زياً أيا كان الذى لقد يحصل على ما يبتغيه أن اركان لديه نوع من الخبرة فعندما تقدم للترشيح لزعامة الحزب الصربى فى الآنتخابات عام ١٩٩٢ كان يظهر فى البوستر الذى كان يتم توزيعه على الناس مرتدياً حله مدنية أنيقة ثم أراد أن ثم أراد أن يوضح خيبة المحتملين أنه رجل مدنى محب للسلام كما أنه مواطن غاية فى الكرم ويحفظ كلمته تماماً كرجال الأعمال وهذا بالظبط ما شكل الصيغه التى بنى عليه حملته الآنتخابيه هذا النموذج لم يلاقى الكثير من النجاح أو قد ينال على غير المتوقع لنسبة قليلة جداً من الأصوات لم يكن هذا بمثابه المفاجاه حيث أن سلطة أركان الرئيسيه تستمد قوتها من وجهه النظر المغايره التى تستند فى الواقع إلى مصدر قوته كقائد لكتيبته الغير عسكريه والتى مهمته الأولى هى عملية التطهير العرقى لديه المال وكل الحق وذلك الأمر بالنسبه لكثير من الناس على شاكلته مالا يملكه الاخرون هو وذلك الزى العسكرى الذى يعطيهم ترخيصاً للقتل بأنه صربى لقد تعلم أركان الدرس جيداً بوضوح حدث فى الآنتخابات مدركاً أنه إذا أراد أن يحترم من الصرب فيجب أن يكون ذلك من خلال الزى والذى يمثل خدمته للأمة فبدون جنوده وأسلحته فإن أركان لن يكون شخصاً ذو أهميه تذكر.

لقد كان عادلاً أنه منع من إرتداء زى الضابط الصربى مما يبرز أهمية الزى بطريقة أو بأخرى. وبما أن أركان لم يكن ضابطاً حقيقياً فلم يمن أمامه غير أن يرتجل مما أدى إلى أن يقلل من شأن نفسه

مرتدياً نسخة من زى تاريخى والتى كانت تبدو كزى لرجل يعانى من عقدة نفسية. إن زى الضابط يجب أن يتبعه سلوك معين متعارف عليه حيث يجب أن يؤكد هذا الزى أنك شخص ملتزم تماماً بالقواعد ويلبى الأوامر الصادرة إليه كما يحترم قواعد الحياة العسكرية،كما أن هذا الزى-من وجهه نظرى-يساعد على كبح جماح النفس الآنسانية فالإلتزام هو ما يطغي على أى شيء أخر .إنظر ما حدث للجنود الصرب ومدى صعوبة هذا عليهم رغم أن الكل عرف الموضوع وكيف تصرف رجل مثل جنرال راتكو ماليتش.

أما فى حالة أركان فلم يحترم ما يفرضه عليه إرتداء الزى.وبإعتباره شخصا سيء السمعة لحربه ضد المدنيين والتى لن يفخر بها أى ضابط حقيقى،ومع ذلك فقد أصر على الإستخفاف ومواصلة ما يدعو إليه والتى أرى –للمفارقة العجيبة-أن هذا هو نوع من التقليد بدليل أنه لم يكن هناك ما يجبره على الإلتزام بالحد الأدنى من الأخلاق ،فلجوء أركان للزى وتمسحه فيه هو سلوك بلقانى صرف:وفوق هذا كله فإن هذا يمثل التمادى والمبالغة فى إستعمال السلطة.

لقد إنبهرت بشدة عندما كنت طفلة للتغيرات التى صاحبت إرتداء والدى زى الكولونيل حيث كان يبدو كشخص أخر يستطيع أن يرفع من نبرة صوته كما أن وضعه أصبح صعباً وأكثر حساسية. أنه لم يعد أبى الذى عرفته بل كان يبدو كشخص غريب ومتصنع. فقد كان يشعر أنه بداخله أنه أصبح شخصاً أكثر أهمية وهكذا كان الحال بالنسبة للناس الذين يعيشون من حوله:لقد أصبح مصدر قوة لمجرد أنه إرتدى ذلك الزى.لقد أعطاه هذا نوعاً مختلفاً من السلطة،سلطة مؤسسة. فالمؤسسةوالجيش كانوا فوق الأشخاص،كانوا فوق الجميع. فالجيش لم يكن هناك ليحمى الناس ويخدمهم-ماذا كان من المفترض أن تفعل إذا كنت لا تعيش تحت وطأة الشيوعية أو الديكتاتورية العسكرية؟إن وجود هذا هو الذى جعل حكم الحزب الشيوعى ممكناً. فالعسكرية كانت وسيلتهم لتأمين انفسهم،وكان الكل مدركاً لذلك. لكن حتى الكمسارى أو البوسطجى أو حتى البواب كانوا على دراية بالقوة التى يعطيها لهم زيهم والتى كانوا يستغلونها أحسن إستغلال وقت أن تتاح لهم الفرصة.

فى الأجزاء الفقيرة من يوغوسلافيا السابقة،كانت الأسرة إذا كان لديها أطفال فأنها ترسل أحدهم إلى البوليس أو الجيش، أما الثانى فأنها ترسله إلى الكنيسة ليصبح راهباً. هكذا تعفى العائلة من تكاليف رعايتهم وتعليمهم والتى تتكفل بها هذه المؤسسات. كان هذا بالنسبة لكثير من الشباب بمثابة السبيل الوحيد للتخلص من

حياة الفلاح البائسة والفرصة لرؤية الحياة خلف التلال التى تحيط بمنازلهم. وعندما يصبح الواحد منهم جندياً أو رجل شرطة فأنه يحصل على الزى وزوج من الأحذية الجيدة والتى عادة ما تكون هى المرة الأولى بالنسبة لهم التي يحصلون فيها على حلة أو زوج من الأحذية مما يجعلهم ذوى مكانة أعلى من أقرانهم الذين لم تتح لهم هذه الفرصة لينعموا برغد إرتداء الزى(الذى يعد كرمز للإتصال المباشر بالدولة مما يعنى ضمناً الإتصال المباشر بالسلطة) وعلى وجه الخصوص أيضاً ذلك الحذاء المتين. فمن شخص عديم القيمة ولا يذكر فجأة أصبح شخصا ذا مكانة.

أما فى وقت الحروب فإن زى الجنود يصبح ذا قيمة و ذا دلالة كبيرة. فى عام ١٩٩٥ وقت زواج أركان قامت صحيفة كرواتية بتشر قصة مختلفة تماماً عن الزى وعن أحد الجنود من الجيش الكرواتى والذى كان طرفاً فى المشكلة. وهى أنه فى عشية رأس السنة قام الجندى الذى يدعى إيف- الذى كان فى طريقه إلى وحدته التى تبعد عدة كيلومترات - بمحاولة استيقاف سيارة لتوصيله بنظام الأوتو-ستوب وظل واقفاً لمدة ساعتين ،لكن كل السيارات كانت تجرى مبتعدة عنه وتتجنبه كما لو أنه وباءاً، حسب ما جاء على لسانه واصفاً الحدث.

ثم بعد ذلك مرت سيارة وكانت فوانيس الضوء كلها مضاءة فى هذه السيارة. مما جعل الجندى يشعر كما لو أن السيارة تريد أن تدوسه وتمر من فوقه، تماماً كما ذكر شارحاً لأحد الصحفيين لاحقاً، مما جعله يلقى بنفسه قفزاً على الرصيف، ثم التقط غاضباً حجراً وألقاه على السيارة وهى تعبر الطريق مكسراً نافذتها. مما جعل السيارة تعود وينزل منها أربعة رجال يقومون بضرب الجندى ضرباً مبرحاً. وقال أحدهم إنه ذهب إلى ألمانيا للعمل من أجل هذه السيارة. من كان سيذهب لدفع حساب النافذة المكسورة على نفقته؟ من تظن نفسك؟ إستمر الرجل قائلاً : هل تعتقد أنك تستطيع أن تفعل ما تريد لأنك جندى؟ لاحقاً ،قال الجندى شاكياً:"أه لو كان معى قنبلة" لحسن الحظ لم يكن معه.

قامت الجريدة التى نشرت الموضوع بعرضه بطريقة توحى بأن الجندى قد تعرض لتجربة بالغة الإهانة، كمؤشر على عدم الإحترام لما يحمله الزى من قيمة-ولكرواتيا البلد المستقل حديثاً،والحرب ضد الصرب المعتدين ،والوطنية....إلخ. أما حقيقة أن الجندى التقط حجراً وقذف السيارة به مما أدى إلى تكسير زجاج السيارة فقد تم ذكر ذلك على مضض،كما لو أن ذلك ليس بالشىء المهم ،مجرد فعل صغير لا يستدعى أن تكون ردة فعلهم بهذه الوحشية. كان الجندى يعتقد

فى قرارة نفسه أن له الحق فى أن يتصرف بهذه الطريقة مع مدنى و الذى بدوره لم يقتصر فقط على تجاهل الجندى،وأيضاً النظر إليه بمنتهى الإزدراء ،بل أنه حاول إيذاءه عامداً متعمداً.رأى الجندى أنه قد أهين إهانة بالغة من وجهه نظره مما يعطيه الحق فى تنفيذ العدل تماماً كما فعل لقد شعر أن الإهانة الشديدة ليست موجهه فقط لشخصه بل للزى الذى يرتديه وكل ما يمثله من قيم.

وعندما وصل رجال الشرطة فى نهاية الأمر، صرخ فيهم صاحب السيارة متسائلاً: كيف يمكن السماح لمجرد جندى بالإقدام على مثل هذا السلوك؟ فاستجاب رجال الشرطة بدورهم بما يمليه عليهم الزى الذى يرتدونه بأن أوسعوا الجندى ضرباً.

كل شخص له صله بالموضو ع ،قام بتطبيق القانون كما يراه بيديه ،فالمدنيون كانوا يدافعون عن ملكيتهم الخاصة ، أما عن الجندى فقد إعتقد أن حبه لبلده و إحترامه لقيمة الزى الذى يرتديه يمثلون أهميه أكثر بكثير من الملكية الخاصة، فإذا قام جندى كرواتى فى طريقه للدفاع عن وطنه بتكسير زجاج سيارتك أو أى شيء آخر فأنه من المفترض أنك ستتقبل الأمر.حيث ان زيه الرسمى كان هناك لردع أى رد فعل عدوانى. وعندما ظهر رجال البوليس كانوا يريدون إظهار القوة التى يستمدونها من زيهم الخاص من أجل تطبيق القانون والنظام.

إن هذا الحدث الصغير يظهر بوضوح صدام القيم فى الدول الشيوعية السابقة:من ناحية هناك الزى ومؤسساته التقليدية والتى فى الواقع تحكم أكثر من كونها تخدم، وفى الناحية الأخرى نجد حماية الملكية الخاصة. ما الذى جعل الجندى يعتقد أنه كان من حقه أن يقذف حجراً، أو أن يرد إلى خاطره فكرة إلقاء قنبلة؟ إن هذا لا يعود ببساطة هكذا لشخصية الجندى،حتى وإن كان لذلك بعض التأثير،لكنه طبعاً الزى، بعد ذلك قام الجندى مبرراً سلوكه بتفسير الحادث على أنه إهانة للجيش الكرواتى بأكمله. حتى أنه إدعى أن ما فعله كان لحماية الأربعة أشخاص فى السيارة من رد الفعل والغضب الذى سيصدر من أبيه ومن رفاقه،حيث قال أن أبى سيجن غضباً و سوف يقوم بقتل صاحب السيارة،كما أن رفاقى فى الوحدة سيفعلون المثل.إن هؤلاء الأشخاص يجب أن يسجدوا لله شكراً لأننى جندى كرواتى يفكر فى العواقب. بالطبع لم ير الجندى أن هناك تناقضاً فى إستخلاص أنه بدوره إن لم يكن جندياً مسئولاً وقلبه ملىء بالخير فإن هؤلاء المدنيين البغضاء قد يكونوا قد لقوا حتفهم منذ مدة طويلة.

فالنافذة المكسورة لم تكن سوى نافذة مكسورة،والوطنية فى هذه الحالة تقتضى أن يحترم المدنيون زيه الذى يرتديه والذى يجب أن

تعلو قيمته على قيمة الممتلكات الخاصة. وقد أصر الجندى طوال التحقيق على قول" أنا لست مذنباً ".

هذا النوع من المنطق قد نشأ نتيجة تقليد خاص فى البلقان وهو إعطاء دلالة وأهمية كبيرة للزى.

إن ما نأمله هو أن يكون هذا الحادث منفصلاً،لا أن يصبح دليلاً يرجع إليه للسلوك العام لمن يرتدى الزى فى كرواتيا الجديدة. حتي وقتنا الحاضر لا يزال الجنود الكروات يقتحمون الأماكن الخاصة بالمدنيين بشكل منتظم ويقومون بركل السكان إذا كانوا يحملون الجنسية "الخطأ".

إن هذا سلوك إجرامى واضح و صريح، لكن بلدنا التى تزعم أنها تحكم بالقانون،ليس لديها الكثير لقوله عن ذلك "الحق" الذى يمارس عن طريق الرجال الذين يمثلونه. حتى الناس أنفسهم –كالعادة- يخافون من الزى.

إن الزى هو الذى يفوز فى الوقت الحالى بالسيادة والتفوق على الملكية الخاصة.إن شرعنة عدوانيتهم ووحشيتهم وجريمتهم لم تعد تحت مظلةالشيوعية،بل أصبحت الآن من أجل " القومية " والذى سيستمر كذلك لبعض الوقت.

وهذا يعود بنا مرة أخرى إلى زواج أركان!.

obeikandl.com

... جريمة مع سبق الإصرار والترصد

أنها حكاية عن الغضب،عن الخوف، لكن أغلب الأحداث تدور حول الشعور بالعجز. أنها تدور عن الإعدام
فى مكان عام. بتاريخ السبت ٢٥ فبراير فى ميدان **ستروسماير** فى **زغرب** كان يتم إعدام صف من الضحايا الأبرياء ببطء وبتأن. كانوا يقفون فى صمت منتظرين دورهم. فى أول الأمر كان قليل ممن سينفذون حكم الإعدام يرتدون الزى الأزرق ويحيطون بأحد الضحايا،وكل منهم يمسك بيديه منشاراً كهربائياً. ثم تبدأ بعد ذلك عملية القتل،وقد أطلق عليها عملية لأن الضحايا كانوا كبار منهم على الأقل نصف ساعة.

وكان الصوت الذى يصدر هو أسوأ ما فى الأمر. لم يكن هناك أى رياح، وأول ما تسمعه فى هذا الصمت المروع هو الضوضاء العالية التى يحدثها المنشار أثناء تقطيع الخشب بقوة الدفع العالية ثم بعد ذلك صوت الأغصان المتجلدة وهى تنكسر أثناء سقوط الشجرة. ثم فى نهاية الأمر عندما ترتطم بالأرض فأنها تحدث جلجلة أشبه ما يكون بصوت تنهد صاخب بدرجة شديدة يؤدى إلى إهتزاز كل ما يحيط به كما أن الناس ترتجف أيضاً.

إن ضحايا هذا الإعدام الوحشى هى أشجار القيقب فى قلب **زغرب.** فقد تم الهجوم عليها بواسطة الناس وبطبيعة الأمر لم تتمكن من الدفاع عن نفسها،بل ظلت واقفة هناك تشاهد ما حولها فى صمت.كان يوماً من أيام الشتاء المتقلبة وجاء جمع من الناس ليتفرجوا ،وكانوا يقفزون إلى أعلى وأسفل واضعين أيديهم فى جيوبهم للحفاظ على الدفء.من بينهم كانت هناك إمرأة قامت بتغطية أعين طفلها حتى لا يشاهد الجريمة بأعينه،والبعض هز كتفيه ثم مضى فى حال سبيله. لم يبد أحد سعيداً فى ذلك اليوم حتى العمال الذين كان عليهم أداء واجبهم الوظيفى غير الباعث على السرور.

هذا هو ما حدث فى أحد أيام الشتاء،و بصيغة أخرى ما كان يجب ألا يحدث:مجموعة من المواطنين تقف و تشاهد و لا تفعل شيئاً. ربما كان عدد الناس الذين تجمعوا فى الميدان كافياً لتكوين مجموعة صغيرة للإحتجاج، لكن لم يجرؤ شخص على قول أى شىء،أو فعل أى شىء يبدو كنوع من الإحتجاج - مثل تعطيل العمال أو إحتضان الأشجار أو القيام بالخطابة أو الغناء - أى شىء.

لقد وقفوا بشكل سلبى وبدون حراك تقريباً مثل الأشجار أنفسها،أو من سيصبحون ضحايا.لماذا لم يفعلوا شيئاً؟

هناك ثلاثة ميادين بها حدائق عامة فى وسط زغرب،حيث يغطون عدة مئات من الأمتار شمالاً من ميدان **يان جيلاتشيك** إلى محطة القطار النمسومجرية فى الجنوب. الثلاثة يبدون معاً من أعلى

كواحة خضراء والتي تشبه إلى حد كبير سنترال بارك فى نيو يورك. يطلق عليهم الثلاثة معاً "**لينونتشى هورسشو**" وهو إسم من قام بتخطيط هذه الميادين القرن الماضي والذين يعدون من الأشياء المميزة للمدينة بشكل أساسي. أول أشجار كانت ستقتلع هى تلك الموجودة فى ميدان **توميسلاف** وهو قريب من المحطة الرئيسية للقطار.وفى أحد الأيام إستيقظ الميدان عارياً،كما لو أنه تم خلع الميدان من حلته الخضراء.بعد ذلك تم زرع أشجار صغيرة محل الأشجار القديمة.

لم يكن هناك أى نقاش علنى عن ذلك الأمر إطلاقاً،ليس لأن الناس لم يروا ذلك - حيث أنه من الصعب تجاهل مثل هذه الأمور- بل أن الأمر كان يبدو مثل " تم إنجاز المهمة " كما لو أن مصير تلك الأشجار وسط المدينة لم يكن مشكلة ذات أهمية مثل اللاجئين أو الأقتصاد أو الآنتخابات المحلية أو ربما كانت هناك أشياءً أخرى منعت الناس من إتخاذ موقف ،ثم تلا ذلك إعدامٌ أخر فى ميدان **ستروسماير.** لم يتبق بعد الآن سوى ميدان واحد هو **تسرينيفيتش** فى شمال المدينة وهو قيد التنفيذ ، بعد ذلك سيبدو وسط مدينة **زغرب** مختلفا تماماً.

التوضيح الرسمي دائماً واحد تماماً كما ذكر عمدة المدينة بعد يومين من إزالة الأشجار فى ميدان **ستروسماير** :إن الأشجار عتيقة ومريضة مما يجعلها أيلة للسقوط والذى يشكل خطراً قد يسبب إيذاء أحد المارة. أنها مدينة مزدحمة وبالطبع لا يمكن السماح بحدوث هذا. لقد وجب البت فى هذا الأمر فوراً وإلا فقد كان من الممكن أن يؤدى ذلك إلى العديد من الحوادث.

لقد كان تفسيره يبدو معقولاً، إلا أنه صدر بعد ارتكاب الجريمة. أما العنصر الحقيقى فى تفسير الأمر فلم يتم ذكره عن طريق الصحافة أو المنظمات المدنية فالمناقشات القليلة التى ظهرت فى الصحف كانت تتحدث عن أرقام وإحصائيات أما الأشجار الصغيرة النى تم زرعها فهى غير مسموح لها بالنمو بشكل غير منتظم بل كان مقدراً لها أن تكون مقصوصة أو مقلمة كالنموذج الفرنسي. هل كان الأفضل أشجاراًغير متساوية القمم بشكل عفوى أم مرتبة ومنظمة كالنموذج الفرنسي؟ ليس من الضرورى أن نشير إلى أن الجدل حول أيهما الأفضل قد تم حسمه من قبل الخبراء والمختصين.

لقد أصبح واضحاً أن تجميل مظهر المدينة قد تم إتخاذ قرار بشأنه منذ مدة طويلة تعود إلى فترة الثمانينات عندما لم يكن هناك ما يكفى من أموال لعمل ذلك. أما الآن فالمال موجود والخطة تم

الإتفاق عليها والبدء فى تنفيذها بمفهوم إعطاء وجه جديد للمدينة. ويتوافق هذا أيضاً مع المدينة الإدارية الجديدة
والحكومة الجديدة لجمهورية كرواتيا والتى أرادت أن تترك زغرب،المكان الواضح فيه بصمتها.
إن معهد المدينة الذى يتعين عليه شغل المساحات الفضاء قد قام بالتوقيع لتولى أمر التخلص من هذه الأشجار مما يعنى أن تفسير مرض الأشجار لم يكن سوى مبرر لإغتيال هذه الأشجار، وأن السبب الحقيقى وراء ذلك هو القيام بالتجربة الجديدة لإستزراع الميدان. حيث أنه لو كانت كل الأشجار مريضة بسبب التلوث فأنه كان يمكن أنقاذها بتكنولوجيا اليوم.فسواء كانت تلك الأشجار مريضة أم لا فأنه كان يمكن إحلالها بالتدريج ولكن هذا يفسد أناقة الفكرة الجديدة والتى تبغى إضفاء وجه جديد-نيولوك-على الميدان، فقد كانت نظرة سريعة تكفى لمعرفة أن كل الأشجار ليست مريضة.
لا زلنا بعيدين عن أهم أوجه هذه الحالة من الأغتيال المعد له سابقاً،والذى يقع على أداء العملية فى سرية وفى صمت.والمذهل أن هذا الموضوع قد عرف بعد ذلك فى نطاق واسع حيث أن الخطابات الخاصة بالموضوع وهى فى طريقها للجهه المختصة عرفت طريق الصحافة، أما المذهل فى الموضوع هو أن كلتا الصحيفتين لم يكن مسموحاً لهما بالإقتراب من مثل هذه الأوراق فيما سبق.
إستمر طرح هذا الموضوع فى إحدى الجرائد الرئيسية التابعة للحكومة ،تماماً كما كان يحدث فى العصر الشيوعى للتركيز على الموضوعات التى تريد فقط التركيز عليها وفى نفس الوقت إلغاء ما لا يريد نشره وهناك دائماً صفحتان مخصصتان فى الجريدة للشئون الحكومية والتى كانت بدورها عرضة للسيطرة. هكذا تم نشر أخبار الأشجار،،وقد أوضحت هذه الخطابات بشكل كامل كيف تعمل الإدارة المحلية، فلديهم خطة من أجل مظهر المدينة وقد إستأجروا لذلك فريقاً من الخبراء.لكنهم لما يقوموا بمناقشة الخطة فى العلن.لم يكن السبب أن الخطة كانت من الأسرار العظمى ،لكن المشكلة هى أنهم لم يعتادوا المشاركة فى مناقشة عامة حتى بين الخبراء أنفسهم.
من مظاهر تكبر المسئولين،إدعاء أنه لم تسند إليهم أو إلى أى أحد يليهم فى السلم الوظيفى،أن يتشاور ويسأل ويستفسر أهل زغرب.دعونا نتذكر أننا لسنا بصدد الحديث عن ملكية خاصة،بل عن منافع عامة من حق كل مواطن وبناء على ذلك فإن من حقه أن يعبر عن رأيه فيما ستؤول إليه الأشجار.لكن إداري الحكم المحلى إعتادوا أن يقوموا بالتغيير ويفرضوه على سكان مدينة زغرب.لم يطرأ أى تغيير على طريقة تفكيرهم فهم لا زالوا يفكرون بنفس الطريقة

التى كانت قبل أنهيار الشيوعية وهى أنه لا يوجد مكتب بيروقراطى يناقش ما يفعله مع الناس.

لماذا نغير أى شىء الآن؟ إن الإداريون والخبراء يتصرفون بشكل كما لو أن مسئوليتهم هى فقط أمام عمدة زغرب ،الذى أعطاهم فرصة العمل،كما أنه هو من يدفع لهم مرتباتهم. إن عمدة زغرب لم يتعلم بعد أنه عمدة المواطنين ومسئول عنهم وأيضاً دافعى الضرائب الذين يدفعون له الأموال التى ينفقها. إن كل من يجلسون فى مناصب اليوم لا زالوا-بإختصار-يعملون بنفس الطريقة كما فى النظام القديم وإذا قمت بسؤال أحدهم عن الديموقراطية فسوف يعطيك إجابة نظرية بحتة.

كان يبدو واضحاً أن بعض المواطنين واتتهم الجرأة فقاموا على إثر ذلك بالإتصال بالصحافة والتى كانت مجبرة بدورها أن تسأل السلطات للحصول على تفسير للموضوع.

لكن إداري المدينة والخبراء لم يكونوا وحدهم الملامين،المواطنين أنفسهم تصرفوا وكأن لا ناقة لهم ولا جمل فى الموضوع وكأن ليس لديهم الحق فى المطالبة ،لكن الصحف ذكرت لاحقاً أن الناس كانوا فعلاً غاضبين.وهذا حقيقى أنهم لم يستطيعوا أن يظهروا غضبهم قبل وجود رد فعل رسمي لأنهم لم يكونوا على علم بالخطة التى تنوى البلدية تنفيذها.لكن أين كان هذا الغضب عندما تم إغتيال الأشجار؟! لماذا لم يقوموا بالتعبير عن غضبهم فى حينها؟ عندما سألت صديقتى التى رأت كل شئ من نافذة شقتها،فقالت "لم نستطع فعل شئ" وعقب صديق أخر قائلاً:لقد قامت السلطات بزرع أشجار جديدة.

إن المأساة لم تكن فى الأشجار الكبيرة ذاتها بل ان الجميع كان مصدوماً ومندهشاً بسبب تجاهلهم. خطاب وحيد لخص مشاعر أهل زغرب فيما يتعلق بموضوع إعدام الأشجار، تعليقٌ وحيد ربما يكون قد لخص مشاعر أهل زغرب بشأن إعدام الأشجار الذى يقول: "نحن فاقدى الحيلة تماماً،و ليس لنا أى تأثير".

مرة أخرى يبدو الأمر غريباً، حيث إن أحداً لم يشعر بجدية مدى الإهانة التى وجهت إليهم بعدم سؤالهم قبل البت فى مشروع كبير كهذا، قبل الإقدام عليه وليس بعد فعله.لكن حتى بعد ذلك لم يطلب أحد أن يأخذ على عاتقه مسئولية مراعاة ما للجمهور من حق عام. فى أول الأمر رأى بعض الناس أن الأمر يمثل مشكلة.هؤلاء الناس الذين رأوا المشكلة كانوا على درايةبأن النظام الكرواتى ليس أكثر النظم الديموقراطية إعتدالاً وأن الإلحاح فى طلب المعلومات والإصرار فى الحصول عليها وطلب التوضيح والمسئولية.....إلخ،كل

هذا يجعل الشخص غير مرحب به من جانب السلطة ومن جانب المواطنين الذين لا يجرؤون على المطالبة بحقوقهم حيث يتساءلون:لماذا ننزعج، فقطع الأشجارليس بمسألة شخصية كما أنها لا تمس حياتك؟!

إن الاهتمام بمنافعنا الخاصة كان يمثل الأولوية بالنسبة لنا كأفراد وحتى وقت قريب فكل شيء كان عاماً اعتبر ملكية خاصة للدولة في الوقت الذى كان عليهم الاهتمام به الآن فجأه هناك هذا الشيء الذى نطلق عليه فائدة عامة لكنه لايزال من الصعب أن يستوعب الناس في وقت واحد معاً الفائدة والمشكلة والمواطن وأن لهم الحق ان يتصرفوا تحت اى من هذه المسميات لكن كيف يمكننا وضع تعريف للفائدة العامة وكيف سنحارب من أجلها ؟ أنها قانون جديد وهذا القانون الجديد يتواجد فقط في الديمقراطيه حين يرغب المرء أن يفعل شيئاً ما ، فأنه يبدأ في التحرك وتكوين مجموعة عمل او لوبى من أجل ذلك.ويمكن إعتبار هذا بمثابة برهان قاطع لهؤلاء الذين لا يعيشون هنا.أما الناس هنا فأنهم لا يفكرون بنفس الطريقة،حيث أنهم غير مجهزين لذلك،سواء عن طريق قادتهم السياسيين أو عن طريق الإعلام.أنهم لا يقومون بالضرورة بالتواصل فيما بينهم و بين قرار أحادى الجانب لقطع الأشجار في المدينة وأيضاً قطع أصول الديموقراطية. ولكن كيف يتأتى لنا أن نضع الديموقراطية موضع التنفيذ؟ أنها ليست مفهوماً مجرداً، ولن تنمو وتتطور إذا لم يكن هناك من هو على إستعداد للمخاطرة من أجل أن يدفعها للأمام.

لو أن الناس في زغرب كانوا قد قاموا بالتواصل، لكان لزاماً عليهم أن يحاولوا أن يوقفوا العمال ومناشيرهم الكهربائية. وأغلب الظن أن الأشجار كانت ستسقط من تلقاء نفسها بسبب حالتها على أية حال ولكن على الأقل كان يكفى المواطنين أنهم قاموا بأداء ما عليهم من واجب.وما هى إلا بضعة أشهر بعد ذلك،ميدانٌ أخر –**بيتار برادوفيتش**- قد فقد أيضاً هويته. غير أن الناس قاموا في هذه المرة بجمع ثمانية ألاف توقيع في يوم واحد وقاموا بتنظيم مسيرة ضد الإبادة الجماعية للأشجار.بالطبع ذهب الموضوع هباء لكن الناس قد تحركوا من أجل أفكارهم.لقد قاموا بالإحتجاج.وهذا هو ما يصنع الفرق في العالم.أنه ما يعطى الأمل في المستقبل.

... ملك للبلقان

كان سمو ولي عهد يوغوسلافيا ألكسندر يقف في منتزه أمام ميكروفون وهو يمسك بورقة في يديه الممتلئتين وقد كان منفعلاً، فقد كان هذا ظهوره الأول أمام الجمهور وهي أول مرة يتعامل مع الأمور كولي عهد في وسط عاصمة دولته بلجراد، وقد امتد الحشد الذي يضم عشرات الآلاف من الأشخاص على مرمى البصر، في البداية سمع ولي العهد بعض الهمهمات ولكن تبع ذلك صمت شديد مليء بالتوقعات.

كان الأمير ألكسندر يعتقد بالكاد أن ذلك كان يحدث؛ وهو أنه يقف هنا في بلجراد أمام جميع هؤلاء الأشخاص الذين أتوا لتحيته والاستماع إلى أميرهم الغائب منذ فترة طويلة والمنسي تقريبًا، وقد كان فقط قبلها ببضعة شهور رجل أعمال عادي في لندن، وهي المدينة التي اختارها والده الملك بيتر لمنفاه كشاب في ١٩٤١، وقد ولد ألكسندر هناك في ١٩٤٥ وقضى كامل حياته خارج البلاد دون احتمال كبير بالعودة يومًا إلى يوغوسلافيا كملك، فما الأمل في العرش الذي قد يحصل عليه طالما كان تيتو حيًا يرزق؟ وبدلاً من ذلك ، انخرط في مجال الأعمال وقد تزوج مرتين: الأولى من إسبانية والثانية من يونانية ولم يقم بأي اتصال من أي نوع مع مملكته المستقبلية، ففي المقام الأول كان ممنوعًا من قبل الحكومة الشيوعية حتى من زيارتها ، وقد كان بالطبع على علم بوجود ذلك الوطن الجميل وإن كان قاسيًا إلى حد ما في البلقان فقد قرأ ريبيكا ويست، وكان يعلم كونها من عائلة كارادجوردیفیتش، ولكن الأمر لم يكن يهمه كثيرًا؛ حيث أنه أمير دون أرض، فقد كان رجلاً عمليًا وتنقصه الحاجة لهذا النوع من الخيال.

ثم حدث المستحيل وأنهارت الشيوعية وهكذا أصبح أخيرًا سمو ولي عهد يوغوسلافيا ومن يدري ؟ ربما يصبح الملك في يوم ما فقد أخبره أصدقاؤه الملكيون في لندن وفي بلجراد (اكتشف فجأة أن بلجراد مكتظة بالملكيين) أن هناك فرصة حقيقية له فيما يتعلق بالعرش، وفي بادئ الأمر لم يقتنع ألكسندر بوجود هذا الاحتمال ولكن بعد فترة استسلم للأمر خاصة منذ اعتناق زوجته، وهي امرأة من عامة الشعب، لفكرة كونها ملكة للبلاد، وقد قرر أن يأخذ فرصته وشرع في إعداد نفسه للقيام بمقابلات كما لو كان بالفعل شخصية هامة؛ حتى يقوم بعرض آرائه بخصوص الأمور السياسية والاقتصادية الأخيرة وأيضًا الحديث عن مستقبل البلاد.

وأي شخص في مكانه ربما يفعل ذلك، فبعد كل شيء ألم تحدث أكثر الأشياء استحالة - سقوط الشيوعية – بالفعل؟؟ هل كان هناك أحد يتوقع حدوث هذه المعجزة؟ وهكذا فكر ألكسندر أن المحاولة لن تضره في شيء فليس لديه شيء ليخسره بل قد يفوز بكل شيء، وربما حتى كامل المملكة، حسنًا ربما ليس كامل المملكة حيث إن السلوفنيين والكرواتيين يقدمون إشارات واضحة إلى أنهم ليس لديهم أية نية في البقاء ضمن يوغوسلافيا، ومع ذلك قد يقدم نفسه كمطالب جاد للعرش واضعًا اسمه في قوائم هؤلاء الملكيين الذين لم يقلعوا عن الأمل في تولي أمور البلاد، وإذا فشل ذلك المخطط الكبير فهو يعتقد أن القليل من الإعلانات على الوسائط الإعلامية العالمية ليس أمرًا سيئًا من أجل العمل.

وبينما كان يقف هناك أمام الحشود أصبح مدركًا أنه غير معتاد على هذا العدد الكبير من الأشخاص وهذا القدر الكبير من الاهتمام والأمل؛ فقد شعر أن راحتي يديه تتعرقان وبدأ بقوله "دراجي بيوجرديانى" وقد كان لدى ألكسندر من الكياسة ما يكفيه للتحدث إلى الحشد باللغة الصربية، حتى إذا لم يكن يتحدثها على الإطلاق، فقد كان هذا مقياسًا لمدى اعتقاده الفعلي في استعادة العرش يومًا ما، وقد تلا الخطاب وكان حريصًا على جعل الأمر يبدو طبيعيًا بقدر الإمكان، ومع ذلك كانت لهجته سيئة لدرجة أن كلماته لم تكن مفهومة على الإطلاق، ولكن ذلك لم يبد أنه مهم كثيرًا فبمجرد أن فتح فاه للحديث قام الحشد بالتهليل والتصفيق بهياج ولم تكن اللغة مهمة بقدر أهمية تواجده وبقدر حقيقة أن ولي العهد أمامهم ويخاطبهم.

فما يهم بالفعل هو أنه قد عاد ومعه المشهد الملكي بكامله: الاحتفال المهيب في الكنيسة الأرثوذوكسية مع العديد من الصلوات ولمعان الذهب وتراقص الشموع في مذبح الكنيسة ورنين أجراس

الكنيسة وغناء الترنيمة القديمة "بوزي سباسي كرالجا" والدموع والآنحناءات والمجاملات والأرستقراطية، ولا يمكنك القول إن الأمير ألكسندر كان يبدو كأمير الروايات أو حتى الصحف الشعبية أو أفلام هوليوود، فهو لم يكن طويلاً ولا متأنقًا ولا مهندمًا، فلم يكن هناك شيء نبيل في جسده الثقيل البدين وأصابعه القصيرة، أو وجهه الذي يشبه وجه تاجر سيارات ماهر، ولكنه كان ولي العهد وقد ولد ذلك إحساسًا أن الماضي قد عاد لهذا الشعب الذي ينتظر حديثه، والذي أجبر على الحياة لمدة خمسين عامًا دون أية حقوق بهذا الماضي، ولكن سمو ولي عهد يوغوسلافيا ألكسندر كارادجوديفيتش استعاد كل ذلك هذا اليوم فقط بقوله " دراجي بيوجردياني".

ما الخطأ في هذه الصورة؟ لقد فكرت بعد مشاهدة كامل الاحتفال في التلفاز، هل من المحتمل حقًا أن يكون هؤلاء الأشخاص قد أرادوا حقًا نظامًا ملكيًا في عام ١٩٩٢ ؟ إذا كان الأمر كذلك فلماذا كانت ثورة ١٩٨٩؟ لقد اعتقدت، وربما يكون هذا خطأ، أن الهدف الرئيسي من كل ذلك كان الحصول على الديموقراطية، ولكن الآن يبدو الأمر أكثر تعقيدًا من ذلك على الأقل في البلقان، وقد ظهر الملكيون من العدم بأعداد متزايدة وطموح ملموس، وعلاوة على ذلك، لم يكن الأمر هكذا فقط في صربيا ولكن أيضًا في بلغاريا ورومانيا وكذلك في ألبانيا فجميعها كانت ممالك قبل الحرب العالمية الثانية، فقد تم منع الملك الروماني ميشيل من زيارة البلاد من قبل الحكومة الجديدة بسبب الخوف من أن يحرض وجوده على نفس المشاعر، كما كان الأمر ألكسندر يفعل الآن في صربيا، وفجأة وضعت لعبة التاريخ الورثة الأربعة للعروش في دول البلقان، والذين قضوا معظم حياتهم ينتظرون، في موقع يسمح لهم بلعب أدوار سياسية جادة.

ملك في البلقان؟ ربما نعتقد أن الاشتراكية قد نجحت في محو كل ذكرى للماضي وكل ذكرى للأنظمة الملكية حيث كانت نية الشيوعية في كل مكان هي إقناع الناس أن التاريخ قد بدأ مع حكم الشيوعية، وفي الحقيقة ليس هناك العديد من أمم البلقان التي لديها ذكريات جيدة فيما يتعلق بالآنظمة الملكية الخاصة بهم، وبالفعل لم يتذكر الصرب ذلك وبالنسبة ليوغوسلافيا قبل الحرب تحول النظام الملكي إلى نظام ديكتاتوري دموي، وبجانب ذلك كانت جميع الأمم الأربعة دولا ريفية فقيرة إلى حد ما، وأغلبية الأشخاص بها عاشوا بشكل أفضل تحت النظام الشيوعي من الآنظمة الملكية فقد كان لديهم قدر أكبر من الطعام وفرص تعليمية أكثر وقد تحسنت صحتهم،

ولكن ما هو غائب من التاريخ وما هو ممنوع أو محرم غالبًا ما يتحول إلى لغز.

تفسير الرغبة في إعادة تأسيس الملكية في دول البلقان هو أنه بالرغم من عدم وجودها حصريًا في ذكريات الأيام الخوالي إلا أنها متأصلة بقوة في طبيعة النظام الشيوعي نفسه، وأيضًا في فترة الارتباك وعدم الأمن التي تلت أنهيار الشيوعية، وإذا كان الناس قد عاشوا قبلها في حالة من الفراغ التاريخي فقد وجدوا أنفسهم الآن في حالة من الفراغ السياسي، وهناك نظام تعدد حزبي ولكن الأحزاب تبدو متشابهة جدًا، والحزب الوحيد المنظم جيدًا بينها هو الحزب المتنقل أو الحزب الشيوعي المتنقل كما يرى في جميع الدول محل التساؤل خلال انتخاباتهم الحرة الأولى فقد يقوم الناس بالتصويت ضد الشيوعيين ولكنهم يصوتون في النهاية لأشخاص شديدي الشبه بهم، فهم يختارون المألوف وحيث أنهم عاشوا فترة طويلة جدًا تحكمهم الشيوعية ولم يكن لهم أية تقاليد ديموقراطية ثابتة؛ لذلك لم يستطيعوا تطوير اهتمامهم بالسياسة ليلة بعد أخرى أو المشاركة بفعالية في الحياة السياسية المعقدة للفترة الجديدة، وأن يشاركوا في الحياة السياسية كان يعني دائمًا كونهم انتهازيين يهدفون للحصول على وظيفة أفضل أو تطوير السيرة المهنية أو الحصول على دخل أكبر، وهو ما كان تحت حكم الشيوعية بعيد وخطير، شيء ما مليء بالخوف والكره، وبالتأكيد ليس شيئًا يرغب الناس في الآنخراط به.

وبالرغم من كل شيء كان أبشع ديكتاتورين في أوروبا الشرقية هما نيكولاى شاوسيكو في رومانيا وإنفر هوكسا في ألبانيا، وقد اعتنت الشيوعية بتربية التكتلات السياسية فقط، وليس الأفراد ولا المواطنين، وكان المواطنون المدركون لحقوقهم وعلى استعداد للنضال من أجل الحصول عليها موجودين فقط في النظام الديموقراطي، بينما إعتقد عدد قليل جدًا في مجتمع الكتلة الشيوعية أن الفرد قد يحقق أي تغيير، ففي رومانيا وخلال المرتين المتعاقبتين من الآنتخابات النزيهة تم التصويت داخل الشيوعيين في المكتب (حدث الشيء نفسه في صربيا) كما دعم الرومانيون بأغلبية ساحقة (٨٥ بالمائة منهم) أيون إليسكو كرئيس، مفضلين إياه على بيروقراطي كئيب لم يكن يعمل سوى باسم الديموقراطية، ومن الخطأ أن نتصور أنهم قاموا بذلك لأنهم لم يعرفوا ما كانوا يقومون به، فعلى النقيض تمامًا كانوا يعرفون، ولكنهم قاموا بذلك لأنهم شعروا بالحاجة إلى هذا الحزب وهذه الشخصية، فقد رأوا في إليسكو شخصية قوية وقائدًا قويًا يستطيع قيادتهم عبر الأوقات الآنتقالية العصيبة، ولم يرد الناس

انكسارًا دراميًّا حتى لو كان ذلك سيحررهم من سجنهم، فقد كانوا يحتاجون للشعور بالاستقرار.

وقد وصل كلٌ من الرومانيين والصرب إلى حلول مألوفة في المواقف نفسها: حزب معروف وزعيم قوي وفي الأوقات العصيبة ، أوقات التغيير السياسي والاجتماعي الدراماتيكي انحاز الناس للرجوع مرة أخرى لما يعرفونه، وقبل ذلك كانت الهوية الوحيدة التي يسمح بها لشخص هي الطبقة العاملة، ومع ذلك كان هناك في الخفاء جنسية ولغة ودين وثقافة تعرف أي شخص، وقد أصبحت الجنسية والدين ركائز يلتصق بها الناس ولا يستطيعون المضي في طريقهم دونها، ويبدو الأمر معروفًا وآمنًا أن نمنحهم تلك الهوية الجديدة التي يريدونها. وقد كانت النهضة الأولى للقومية والشعور الديني عقب سقوط الشيوعية (كما حدث في يوغوسلافيا السابقة والاتحاد السوفييتي السابق) ولكن دعونا نتساءل كيف يمكن تحديد الهوية بخلاف ذلك؟ بدأت اللعبة السياسية الجديدة والقادة السياسيون الجدد في الظهور وكانوا غير معروفين وليسوا محل ثقة، فلم يكن هناك تقاليد ديموقراطية تسهل انتقال المجتمع ولم يكن هناك مؤسسة مدنية يعتمد عليها، وكما كتب ريزارد كابوسينسكي في كتابه " الإمبرياليون" فقد أتى مفهوم البيريسترويكا من الطبقة العليا، وبمعنى آخر لم تأت فكرة الديموقراطية من الأسفل من الشعب نفسه؛ فقد كانوا أكثر خوفًا من التجرؤ على طلب أي شيء مثل الديموقراطية ومثل أي شيء آخر بدأ الأمر من أعلى القمة.

وبعد الاستراحة من الماضي الشيوعي كانت هناك حاجة ماسة وصعبة المنال لتأسيس رابط قوي مع ماضي ما قبل الحرب أو ما قبل الشيوعية وهكذا استطاعت سلوفاكيا وكرواتيا، وهما دولتان مستقلتان حديثًا، إنشاء روابط بسرعة مع فترة الاستقلال الوحيدة في ذاكرة تاريخهم ولكن لسوء الحظ كانت هذه الفترة هي فترة الفاشية تحت قيادة جوزيف تيسو وآنتي بافيليتش على التوالي، ولم تحمل هاتان الدولتان في تاريخهما أية أنظمة ملكية قديمة تنتمي إليها، بينما كانت بولندا وجمهورية التشيك والمجر لديها على الأقل بعض التقاليد الديموقراطية التي تزعم أنها تراثها، وعلى الجانب الآخر كان ملوك دول البلقان ما زالوا هناك كدليل حي على الماضي، فماذا قد يكون أكثر منطقية من إعادتهم إلى دولهم حتى يستعيدوا الأنظمة الملكية هناك؟ حسنًا من وجهة نظري قد يكون ذلك مجرد استبدال نظام إقطاعي بآخر.

إذا اقتربنا أكثر من القادة الشيوعيين في البلقان مثل نيكولاى شاوسيكو أو انفر هوكسا أو جوزيف بروز تيتو أو تودور زيفكوف

يمكن تمييز نموذج إقطاعي واضح في حكمهم؛ فقد تعاملوا مع مواطنيهم كأشياء مجردة من أجل أهوائهم السياسة أو نزواتهم الأخرى، وقد حصدوا تقريبًا السلطة المطلقة على حياة الشعب؛ فقد عاشوا في القصور وبعضها تمت مصادرته من الملوك السابقين (مثل بيلي دفور في بلجراد) والأخرى، التي تكون أكبر، تم تشييدها من قبل الطغاة أنفسهم (شاوسيكو) وقد قاموا بوضع أقاربهم في المناصب الهامة ومكافأة تابعيهم الخاصين، كما كان لديهم محاكم من الخدم تحت تصرفهم وأيضًا جيشهم الخاص والشرطة التابعة لهم، بينما كانوا مسئولين فقط أمام البرلمان الخاص بهم أو الحزب الشيوعي، وفي دول البلقان هذه كانت الشيوعية في طريق استمرار الإقطاع ولذلك لم تكن الرغبة في إعادة تأسيس الملكية في هذه الدول فكرة قديمة عفا عليها الزمن في أوروبا الحديثة ولكنها كانت فكرة لم يعتريها الفناء يومًا، وقد تضمن استمرار الماضي وربما حتى بعض الاستقرار السياسي.

يحتاج أي شخص أن يفهم أننا، الأشخاص من العالم الشيوعي، ما زلنا أطفالاً بالمعنى السياسي فنحن نحتاج إلى أب ، شخص ما يعتني بنا حتى لا نضطر للاعتناء بأنفسنا، فنحن لا نعرف كيف نكون أحرارًا، ولسنا على استعداد لتحمل المسئولية، والنتيجة هي خيبة أمل ملموسة في الواقع الجديد ما بعد الشيوعية، فكيف لا ينجح النظام الديموقراطي؟ الديموقراطية لا تنجح فقط لأن رؤساءنا يقولون أنها تنجح أو لأننا لدينا دستور جديد ديموقراطي ونظام تعدد حزبي وانتخابات حرة واقتصاد سوق حر، وهذه هي الشروط المسبقة الأولية فقط لبناء نظام ديموقراطي، ولكن الأهم أننا جميعًا يجب أن نعمل على نجاح الديموقراطية، ولكي نعرف كيف نقوم بذلك نحتاج أن نتعلم من هؤلاء الذين سبقونا في التجربة ولديهم بعض الخبرة، ولكن من يريد الذهاب إلى المدرسة؟ ليس نحن بالتأكيد.

ربما لا تكون الملكية المستنيرة حلاً سيئًا، رغم كل شيء، فإذا شعر الناس بالحاجة إلى شخصية أبوية أليس من الأفضل أن يكون لديهم شخصية تاريخية موجودة بالفعل مثل ملك أكثر من منشق حافي القدمين سرعان ما يتحول إلى ملك وديكتاتور في نفس الوقت بمجرد أن يمسك بزمام السلطة؟ ملك مهذب مثقف غني قد يؤدي دوره النموذجي لأمة لم تصل بعد إلى مرحلة البلوغ السياسي، وفي نفس الوقت قد يشعر بواجب مقدس في خدمة شعبه ولن يكون بالضرورة عائقًا أمام تطور الديموقراطية.. انظر إلى انجلترا مثلاً أو هولندا أو السويد فعلى النقيض ربما يقوم نظام ملكي بمساعدة الشعب في تحديد واقع سياسي واقتصادي جديد ويكرس وقته لبناء مؤسسات

المجتمع المدني وتطوير الملكية الخاصة والطبقة المتوسطة مع القيم الليبرالية، وباختصار أساس أية ديموقراطية عاملة، وإذا كان ذلك يبدو أنه عفا عليه الزمن، أليست الفكرة ككل هي تأسيس دول أمة نظيفة عرقيًا تعيش في دول البلقان اليوم قديمة وأكثر اهتمام بخصوص السلام وحياة الناس؟

إذا كان وجود ملك هو الإجابة لعديد من المخاوف من التكتلات في دول البلقان إذًا فليحيا الملك! وربما بعد مساعدته للدولة على النهوض يقيد نفسه بتمثيل الدولة ويترك السياسة لأشخاص مختصين بها أكثر منه بينما يأخذ إجازة ليذهب في رحلة بحرية مثل ملك السويد، وهو شخصية على النقيض تمامًا مما هو موجود في كرواتيا اليوم، ألا وهو الملك المستبد المتكلف الذي ليس لديه تاج أو صولجان ولكنه لديه جميع صفات الملكية ومن سلوبودان ميلوسيفيتش في صربيا ذلك الديكتاتور الذي ينوي دفع ثمن بقائه في السلطة، فالقادة مثله عندهم شراهة شديدة للسلطة ولم يحظ يومًا بفرصة التعلم من درس الديموقراطية الأول وهو أنهم موجودون في مواقعهم لخدمة شعوبهم وليس لحكمهم، وإذا كان الأمر كذلك أليس من الأفضل للصربيين أن يكون لديهم ملك حقيقي مثل سمو ولي العهد ألكسندر كارادجورديفيتش؟ ربما تستطيع كرواتيا أن تقدم شخصًا ما أيضًا ؟؟؟

obeikandl.com

... شراء مكنسة كهربائية

في يوم آخر أصيب زوجي بأحد نوبات الكوليرا المزعجة التي تصيبه، ففي هذا الصباح وبينما كان يحتسي القهوة كان منفعلاً بالفعل، وقد عرفت السبب بالتأكيد؛ ففي اليوم التالي كان من المفترض أن نذهب إلى منزلنا الصيفي في كرواتيا لنقضي عطلتنا هناك، وحتى نصل هناك من فيينا ينبغي أن نعبر حدود الدولة الكرواتية وكان التفكير في ذلك وحده يغضبه.

آخر مرة عبرنا فيها الحدود بينما نغادر كرواتيا أصابته إحدى هذه النوبات عندما أوقفنا ضابط جمارك وسألنا إذا ما كان لدينا شيء نود التصريح به، وبدأ زوجي في الصياح بالأنجليزية ووجهه ممتقع: ماذا تريدنا أن نقر به وماذا يوجد بكرواتيا أساسًا لأخذه؟ ولكن الحمد لله لم يفهم الضابط تلك الكلمات بسبب كونها باللغة الآنجليزية، وكان زوجي غاضبًا جدًا من هذه المضايقة غير الضرورية لدرجة أنه لم يتوقف حتى ليطلع ضابط الشرطة على جوازات سفرنا، بل قاد في طريقه وكان الضابط يصرخ علينا وطلبت منه العودة إلى الدورية ثم عبرنا عبر ممر خاص يبعد فقط ٦ كيلومترات عن منزلنا وكنا نذهب مرة كل شهر، إن لم يكن أكثر إلى تريستي من أجل التسوق، ولم أرغب أن أعطي الضباط هناك أي سبب ليتذكرونا وينتقموا منا، ويقوموا بتعقيد حياتنا بمضايقتنا بالفعل كل مرة نعبر فيها الحدود، وقد قام الضابط الشاب الذي امتقع وجهه أيضًا بتحذيرنا بأدب من أننا كان ينبغي علينا التوقف لأن القواعد والقواعد، وعليه قمت بالاعتذار بتواضع وأطلعته على جوازات سفرنا ومن بعدها عدنا إلى طريقنا، والآن صار وجه زوجي ممتقعًا بحق

فقد كان يرتجف ولم يرغب في أن يقود أكثر من ذلك واتهمني بالتواطؤ في نظام الامتهان على الحدود.

بالطبع تعرفت على الفور على إحدى نوباته القديمة من فوبيا الحدود، والتي كشفت عن نفسها أولاً في الهياج – وربما تكون قد بدأت منذ بضعة أيام قبلها- ثم في الآنفعال ومن بعده العدوانية، وأخيرًا في نوع من الإحباط لبقية اليوم بالرغم من كون زوجي ألطف إنسان والأكثر مسالمة في الكون كله، ولكن المشكلة هي أنه ما زال أجنبيًّا في هذا الجزء من العالم، وربما يكون من الأفضل لو كان أجنبيًّا تمامًا ولكنه سويدي متزوج من كرواتية وفوبيا الحدود هذه كما أعتقد تراث طويل الأمد لوظيفته كمراسل صحفي في أوروبا الشرقية لأكثر من عشرين سنة، وقد تعرض لجميع أنواع التحرش ولا يستطيع أن يتحمل الأمر ببساطة بعد الآن، وقد اعتاد أن يقول "لقد كانت تتم معاملتي في أوروبا الشرقية لنصف حياتي كمجرم أو جاسوس أو شيء ما أسوأ من ذلك"، فعبور الحدود إلى تشيكوسلوفاكيا أو بلغاريا أو رومانيا في السبعينات والثمانينات لا يمكن أن يكون ممتعًا لمراسل صحيفة غربية، فيحتاج الشخص للتفكير في التأشيرات وتفتيش السيارة وحتى تفتيش الشخص في بعض الأحيان لتخيل الإهانة التي اعتاد على الشعور بها وقد أصبح الأمر عاطفيًا بالنسبة له ولا يستطيع التعامل مع هذه الأمور بعقلانية دائمًا.

ما يغضبه بالفعل الآن هو أن الموقف على الحدود بعد سقوط الشيوعية أصبح أسوأ حتى من ذي قبل، على الأقل في كرواتيا، تلك البلد التي ينبغي أن تثبت لنفسها أنها دولة مستقلة بالفعل على جميع المستويات، وهو ما يبدو أنه يتضمن كونها متغطرسة أمام أي شخص يدخل أو يخرج منها، كما أن جميع السيارات التي تدخل الدولة عبر الطريق يتم تفتيشها ولا يجوز للمواطنين الكرواتيين إحضار بضائع بقيمة أكبر من ١٠٠ دولار، وقد كان نفس الحد مطبقًا في يوغوسلافيا السابقة، وإذا قمت بتجاهل هذه القاعدة وتم الإمساك بك يجب عليك أن تدفع أكثر من ٣٠ بالمائة كغرامة، وهو أمر كريه من جانب ضباط الجمارك والشرطة لا شك في ذلك، فبالنسبة للأشخاص الذين يسافرون عن طريق الطيران قامت الجمارك الآن بتركيب ماسح ضوئي في مطار زغرب حيث لا يتم فحص أمتعتك فقط عندما تغادر البلاد مثل ما يحدث في جميع مطارات العالم ولكن أيضًا عند وصولك من الخارج حتى يتم التأكد بشكل لائق من حصة المائة دولار لكل مواطن ويجب أن تمر جميع الأمتعة على آلة الفحص – وليس هناك منطقة خضراء "لا شيء للتصريح به"

وبالرغم من ذلك هناك علامة توضيح واحدة إلا أنك إذا حاولت تتبعها سوف تصل فقط إلى أبواب مغلقة.

قال زوجي "لماذا لا تقومون أنتم مواطني كرواتيا الجديدة الحرة بفعل شيء حيال هذا الأمر؟"

سألته "مثل ماذا؟"

"مثل التظاهر وطلب تغيير هذه القواعد السخيفة فلماذا لا يتظاهرون حتى ضد موظفي الجمارك الوقحين؟" ما يعنيه هو لماذا ما زلنا نطيع السلطات كما كنا نفعل في السابق تحت حكم الشيوعية؟

حسنًا، لماذا لا نقوم بشيء ما؟ ولكننا نفعل بالفعل نحن نفعل فقد كافحنا النظام باستخدام طرق ماكرة استخدمناها لمدة خمسة وأربعين عامًا من التآمر، وهي طريقة عقلانية تمامًا فقد يدعوها البعض صيغة البقاء على قيد الحياة، وقبلها كان من المستحيل القضاء على النظام الشيوعي بأية طريقة أخرى سوى التآمر، كان عليك أن تنصاع أو ينتهي الأمر بك في السجن وقد كنت تعرف أن السلطات سوف تكون دائمًا قادرة على إيجاد شيء ما خطأ في جواز سفرك (إذا كان لديك واحد) أو في النقود التي كنت تأخذها من الدولة (إذا كان لديك) أو الوثائق أو فقط في أي شيء، وقد كنت في المكان الخطأ بالأساس، شخص ما كان مضطرًا لتلقي الإهانة بانتظام حتى يصل إلى مكانك.

ما رد الفعل الطبيعي والصحي لذلك؟ أنه بالطبع سرقة المسيرة من الرسميين عن طريق الخداع وهذا هو المنطق: الامتهان الذي تتعرض له (الشك ، الغطرسة ، التفتيش، القيود، الرشوة) تنظر إليها على أنها جزء من وظيفة ضباط الشرطة أو الجمارك ومن ثم تعتاد عليها، الأمر ليس لطيفًا ولكنك لا تستطيع أن ترفع صوتك أو تتشاجر معهم أو تثور، والتجارب تؤكد لنا أن هذا المسار لن يحقق أي شيء على أفضل حال، وربما يكون سيئًا عليك، وخداع النظام هو جزء من نفس اللعبة والجانب الآخر للعملة، فالنظام يضطرك إلى التهريب (إذا كنت تستطيع طلب إحضار بضائع منزلية تتجاوز بقليل المائة دولار المقررة فهذا تهريب) والضباط على الحدود يفهمون ذلك جيدًا.

هذا التجريم لجميع السكان يجعل كل شخص مجرمًا صغيرًا، ويبدو كنوع من التحكم، فأنت تهرب ولذلك أنت لست مشبوهًا فقط (في الواقع ضحية بريئة لغطرسة الدولة) ولكنك تصير مجرمًا صغيرًا تلقائيًا على أية حال؛ لذلك فأنت لا تتفوه بكلمة: فقط تطيع وتدفع إذا أمسكوا بك وتعتمد على قانون المعادلات – من المستحيل

لهم أن يمسكوا الجميع، بمعنى أنك تقوم بشراء ما يمكنك شراؤه وأخذ فرصتك وإذا قاموا بإيقافك وبدأوا بالتفتيش ووجدوا -فلنقل هاتفًا خلويًا أو فاكسًا مثلاً - تقوم ببساطة بدفع الغرامة دون احتجاج، وما زال الأمر يستحق لأنه حتى مع الغرامة سوف يكون سعر هذه البضائع أقل منه في دولتك.

وبالنظر للأمر من وجهة نظر زوجي فهذا السلوك بالكامل، من جانب ضباط الجمارك وأيضًا من جانب الناس، غير مقبول خاصة اليوم بعدما أصبحت الحدود بين دول الاتحاد الأوروبي غير موجودة فهو يقول "إذاً ما الخطأ في أن يذهب الناس ويشتروا البضائع من المكان الرخيص؟ لديهم كامل الحق في فعل ذلك." وهو بالطبع محق فالعملة المحلية الكونا يتم تقييمها أكبر من قيمتها ب ٤٠% وفقًا لصندوق النقد الدولي كما أنها لا يمكن تحويلها وأسعار المواد الغذائية أغلى بمعدل يتراوح بين ٣٠ و ١٠٠ % منها في النمسا، وهي واحدة من أكثر الدول غلاءً في أوروبا الغربية؛ لذلك يقوم الناس فقط بعبور الحدود وشراء طعام أرخص وبضائع كهربائية وأخذ مخاطرة الإمساك بها معهم.

وبهذا الصدد لم يتغير أي شيء عن أوقات الحكم الشيوعي، ولكن هذه التجارة غير المشروعة تشكل مشكلة لاقتصادنا القومي المحبط بالفعل (يتم إنفاق مئات الألاف وربما بضعة ملايين من الماركات الألمانية في الخارج كل شهر) وذلك كثير جدًا لدرجة أن ممثل للبرلمان الكرواتي اقترح حد المائة دولار الزهيد ومنع المواطنين من إحضار أي شيء على الإطلاق إلى الدولة وانتهت هذه القصة بمناشدة مثيرة للسخرية للمواطنين الكرواتيين: كونوا وطنيين واشتروا منتجات كرواتية! حسنًا ولكن من يستطيع أن يقدمهم؟ وهكذا تكون طريقة البقاء هي استمرار التهريب.

وفي هذه الظروف يكون شراء مكنسة كهربائية مهمة ليست باليسيرة، وأنا أعرف أنه من الصعب تصديق أن مكنسة كهربائية بسيطة تعد مشكلة، ولكن هذا قد يحدث فإذا كان لديك واحدة وعطبت يكون أمامك خياران: إما إصلاحها أو شراء واحدة جديدة، وفي كرواتيا الآن كلا الخيارين قاس بنفس القدر، على الأقل في حالتي، فقد كان إصلاح مكنسة كهربائية أمرًا صعبًا، لأن المصنع الذي أنتجها كان في هذا الوقت في بلد آخر: سلوفينيا وقد يكون الحصول على قطع الغيار أمرًا صعبًا فعليك طلبهم والآنتظار لوقت طويل ودفع الكثير أيضًا لأنهم سوف يتم التعامل معهم كاستيراد، وبالنسبة لمكنستي الكهربائية فقد كانت قديمة جدًا ولا يمكن إصلاحها على أية حال؛ لذلك قررت شراء واحدة جديدة وبعد بعض البحث في السوق

اكتشفت أنا وزوجي أنه مثل معظم الأشياء في كرواتيا كانت المكانس الكهربائية أغلى بمعدل يتراوح بين ٣٠ و ٥٠ بالمائة عنها في النمسا إما بسبب أنها مستوردة أو غالية السعر أو كلاهما.

والحل المنطقي الوحيد كان شراء واحدة من الخارج، ولكن بسبب حد المائة دولار كان علينا أن نقوم ببعض التخطيط – ليس هناك العديد من المكانس الكهربائية التي يمكنك شراؤها بأقل من هذا المبلغ والطريقة المعتادة للالتفاف على ذلك هي الحصول على فاتورة غير صحيحة من المتجر الذي تشتري منه البضائع، ولم تكن هذه مشكلة في إيطاليا خاصة في تريستي أو أي من المتاجر بالقرب من الحدود الإيطالية، وسوف يصدر المتجر لك فاتورة فلنقل ب ٩٩ دولار حتى إذا كنت قد دفعت ٢٥٠ دولار، وغالبًا لن يعترض ضباط الجمارك حتى إذا اشتبهوا أن فاتورتك مزيفة، وإذا لم يكن التلاعب واضحًا جدًا والسعر منخفض بشكل هزلي (يعلمك هذا أن الخداع الذي تقوم به يجب أن يكون قابلاً للتصديق) وهم لا يعترضون لأنهم لا يمتلكون طريقة سريعة للتحقق من الأسعار، ويمكنهم فقد تقديرها لأن الورقة هي كل ما يحتاجوه لتبرئة ذمتهم.

وبالرغم من ذلك، وحيث إننا نعيش في فيينا لفترة من العام، قررنا شراء مكنسة كهربائية هناك ولكن عندما سألنا في العديد من المتاجر عن فاتورة زائفة اكتشفنا أن النمساويين لم يسمعوا يومًا عن هذه الخدعة، وفي أحد المتاجر الكبيرة نظروا إلينا كما لو كنا مجرمين، حتى إنني شعرت أنهم قد يطلبون الشرطة بمجرد أن ندير ظهورنا ونخرج من المتجر، وكان هذا غريبًا لأننا كنا في شارع ماريا هيلفر، وهي منطقة التسوق الرئيسية للأوروبيين الشرقيين حيث قلما تسمع اللغة الألمانية، وكل شخص يعرف أن كل روماني أو مجري أو كرواتي أو سلوفاكي يجب أن يقوم بتهريب الأشياء أو دفع الجمارك.

في النهاية اكتشفنا متجرًا صغيرًا خاصًا اعتقدنا أنه قد يكون أقل بيروقراطية، وأن المالك قد يرغب في مساعدتنا إذا شرحنا له سبب حاجتنا لهذا الإيصال، وقد أظهر الرجل بعض التفهم، وكان على استعداد للقيام بخدمة لنا، ولكن في اللحظة الحاسمة قام زوجي بخطأ فقد علق بأن المكنسة الكهربائية التي ننوي شراءها أرخص بحوالي عشرة بالمائة في المتاجر الأخرى في المنطقة المجاورة وعليه صاح الرجل "إذًا اذهب وقم بشرائها من هناك! أنا لا أريد أن أبيع لكما أي شيء الآن!" وقد عانى زوجي من نوبة كوليرا خفيفة وهو يشرح للرجل بطريقة مهذبة جدًا على الرغم من كون لهجته مغتاظة جدًا أنه إذا استمر في معاملة زبائنه بهذه الطريقة سوف يفلس قريبًا

وقد أدى هذا إلى مزيد من غضب صاحب المتجر الذي قام بطردنا من متجره.

وبعد أن أدركني التعب من البحث دون جدوى والمخاطرة بغضب زوجي تجرأت على اقتراح أن نقوم بشراء المكنسة ببساطة بفاتورة طبيعية وإذا تم الإمساك بها معنا نقوم بدفع الغرامة ولكن ماذا حدث؟ تمسك بكل عناد بمبادئه الخاصة بعدم التهريب قائلاً "الأمر لا يتعلق بالمال" وهذا ما أغضبني بشدة فبالتأكيد الأمر برمته يتعلق بادخار المال فقال "لا المغزى هو أنه من الغباء دفع الجمارك."

"إذًا دعنا نشتري الشيء البغيض من كرواتيا ونوفر على نفسنا على الأقل جميع هذه المتاعب."

ولكنه أصر "ولكن الأكثر غباءً أن ندفع خمسين بالمائة إضافية هناك على مكنسة كهربائية."

فأجبت " إذا دفعنا الغرامة سنكون ما زلنا ندخر بعض المال."

فقال بغضب شديد "ألا ترين أن هذا جزء من نفس الغباء؟"

قمت باستخدام آخر حجة لي قائلة" ولكننا نحتاج مكنسة كهربائية ونستطيع شراء واحدة من كرواتيا أو دفع الغرامة إذا اشتريناها من هنا."

ولم يختلف معي في ذلك، ولكن لأننا كان لنا وجهتي نظر على النقيض تمامًا قررنا التوقف عن مناقشة الموضوع لبرهة.

وبعد مرور بضعة أيام قررت تولي هذه المشكلة بنفسي، حيث إني كنت أحتاج إلى الذهاب إلى زغرب على أية حال؛ لذلك سوف أقوم بشراء المكنسة الكهربائية اللعينة دون علمه وآخذها معي في القطار، ولن يعرف حتى بهذا الأمر وما لا تعرفه لا يجرحك، يا لها من خطة لطيفة بالفعل، ولكنها لم تنجح فقد اضطررت لتأجيل رحلة القطار واضطررت لإبقاء المكنسة الكهربائية الجديدة من نوع روينتا، والتي اشتريتها أثناء فترة الخصومات بسعر رائع ٩٩ دولار في شقتنا في فيينا ووضعتها في حقيبة سفر بريئة المنظر، وفي هذا الوقت عاد زوجي من رحلة عمله وبدأنا في حزم الحقائب من أجل الذهاب إلى زغرب وذكرته أننا نحتاج شراء سائل خاص لحماية الحوائط في منزلنا في كرواتيا من الرطوبة وقد أراد أن يعرف ما إذا كان ذلك ضمن حدود المائة دولار (كأجنبي لم يكن له الحق في إحضار أي شيء على الإطلاق سوى متعلقاته الشخصية) ثم اضطررت للاعتراف بخطتي الصغيرة بخصوص روينتا وقد اشتريتها بالفعل ويجب أن يتم نقلها بطريقة ما إلى كرواتيا كما قلت وأجابني "حسنًا ولكن يجب أن نترك السائل" حاولت إقناعه أننا نحتاج السائل أيضًا ولكن ذلك كان دون جدوى فقد رأيت وجهه يشتاط غضبًا وتوقفت عندها على الفور، فقد كان

الرجل اللطيف للغاية والعقلاني والمنضبط ذو الخمسين عاما على وشك الآنفجار مرة أخرى، وكل ذلك بسبب مكنسة كهربائية غبية وقد أردت أن أجنبه ذلك.

أنا أتفهم غضبه تمامًا وعندما يهدأ يتفهم شخصيتي الهادئة المحسوبة الفطنة كمهربة أوروبية شرقية محترفة وما لا يستطيع فهمه هو سبب أننا (وهنا قد أصبحت واحدة منهم) مواطني البلاد المتحررة حديثًا لا نتحملها على الإطلاق.

وأنا لا أفهم ذلك أيضًا فقد أقوم بمنحه مائة سبب لعدم نضالنا من أجل مبادئنا – الحرب والاقتصاد الضعيف والخوف وعدم وجود جو ديموقراطي مناسب – ولكنهم ربما يثيرهم كثيرًا حقيقة أننا ما زلنا مشغولين بالقتال من أجل البقاء، وربما حتى بشكل أكثر قوة من ذي قبل، علاوة على ذلك نحن لا نصدق بالفعل أن التغيير محتمل وربما كان ذلك بسبب أن الأمور لا تتغير بسرعة كافية، فما زال لدينا حكومة حزب واحد وفساد وظلم وفقر ومتسلقون بقدر كبير، كما كان الأمر سابقًا، ولكن عندما أنظر إلى كلماتي وصوت المبنى للمجهول في "لا تتغير" أرى من أين يبدأ كل شيء وأدرك الفخ، فهذه الكلمات ببساطة تتضمن أن شخصًا آخر يجب أن يقوم بالأمر نيابة عنا حتى إذا لم أقم أنا في داخلي بخطوة التغيير المحددة من "هم" إلى "أنا" ، من الشيوعية إلى الديموقراطية.

أنا لا أعرف ما الحل فجل ما أعرفه هو أنني لا أستطيع الآنتظار على الحدود مع مكنستي الكهربائية الجديدة حتى تصبح دولتي عضوًا في الاتحاد الأوروبي أو دولة ديموقراطية حقيقية.

في النهاية سمح لي زوجي بأخذ الرويبتا في السيارة – ولا شيء آخر بالطبع.. وعلى الحدود الكرواتية بالقرب من زغرب سألنا ضابط جمارك السؤال المعتاد: "هل لديكم أي شيء لتصرحوا به؟" وأرد لا كما أقول دائمًا ولم أكن أكذب ليس هذه المرة لأن الرويبتا خاصتي قيمتها أقل من مائة دولار ولكني لن أقول حتى لو كان ثمنها أكثر من ١٠٠ دولار ببساطة لأني لا أفكر أنني مستعدة لقول نعم، وبالفعل كان لدي شيء لأصرح به ، ليس في المستقبل القريب على أية حال.

obeikandl.com

obeikandl.com

... حزب الحنين إلى الوطن في المقبرة

في بوخارست كان يوم ٢٦ يناير ١٩٩٤ يومًا شديد البرودة كانت الشمس مشرقة وساطعة ولكن درجة الحرارة كانت ربما ١٠ تحت

الصفر، وبمجرد أن تخرج في الشارع قد تتوقف على الفور عن الاحساس بأصابعك وقدميك وأذنيك ومقدمة أنفك، وبالطبع لم يكن يومًا مناسبًا لزيارة المقابر إذا لم تكن مضطرًا تمامًا لفعل ذلك، وقد كان يوم عمل في منتصف الأسبوع ولكن العجيب أن هناك حشدًا من الناس يتجه إلى مقبرة خينسيا ربما هي جنازة شخص مهم؟ لا لم تكن كذلك: هناك شيء أكثر غرابة كان يحدث هناك.

وكما اكتشفت سريعًا كان الناس في طريقهم إلى زيارة مقبرة الديكتاتور الذي تم إعدامه نيكولاى شاوسيكو، وقد يكون هذا عيد مولده الخامس والسبعين وإذا كان حيًا ما الاحتفال الذي كان قد يحدث! سيكون عيدًا قوميًا، ليس أقل من هذا، مع مئات من الأعلام المرفرفة وصورة شاوسيكو معروضة على كل نافذة متجر مزينة باللون الأحمر وبالطبع مع بث تليفزيوني خاص يخاطب فيه الأمة، وهو الحدث الأكبر الذي قد يحدث في استاد كرة القدم الرئيسي الممتلئ عن بكرة أبيه، حيث يقوم الشباب بأداء نوع مصمم بعناية من الباليه للابن الأعظم لرومانيا، كما قد يقوم الأكاديميون ذوو الشعر الرمادي ببعض الخطابات عن المميزات التاريخية الخارقة ويتلو الشعراء قصائدهم التي تمجده، ويقوم أطفال الحضانة بغناء الأغاني المناسبة، وأنا أعرف بالضبط كيف يبدو الأمر – فقد رأيت احتفالات كهذه عدة مرات في مولد تيتو في يوغوسلافيا.

ولكن شاوسيكو كان ميتًا ومعدمًا وكان قبره كومة بسيطة دون شاهد قبر (من المفترض أن يختفي) مزينا بالعديد من الزينة الورقية الجديدة والشموع المتراقصة وأعلام الحزب الشيوعي الحمراء، وكان هناك هدايا من الخبز والكعك ووفقًا للعادات الأرثوذوكسية وفوق كل ذلك صورته... كان هذا سيسكو في قمة مجده مع وجنتيه المتوردتين المهذبتين وعينيه الزرقاوين المشرقة بجانب بسمة الديكتاتور الواثقة التي ما زالت موجودة كما لو أن شيئًا ما لم يحدث له.

عند الساعة العاشرة من ذلك الصباح البارد كان قبر شاوسيكو محاطًا بحوالي ١٥٠ شخصا وقد كانوا يهمهمون مع بعض النساء اللاتي يشعرن بتوتر متزايد كما لو كن يتوقعن حدوث شيء، كما أتي شخص ما وخاطبهن، في البداية كنت مرتبكة فمن هؤلاء؟ ولماذا يظهرون هذا الإجلال لديكتاتور في الوقت الذي تحتفل فيه شعوب الدول الأخرى بتقديم ماضيهم الشيوعي حتى لدرجة أنهم كانوا يحاولون تدميره تمامًا؟

لم أستطع تقرير إذا كان هذا التجمع الغريب هو تجمع عيد ميلاد أو مظاهرة سياسية وبينما ألهي نفسي بذلك بدأت بالغناء

وترديد الشعارات "اتحدوا أيها العمال اتحدوا ! وقولوا لا للعبودية الرأسمالية!" كانوا يغنون كما لو أنهم صدقوا كلماته بالفعل ثم صاح شخص عجوز ما زال قويًا : "لماذا يتم اغتيالكم؟" بينما ردد الناس حوله ككورال يوناني "الأمريكيون والروس هم من يجب أن يلام على فقرنا؟ " بالفعل للحظة شعرت كما لو أني حاضرة في عرض دراما اجتماعية واقعية عن البوليتاريا (طبقة العمال الكادحين) كما لو أن هؤلاء الناس كانوا ممثلين وليسوا أشخاصًا حقيقيين، وقد ظهرت امرأة ترتدي شالاً من الصوف أسود في مقدمة الكورال وهي تصيح "في السابق اعتدنا على إرسال أبنائنا إلى المخيمات الصيفية" وكانت تحرك قبضتها في الهواء نحو عدو غير مرئي أخذ المخيمات الصيفية من أولادها، ثم حلت امرأة أخرى محلها قائلة "بمعاشي أستطيع شراء كيلو من اللحم شهريًا" وقد كان الأمر يبدو كأنه بيان معد مسبقًا بصوت الأمر الواقعي دون غضب، ولكن ربما مع بعض الحزن وقد لقى أداؤها دعمًا قويًا من الكورال الذي ردد "نعم ، نعم" لدعم كلماتها.

بالفعل كانت هذه دراما سياسية مرتجلة تظهر حول قبر شاوسيكو مع أعضاء من العامة يخرجون لإخبار مشاكلهم الشخصية لبعضهم أكثر من إخبارها لشاوسيكو نفسه، وقد أخذ الأمر مني فترة ولكني فهمت في نهاية المطاف أنهم لا يذهبون هناك كثيرًا ليتجمدوا في الاحتفال بعيد مولده أو حتى مجرد إجلال شاوسيكو كقائدهم المحبوب؛ فقد أتوا معًا لتذكر ماضيهم الأفضل، وهم غالبًا كبار في السن يشبهون العاملين المتقاعدين والجنود القدامى والقرويين والموالين للحزب الشيوعي القديم، وأشخاص ربما استفادوا من النظام القديم، والذين أتى التغيير متأخرًا جدًا بالنسبة لهم وقد بدوا فقراء وضائعين في معاطفهم البالية وأحذيتهم الجلدية وقبعاتهم الفرو، وعلى الأقل كان لديهم شيء ليأكلوه في السابق وعلى الأقل كانت لدى أطفالهم عطلات مناسبة.

كانت الفترة الوحيدة التي يستطيعون تحديدها هي العصر الشيوعي، وربما لم ينادوا على شاوسيكو نفسه ولكنه ربما كان مجرد رمز لكل ما عرفوه وتذكروه، ومن بين الحشد ميزت أخا شاوسيكو فلورا وقد كان وزير الزراعة السابق – كان أقارب الديكتاتور معروفين، وقد كان من السهل التعرف عليه بسبب شبهه الواضح بنيكولاي، وبالنظر إلى فلورا يمكنك أن تحصل على صورة واقعية لنيكولاي العجوز، وقد سألته كيف يفسر ذلك التجمع حول المقبرة، هل هو احتفال؟ أم نوع من التظاهر؟ وأعطاني تفسيرًا ماركسيًا بسيطًا، ولكن ماذا تتوقع من عضو في عشيرة شاوسيكو أقل من ذلك

"إذا كان الاقتصاد أفضل من ذلك لن تكون هناك حاجة لبعثه إلى الحياة، ولكنه كلما يزداد سوءًا تزداد حاجة الناس لإعادة أخي إلى الحياة." صحيح فسقوط الشيوعية لم يجلب سوى الفقر على الأشخاص الذين في المقبرة وللعديد غيرهم، وقد عملوا طوال حياتهم قليلاً وكسبوا مالاً يكفيهم للعيش بالكاد ولكنهم كانوا يشعرون بالأمان وقد علموهم أن يصدقوا أن نظام شاوسيكو سوف يكون أبديًا وقد تعاونوا مع النظام ليحصدوا مميزاتهم الصغيرة من ذلك، فقد خدعوا وسرقوا ملكية الدولة، وكان كلٌ منهم جزءًا من كتلة مطيعة وخائفة في دولة كانت نوعًا من مستعمرة عقوبات.

وبعدها انتهى كل شيء، كان التغيير غير متوقع على الإطلاق ومفاجئًا تمامًا ولم يكونوا قادرين على التوافق معه ولن يكون كامل جيلهم، الأشخاص فوق الخمسين، قادرًا على ذلك سوف تبقى لديهم المرارة والحزن ولن يفهموا يومًا أي شيء عن السياسة ولا عن الديموقراطية، فهؤلاء الأشخاص الذين يفضلون كون شاوسيكو حيًا والذين يفضلون النظام السابق لأنهم عرفوا كيف يتوافقون معه وكيف يتعاملون معه يومًا بيوم حتى إذا كان سعر ذلك هو العبودية هم الخاسرون الحقيقيون اليوم، والكلمة الوحيدة التي تلخص حياتهم هي التواطؤ، وهناك العديد منهم وهو ما يعد كثيرًا جدًا ليدع هذه الدولة تتقدم للأمام بسرعة، فهناك على مقبرة شاوسيكو شعرت بالأسف عليهم فكم يكون الأمر صعبًا حين لا تجد مكانًا تحج إليه سوى قبر شاوسيكو.

سمعت أن نيكولاي وزوجته إلينا دفنا معًا وقد شرح أحدهم لي أنه لا يوجد من يعرف بالضبط مكان دفنها لأن الجثث تم إحضارها إلى المقبرة في منتصف الليل وكانت عملية سرية للغاية، وربما تم الحفر لكل منهما ووضعهما في مكان آخر فيما بعد، وهكذا فهؤلاء الناس لن يجتمعوا حول قبريهما إذا أخذوا ثأرهما أو خرجوا من الحنين للوطن، ولا أحد يستطيع التأكيد أن نيكولاي شاوسيكو مدفون بالفعل في المقبرة التي تحمل اسمه ولكن يبدو واضحًا أن مجرد احتمالية كونه يرقد هنا كانت كافية لإحضار الناس في ذلك اليوم.

قضية قبر إلينا هي موضوع مختلف، فعندما سألت إذا ما كان أحد يعرف مكان قبرها أشار رجل بثقة شديدة إلى قبر دون اسم يبعد ١٥ متر، وذهبت هناك ووقفت لفترة أتساءل عما إذا كان قبرها بالفعل وكيف عرف الرجل ذلك بكل هذه الثقة، والإجابة الوحيدة المحتملة هي أنه عرف ذلك لأنه كان رجل شرطة، ولكن إذا كان ذلك

صحيحًا فلماذا أخبرني بمكانها؟ هل هذا سر ما أو أن الناس لا يهتمون بمكان قبر زوجة شاوسيكو؟ أقل ما يقال أن إلينا لم تكن محبوبة جدًا.

كان القبر محاطًا بسياج حديدي ولم يكن عليه أية علامة أو اسم أو صليب أو زهور – لا شيء على الإطلاق سوى طين متجمد مثل كعكة طين موضوع عليه، لا، لم يحب الرومان إلينا فهي بالنسبة لهم كانت شرًا لا بد منه، ساحرة وكانت السلطة اللئيمة المحركة وراء زوجها، وهي ديكتاتورة حقيقية ما زال الدم يلطخ يديها،

وكان هناك حكايات لا تعد عن قسوتها وسلوكها الساخر وقصص عن تجسسها على أطفالها خاصة بنتها زوي (بوضوح، طلبت الأم تركيب كاميرا في حجرة نومها) وأيضًا كونها زوجة الديكتاتور وثاني أكثر الأشخاص قوة في البلاد، كما كانت إلينا عالمة طموحة متخصصة في الكيمياء مع عشرات الألقاب الممنوحة لها وأوسمة وأنواط الشرف، وعقب إعدامها مع زوجها كانت الصحف الرومانية مليئة بالمقالات التي تسخر من إنجازاتها، على سبيل المثال طريقتها في علاج الآنفلونزا بالمياه المغلية، وحتى تتأكد من أن طريقتها نجحت قيل أنها ذهبت لملجأ وأخذت طفلاً مصابًا ووضعته في المياه المغلية، وبالطبع تم علاج الآنفلونزا ولكن المريض لم يبق على قيد الحياة، وبالطبع هذه قصة صعبة التصديق، ولكنها تعكس الصورة التي يحملها الناس لإلينا فهي ليست قاسية للغاية فقط، ولكنها أيضًا كان لها سلطات تتجاوز أي نوع من المسئولية، وسيدة حقيقية للموت والحياة ولا عجب إذًا مع رأي الرومانيين هذا ألا يهتموا بمكان دفنها.

لكني بينما كنت أقف على قبرها حدث شيء غريب خرج رجل ممتلئ الجسم يرتدي ثياب عمل زرقاء مما يبدو أنها غرفة الموتى وقد كان يحمل صليبًا خشبيًا كبيرًا وجديدًا أخذه إلى القبر الذي قيل لي أنه قبر إلينا، وبدأ في عمل حفرة وهو يلقي في نفس الوقت خطابًا من نوع ما، ولم يكن الحفر سهلاً لأن الأرض كانت متجمدة وصلبة مما اضطر الرجل للعمل بكد للقيام بالحفرة، ولكن ذلك لم يجعله يقطع كلماته، ومع إدراك الناس حول قبر شاوسيكو أن هناك شيء يحدث أتوا واحتشدوا وسرعان ما أصبح هناك حشد حول مقبرة مجهولة رسميًا بينما استمر الرجل ذو الثياب الزرقاء في الحفر ببطء مع عبارات طويلة غير متصلة عن الفقر وفئات الاختيار والسلطة، وقد كان يحفر حفرة عميقة الآن، وبدا لي أنه لا يخشى من إصابة الكفن فجأة، وحتى إذا لم يعط خطابه هذا الآنطباع وقف الناس هناك، في صمت هذه المرة، كما لو أنهم تم سحرهم بهذه الحركات الإيقاعية ليديه والصوت الباهت للمجرفة وهي تصطدم بالأرض

وبدا كما لو أنه كان يحاول استخراج شيء ربما يظهر شبح صار في طي النسيان من الحفرة في أية لحظة.

كان الناس حولي مفتونين بوضوح بحقيقة أنه أمام أعينهم تم وضع رمز ما أخيرًا على قبر إلينا، وهي علامة احتفظت بها ، صليب، وسألتني امرأة تقف بجانبي عما إذا كان معي قلم وقد أعطيته لها، ومشت بشجاعة إلى الصليب وبدأت في كتابة اسم الينا عليه وقد أخطأت في هجائه واضطرت إلى تصحيح الخطأ وبمرور الوقت انتهت من الكتابة وبدت الكتابة غير مرتبة وغير ملائمة، كما لو أنه قد كتبها شخص ذو تعليم قليل، ولكنها كانت هناك على الأقل وفي هذه الأثناء ارتفع صوت من يحفر القبر أكثر وأكثر واحمر وجهه من الآنسجام، وأخبرني أحدهم أنه كان مخمورًا وأخيرًا نجح في وضع الصليب، وسارت همهمة إثارة بين الناس كالريح بينما اقترب بضعة نساء من الصليب ووضعوا الزهور تحته ولم أستطع إبعاد الشك عني في أنهم أخذوهم من قبر بالجوار.

كان المشهد ككل مثيرًا للتعاطف ومحركًا في نفس الوقت، فقد كان هناك رومانيون عاديون يمنحون اسمًا لقبر مجهول لالينا شاوسيكو، وهو الاسم الذي أنكره رجال السلطة الجدد وحتى إذا كانت الزوجة المكروهة للديكتاتور فهي ما زالت نفسًا بشرية تستحق قبرًا عليه اسمها.

كانت شمس منتصف النهار شاحبة وباردة ولم يبد أن ذلك يهم أحد بينما وقفوا هناك في صمت وبعدها غادر الناس ببطء.

لم أستطع التوقف عن التساؤل عن كيفية وصول الصليب على قبر إلينا في ذلك اليوم بالتحديد وفي هذه اللحظة بالتحديد، وإذا كان فعلاً مقصودًا لها فلماذا لم يكن اسمها مكتوبا عليه؟ لم أتوقع إجابات لهذه الأسئلة ولكن عندما انفض الحشد حول القبر أخبرني مراسل محلي (أو هكذا قدم نفسه إلي) أن هذا لم يكن قبر إلينا والصليب لم يكن مقصودًا لها، ولكن لشخص آخر كان سيدفن في وقت لاحق عصر ذلك اليوم، وقد تم القيام بهذا الإحياء المرتجل لاسمها من قبل حافر قبور مخمور، ومهما تكن الحقيقة كان هذا الأداء المسرحي يتناسب إلى حد ما مع صورتي عن رومانيا اليوم.

obeikandl.com

... عن أسنان سيئة

في الطريق انضممت إلى الرأسمالية عبر معجون أسنان.
عندما زرت الولايات المتحدة لأول مرة في ١٩٩٣ أحببت مشاهدة الإعلانات في التلفاز، وعندها لاحظت أن الأمريكيين مهووسون بأسنانهم فهناك إعلان كل لحظة عن معجون أسنان، ومن حيث أتيت معجون الأسنان هو مجرد معجون أسنان، فأنا لا أصدق أن هناك هذا القدر من أنواع معجون الأسنان ، فلماذا كل هذا؟ بعد كل شيء الغرض من المعجون هو تنظيف أسنانك فقط، وفي طفولتي كان هناك نوعان أحدهما بنكهة النعناع والآخر بالفراولة، وكلاهما له نفس العلامة التجارية ألا وهي كولدونت، وقد كنت مقتنعة لفترة طويلة أن كولدونت هي الكلمة المرادفة لمعجون الأسنان حيث لم يكن أحد في المنزل يستخدم الكلمة الفعلية فلم نكن نقول "هل لديك معجون أسنان؟" ولكننا نقول "هل لديك كولدونت؟" وكان من المفاجئ لذلك ألا يكون هناك رد فعل لشخص كهذا عندما يواجه الصناعة الأمريكية الاستهلاكية (أو هل هي دوائية؟) وخط إنتاجها غير المنتهي، فهناك معجون أسنان بسكر أو بدون وبطحين أو بدون وبصودا الخبز أو بدون وبالكالسيوم والفيتامينات أو بدونها....
على مر السنين في الزيارات اللاحقة ما زلت مفتونة بهذا الهوس الأمريكي بمعجون الأسنان، ومن التنويعات الشائعة وصولاً إلى رمبراندت أكثر علامة تجارية انتفاخًا إذا كان هناك شيء كهذا في معجون الأسنان، وسرعان ما عرفت أنه قد يكون، ففي مجلة نسائية رأيت أنه ينصح به كهدية للكريسماس! ولا حاجة لقول أنه في كل إعلان للأسنان تلمع مجموعة من الأسنان الجميلة بشكل أخاذ خلال الشاشة، ولكن هذه الصورة ليست محصورة في بيع معجون أسنان فكما نعرف جميعًا أن الأسنان الجميلة تستخدم في الإعلان عن البيرة وشامبو الشعر والسيارات وأي شيء وبالفعل كانت ميزة لا يمكن

الاستغناء عنها في أي إعلان أمريكي، وسرعان ما يعرف الأجانب أنهم لا يرمزون فقط إلى المظهر الجيد والصحة الجيدة ولكن أيضًا إلى شيء آخر.

إذا كنت تعتقد أن هذا الإعلان قد يكون جزءًا من الهوس الأمريكي القومي بالصحة عمومًا فالصواب لا يجانبك بشكل كبير، فالأمريكيون يبدون عاطفيين نحو صحتهم ومظهرهم والتي تبدو صفات متبادلة، فالصحة والمظهر الجيد هي شارات ضرورية للحالة بين الطبقات المتوسطة ولا شيء سوى الآنانية يمكنك الرد به، ولكن الأمر أكثر من ذلك فهذا الاتصال بين الأسنان والحالة الاجتماعية ليس واضحًا كفاية للأوروبيين الشرقيين، وأنا شخصيًا لدي بعض الشكوك حول أسنان التلفاز هذه؛ فأنا أعتقد أنها بالتأكيد صناعية، نوع ما من الأعضاء الصناعية مصنوع من البلاستيك أو من البورسلين وهي جيدة كفاية لتبدو حقيقية فكيف يكون للناس مثل هذه الأسنان؟ وكوني مفتونة قررت أن ألقي نظرة جيدة حولي.

لاحظت أن الناس الذين التقيتهم ومعظمهم من أصحاب المهن الحضريين من الطبقة الوسطى يكون لديهم عادة مجموعة أسنان بيضاء لامعة ولكنها لا تبدو مثل تلك في التلفاز، وربما حتى الأكثر إدهاشًا لي أني لا أرى أي تسوس ولا أسنان مفقودة ولا شيء معيب، وكنت مندهشة ولكني عرفت السر حين أخذت صديقة لي ابنها إلى طبيب الأسنان وعندما عادا وجدت أن الأسنان العليا للطفل مثبتة بنوع قبيح الشكل من الكمامة الحديدية ، دعامة كما عرفت بعدها، وقد كان ذلك مؤلمًا له بوضوح فصحت "ياله من طفل صغير مسكين!" ولكن أمه لم تظهر أية رحمة بل علاوة على ذلك كانت فخورة بأنها استطاعت أن تقدم له جهاز التعذيب هذا، وكنت محتارة بالفعل عندما شرحت لي أن هذه الدعامة قيمتها بين ألفين وثلاثة آلاف دولار، وقد بدا لي تفكيرها شريرًا للغاية ثم اكتشفت أن لغز الأسنان الجميلة ليس صحيًا فقط فالأمر يتعلق بالمال أيضًا وقد كان لديها القدر الكافي من المال لتثبيت أسنان ابنها، وكان لدى الطفل الشجاعة الكافية لتحمل الألم لأنه استطاع أن يفهم بشكل ما أن هذا كان مطلوبًا من أجل حالته الاجتماعية وأن جميع الأولاد في مدرسته الخاصة كانوا يضعون مثل هذه الدعامة، وقد كان في طريقة للنمو وهو يدرك جيدًا حقيقة أن أسنانه الصحية الجميلة غالية؛ ولذلك فهي دليل على المكانة الاجتماعية وعلاوة على ذلك كانت أمه تعتمد عليه في تنظيفهم ثلاث مرات يوميًا بفرشاة أسنان كهربية وأحدث معجون أسنان ليحصل على أسنان أكثر صحة وجمالاً، إذا

كان ذلك ممكنًا وعلى المدى الطويل سوف تزول جميع الأشياء المزعجة.

وبالنظر في دعامة أسنان الطفل صارت العلاقة بين الصحة والثروة أكثر وضوحًا بالنسبة لي في خاصية الأسنان النظيفة الصحية بالقدر الموجود في الإعلان بسبب عدم وجود رعاية مجانية للأسنان في أمريكا، كما لا يتم تغطيتها بأي تأمين صحي، ولذلك إذا كنت تستثمر المال وتعلم طفلك في وقت مبكر كفاية (مع الحاجة لقليل من المعاناة) سوف يدخر الكثير بعد ذلك، ولكن كم المبلغ المطلوب لذلك؟ وحصلت على الإجابة عندما قمت بزيارة طبيب الأسنان وفي أحد زياراتي الأخيرة سقطت حشوة أسناني واضطررت لإعادة تركيبها ببعض الأشياء البيضاء المؤقتة مهما تكن ولكني اضطررت لدفع ١٠٠ دولار، وقد تكون هذه أزمة مالية صغيرة لأي مواطن شرق أوروبي اعتاد على الرعاية المجانية للأسنان في دولته، وقد كان الأمر مكلفًا حتى بالمعايير الأمريكية، ثم أصبحت بعدها على دراية تامة بما يعنيه عدم وجود رعاية مجانية للأسنان.

وكما يمكنك التوقع كنت غاضبة فكيف يكون من المحتمل لعمل في الأسنان أن يكون مكلفًا في هذه الدولة؟ بمبلغ ١٠٠ دولار وبعدما عدت للمنزل كانت سنتي مطلية بالذهب الخالص ! كيف لا تقوم بلد غنية مثل هذه بتقديم خدمات أساسية لمواطنيها مثل عمل الأسنان المجاني؟ وقد كانت هذه إحدى النقاط القليلة التي لنا فيها - نحن شعوب الدول الشيوعية السابقة- التميز على الأمريكيين ونحن نود في الاحتفاظ بها.

وفي طريقي للمنزل فكرت في أنه كم هي نعمة ألا نضطر للقلق حول أسناننا أو حول ما إذا كنا نستطيع تقديم العناية لها – أو على الأقل لم يكن علينا أن نقلق حتى الآن في بلادي على أية حال، وبالرغم من ذلك عقب وصولي إلى زغرب اكتشفت أني قد أسمح لنفسي بهذه الأفكار الوردية فقط طالما كنت في الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، حيث يبدو كل شيء في الوطن أقل وضوحًا من هناك، خاصة الحالة العامة لأسنان الناس، وعندما عدت للوطن تم إجباري على تعديل وجهة نظري، فقد كان الأمر كما لو كنت قصيرة النظر في السابق والآن ارتديت الزوج المناسب من النظارات واستطعت الرؤية بشكل مناسب في النهاية وما أراه لا يسعدني على الإطلاق.

في الحافلة من المطار التقيت أحد معارفي وهو مراسل تليفزيوني شاب، ومن الوهلة الأولى لاحظت أن نصف أسنانه كانت ضائعة وأنها بدت كما لو أنها بقايا مدينة بائدة من العصور الوسطى، وقد

عرفت هذا الشاب لسنوات ولكني لم أفكر يومًا في حالة داخل فمه في السابق، أو حتى إذا حدث فسوف أعتبر الأمر غير مهم على الإطلاق والآن فقط لاحظتها، وحتى يخفي أسنانه السيئة ربي شاربًا واخترع طريقة للضحك لا تتضمن فتح فمه بشكل كبير وبالرغم من ذلك ما زالت أسنانه السيئة واضحة.

لم يسعدني هذا اللقاء فقد كنت أجلس بجوار المراسل الشاب وأتساءل كيف خطط للحديث أمام كاميرا تليفزيونية دون القيام بخطأ قد يكشف ذلك السر الكبير، دون الابتسام ربما؟ وقد يكون هذا مقبولاً تمامًا لو كان يقدم تقريرًا عن الحرب، ولكن ألم تتعبه لعبة الاستغماية المتعبة هذه؟ ألن يكون الأمر أكثر احترافية ويجعل الحياة أسهل إذا قام بزيارة طبيب أسنان ويتخلص من كل ذلك؟ ولكن هذا شيء من المفترض ألا نتحدث عنه، وكيف تقول هذا الشيء إلى شخص إذا لم يكن صديقك الحميم؟ لا يمكنك فقط القول "اسمع، لماذا لم تقم بشيء حيال أسنانك؟" ربما أقوم بإخراج معجون الأسنان وتسليمه إليه أو الإسقاط سهوًا لاسم طبيب أسناني وشيء ما مثل صديقتي التي فعلت ذلك في الصيف الماضي، حين أصدرت امرأة تقف بجانبها في الترام رائحة كريهة من إبطها المشعر ولم تستطع صديقتي تحمل الأمر وقد أخرجت مزيل رائحة العرق من حقيبة يدها وأعطته للمرأة والشيء الطريف أن المرأة قبلته دون أخذ الأمر على محمل الإهانة ولم أستطع بدوري مهاجمة معرفتي.

واستمررت في التحقيقات في المنزل ، نعم أنا أعترف أني نظرت في أفواه أصدقائي وأقاربي ومعارفي وجيراني – ولم أستطع فعل شيء حيال ذلك، وقد اكتشفت أن الأمة كلها لديها أسنان سيئة، ولكني لم أستطع رؤية ذلك في السابق وقد استنتجت أن هذا الشخص في الحافلة كان جزءًا فقط من المشهد العام، ولم يكن استثناء قط ؛ ولذلك كان فشله في إصلاح أسنانه طبيعيًا تمامًا، وقد حاولت شرح وجهة النظر هذه لنفسي فربما كان الناس خائفين من الحفر؟ بالطبع ومن لا؟ ولكن لا شيء آخر ويجب أن يكون جهازا جميلا في كل بشري، أو ربما يعتقد المرء ذلك على الأقل، وبالرغم من ذلك ولسبب ما لا تمضي الجماليات والشيوعية بشكل جيد معًا بالرغم من أننا نسمي حالتنا الحالية بعد الشيوعية فما زال لدينا اتجاه شيوعي في هذه الأمور.

كما قد نناقش أيضًا أن أطباء الأسنان كونهم موظفين من قبل الدولة لا يتقاضون راتبًا جيدًا وبالتالي لا يمكن وضع مجهود كبير في وظيفتهم ويمكن الادعاء أن المواد التي يستخدمونها ليست ذات جودة كبيرة، ومن المحتمل أن يكون جميع ذلك صحيحًا، ولكني ما

زلت أعتقد أن إصلاح أسنانك إلى المعيار المتوسط مفضل لتعزيز أنقاض العصور الوسطى في فمك أو كونها بدون أسنان.

لم يكن هناك أي عذر يبدو معقولاً كفاية لهذا الإهمال والمشكلة أن حالة أسنانك تعد أمرًا شخصيًا تمامًا في أوروبا الشرقية وليس علامة على مستوى حياتك أو سؤالاً مطروحًا للمناقشة العامة، وامتلاك أسنان جيدة هو أمر كونك بكل بساطة متحضرًا وحسن السلوك، والغريب عن حق هو أنه بالرغم من ذلك لا يتم التعامل بهذا التسامح مع الحذاء المتسخ أو الأظافر المتسخة أو قشرة الرأس فهذه الأمور تعد غير مهذبة، وأحيانًا تهمة، ومع ذلك مثل هذه الأمور المتعلقة بالصحة الشخصية والأسنان الجيدة ليست فقط أمرًا متعلقًا بالمال، فقد كان عمل الأسنان مجانيًا لمدة الأربعين عام الأخيرة، وفي الوقت الحالي هناك مزيج بين العناية الطبية التي تديرها الدولة، والتي تشمل العناية بالأسنان وأطباء الأسنان المستقلين، و يمكنك إذا أردت ذلك أن تقوم بتلقي عمل أسنان ممتاز، وأنا أعرف أشخاصًا يسافرون من فيينا إلى براتيسلافا أو بودابست أو لجوبلاجانا أو زغرب لإصلاح أسنانهم بسعر أقل، ولكن إذا سألت الناس في أوروبا الشرقية عمن يستطيع تقديم سبب لعدم الذهاب إلى طبيب أسنان خاص من أجل خدمة أفضل فربما يخبرونك أن تلك ليست أولويتهم في الوقت الحالي، وبدلاً عن ذلك يريدون إصلاح سياراتهم أو شراء سجادة جديدة.

من الواضح أن القادة والمثقفين هنا لا يبالون مطلقًا بهذا الجانب الصغير من صورتهم؛ فهم مشغولون تمامًا بشعوبهم، وليس لديهم وقت لهذه الأمور التافهة وبالتأكيد الفكرة الأمريكية بأنه من غير المهذب لشخصية عامة أن تظهر بأسنان سيئة، كما ليس من المناسب أن تقوم بخطاب وأنت ترتدي بيجامتك ليست مفهومة هنا، فربما يمكنك لقاء سياسيين أو رجال أعمال في ملابس أنيقة ولكن انتظر فقط حتى يفتحون أفواههم! إذا كانت هذه الشخصيات العامة لا تبالي بهذا الجانب من مظهرها فلماذا يبالي الناس العاديون؟ هم أيضًا لديهم بعض الأشياء المهمة جدًا ليقوموا بها، على سبيل المثال البقاء على قيد الحياة، وهناك أيضًا الذرية الجديدة لفترة ما بعد الشيوعية، وفي السابق كان كل شيء يتم تقييمه من خلال مشاركة الشخص في السياسة والآن يحل محلها المال ولكن ببطء، ومن هنا تنشأ غطرسة الناس فلسوء الحظ لا يضمن المال الأخلاق الحسنة أو زيارة منتظمة إلى طبيب الأسنان لهذا الغرض.

يمكنني فقط محاولة تخيل الرعب الذي سنصبح فيه عندما يتم استبدال عمل الأسنان المجاني بأطباء أسنان مستقلين أسعارهم لا

يستطيع أحد تقديمها، فكم من السنوات يجب أن ننتظر حتى تبدو أسناننا مثل الأمريكيين؟ أنه سؤال إدراك؛ فحتى يحسن مظهرك عليك أن تقتنع أن الأمر يستحق بعض المجهود وبمعنى آخر نحن نتعامل مع مشكلة ثقة بالنفس، مع طريقة تفكير أكثر منه سؤال فائق للإدراك فالأسنان السيئة هي نتيجة أطباء أسنان سيئين وطعام سيء وكذلك أيضًا ثقافة تفكير محددة بعدم رؤية نفسك كفرد، فما نحتاجه هنا بالفعل هو ثورة على الإدراك الذاتي، ولن يأتي ذلك تلقائيًا مع التغييرات السياسية فقط، ولكني أخشى أيضًا أنه سيأخذ وقتًا أطول من أية تطويرات سياسية أو اقتصادية فنحن نحتاج لقبول مسئولياتنا تجاه الآخرين وتجاه أنفسنا، وهذا ليس فقط نوعًا حكيمًا من الاستثمار في المستقبل كما نرى في حالة الأمريكيين، ولكنه يمنحك أيضًا الشعور أنك قمت بفعل ما يمكنك فعله لتطوير نفسك سواء في أسنانك أو صحتك أو سيرتك المهنية أو تعليمك أو بيئتك أو المجتمع بشكل عام.

بالإضافة إلى المسئولية الشخصية التي تتضمن المسئولية عن أنفسنا بمفهوم جديد تمامًا، هنا كما بدأت عدة مرات في مكان آخر، وهذا هو السبب في أن الثورة على المفاهيم الشخصية أمامها طريق طويل لتسلكه، وبقدر ما يبدو المرء غريبًا في الماضي في أن يلقي المرء باللوم على الحزب الشيوعي حتى فيما يتعلق بأسنانه،، فالآن لا أحد هنا لتلومه، ولكن الأمر ما زال يتطلب وقتًا حتى يتم فهم ذلك، وإذا لم يكن لديك احترام للذات يومًا فيجب أن تتعلمها الآن، وربما تكون أسناننا مكانًا مناسبًا للبدء في ذلك.

ومع ذلك يمكنني رؤية إشارات للتغييرات القادمة، فمؤخرًا اقترضت صديقة لي بعض المال مني لإصلاح شقتها، وعندما أتي وقت رد المال أخبرتني أنني على أن أنتظر لأنها احتاجت المال لأمر عاجل جدًا؛ فقد قررت أخيرًا إصلاح أسنانها عند طبيب أسنان مستقل، ولا شك في أنها لم يبق لديها بنس واحد بعد ذلك، ولكن ماذا يمكنني القول عن ذلك؟ قلت الشيء الوحيد الذي أستطيع قوله: "أنا أفهمك فهذا يجب أن يأتي أولاً."

أخيرًا خمنت أنه من المنصف فقط أن أصرح بحالة أسناني، فأنا أحد هؤلاء الذين اعتادوا في الغالب على عمل الأسنان المجاني الذي تقدمه الدولة الشيوعية بكرم شديد لصالح شعبها، وأنا أخشى من أطباء الأسنان، حسنًا، ولكني أيضًا عندي الشجاعة الكافية لتحمل الأمر لأني تغلبت على الحاجز النفسي في سن مبكر.

فعندما كنت في الصف الثالث عرض لنا مدرس كارتونًا يصور حصنًا – سِنَّة – يهاجمه الأشرار – البكتيريا. وقدا بدوا خطرين جدًا

وهم يحفرون الآنفاق والقنوات بفؤوسهم الصغيرة حتى سقط الحصن في قبضتهم تقريبًا، ثم وصل جيش الأخيار – خلايا الدم البيضاء – وتم إنقاذه في اللحظة الأخيرة، وقد شرح لنا المدرس كيف يمكننا مكافحة الأشرار بتنظيف أسناننا بالفرشاة والكلودونت بانتظام وزيارة طبيب أسنان كل مرة نرى فيها تجويفًا صغيرًا أو نشعر بالألم، وقد أخذت نصيحته حرفيًا؛ فقد كنت متأثرة بوضوح بالكارتون كما أنا متأثرة بالإعلانات التليفزيونية الأمريكية، وبعدها بثلاثين عام وكانت النتيجة أني اليوم أستطيع أن أقول إن لدي أسنان جيدة بالرغم من أن ستة منها مفقودة فكيف حدث ذلك؟ حسنًا عندما كنت أرى تجويفًا صغيرًا كنت أذهب إلى الطبيب فورًا من تلقاء نفسي وقد كان هذا الخطأ الأول؛ فلم يكن يمكنك أن تختار طبيب أسنانك في هذا الوقت، وكانت عائلتي مضطرة للذهاب إلى مستشفى عسكري، وكان الطبيب هناك يقوم عادة بحشو التجويف، ولكن لسبب ما كانت الحشوة تسقط سريعًا ثم يقوم بتجويف أكبر ويقوم بحشوه مرة أخرى حتى لا يتبقى شيء من السنة.

وقد كان هؤلاء الأطباء في الحقيقة طلابًا شبابًا في طب الأسنان ملتحقين بالجيش، وبالنسبة لهم ربما تكون هذه فرصة رائعة لتحسين معرفتهم بالممارسة في المرضى وعندما ينتهون من التدريب يقترح طبيب ذو خبرة أن أقوم بخلع السن فماذا يمكنني أنا، الطفلة، سوى الموافقة؟ وقد كان هذا الخطأ الثاني بالطبع فقد اعتدت على الحياة بفراغ في فكي، ثم آخر ومن بعدها آخر وبعدها كان لدي مقومان أنشأهما طبيب أسنان مستقل وهو لم يسألني حتى لماذا لا يوجد ستة من أسناني؛ فقد كان يعلم ما كان يحدث في تلك الأيام، وكان عزائي الوحيد أني لم أكن مضطرة لأن أدفع كثيراً مقابل عمل المقوم.

ومثل أي شخص آخر في عالم ما بعد الشيوعية اضطررت لتعلم معنى المثل الأمريكي "ليس هناك شيء اسمه غداء مجاني." وبالفعل الأمريكيون على حق فلا يمكنك الحصول على شيء منجز بشكل لائق إذا لم تدفع مقابله عاجلاً أم آجلاً.

obeikandl.com

... كرواتي بين اليهود

لم يحذرني أحد مما كان ينتظرني في رحلتي الأولى إلى إسرائيل، لا أصدقائي اليهود ولا أصدقائي الكرواتيون ربما لم يكونوا يعرفون أو

ببساطة اعتقدوا أنني يجب أن أكون على علم بذلك أو ينبغي أن أتوقع سؤال يتبعني كظلي هناك: "هل تشعر بالذنب؟".

فبمجرد أن وصلت إلى تل أبيب اكتشفت أنهم لا يرون الكرواتيين كثيرًا ربما باستثناء رؤيتهم في السي إن إن حيث نظر ضابط شرطة إلى جواز سفري كما لو أنه لم يكن متأكدًا ماذا يفعل به ثم اعترف "هذا أول جواز سفر كرواتي أراه." وحتى مضيفي في معهد فان لير في القدس حيث كنت مدعوة لإلقاء محاضرة أخبروني أنهم لا يجدون سوى فرص قليلة جدًا للقاء كرواتيين في بلادهم، وهذا تفسير فني أن اسرائيل وكرواتيا لم يؤسسا بعد علاقات دبلوماسية، وقد كانت التجربة الأولى لي لما يعنيه فعليًا أنه عندما تضطر وزارة الخارجية الإسرائيلية إلى حث سفارتها في ستوكهولم على إصدار تأشيرة دخول لي، ويرجع ذلك إلى أن الحكومة الإسرائيلية تبني علاقتها بكرواتيا على ما يقارب ١٧,٠٠٠ يهودي (مع عشرات الآلاف من الصرب والغجر والشيوعيين الكرواتيين) الذين تم إبادتهم في مخيم التعبئة الكرواتي جاسينوفاك خلال الحرب العالمية الثانية، وعليه تعد كرواتيا المستقلة أحد الدول التي تحركها النازية في أوروبا في ذلك الوقت، ومن المحتمل أن يكون ذلك ما دفع إسرائيل على اتخاذ موقف مؤيد للصرب خلال الحرب الأخيرة في البلقان.

السبب الثاني لعدم زيارة الكرواتيين لإسرائيل كثيرًا قمت باكتشافه بنفسي، فقبل محاضرتي أخبرني الأستاذ الجامعي المهذب الذي قدمني للجمهور أنني يجب أن أكون مستعدة لأسئلة مؤيدة للصرب، وفي الواقع لم تكن الأسئلة التي قدمها الجمهور مؤيدة للصرب بشكل خاص، ولكنها لم تختلف كثيرًا بالتأكيد عن تلك التي كنت أتلقاها في إنجلترا أو السويد أو الولايات المتحدة؛ فقد سألوني عما إذا كان الألمان هم سبب الحرب باعترافها بكرواتيا مبكرًا جدًا، ولماذا انقلب الكرواتيون على المسلمين؟ وماذا فعل الكرواتيون في كراجينا بالفعل وجميعها تساؤلات معتادة، ولكن بعدها سمعت صوتا أنثويا يخرج من العتمة أمامي ليسألني "هل تشعرين بأي ندم؟ هل تشعرين بالذنب على ما فعله الكرواتيون في اليهود خلال الحرب؟"

توقفت الهمهمة بين الحضور على الفور وفجأة كان هناك صمت مطبق وشعرت أن الناس يحبسون أنفاسهم للحظة وأخذتني المفاجأة فقد كان صوتها يبدو صغيرًا جدًا، وفكرت بينما أفحص الجمهور والسائلة فهي لا يمكن بأية حال أن تتجاوز العشرين من عمرها، وربما تكون طالبة فماذا تعرف عن هذا الوقت وعن الهولوكوست والشعور بالذنب؟ ربما انتهت حياة جدتها أو جدها أو قريب آخر

كرفات أو عظام في أوروبا، وربما حتى في جاسينوفاك ولكن لماذا تسألني؟ فماذا يجب أن أفعل في الأحداث التي كانت تحدث بين عام ١٩٤١ و ١٩٤٥ قبل حتى أن أولد؟

طال الصمت كثيرًا قبل أن أقول في النهاية "نعم أنا آسفة جدًا على ما حدث." وقدمت بعض الاعتذار قائلة إن هذا من الممكن أن يحدث في أي مجتمع أو أمة، وإن قبضة المجرمين قد تصل إلى السلطة وتشين الدولة، كما أضفت "ولكني لا أستطيع القول إني أشعر شخصيًا بالندم على ذلك فقد ولدت بعد الحرب وكان أبي من مؤيدي تيتو ومضادًا للفاشية وعضوًا في حركة الكتلة المضادة للفاشية في نفس البلد الفاشية، كرواتيا، وعند مناقشة دور كرواتيا خلال الحرب ربما ينبغي ألا نغفل ذكر تلك الحركة أيضًا." كما أكدت أني لم أكن ممثلة للحكومة الكرواتية أو الشعب الكرواتي، ومهما يكن ما قلته فهو رأيي الشخصي فقط، وبعد أن أوضحت ذلك فأنا أعتقد أني استطعت التعامل مع هذا السؤال الخاص بالإحساس بالذنب.

في اليوم التالي كنت مدعوة مع بعض الصحفيين والدبلوماسيين إلى حفلة عشاء في منزل أحد الصحفيين وكنا قد انتهينا بالكاد من المقرر الأول عندما ظهر سؤال آخر صدمني، وبالنسبة لي بدا كما لو أن شخصًا ما ضرب قبضته في الطاولة ثم صرخ من الألم "ألم تكتفي من التخفي! أولاً سوف نرغب في الحصول على الإجابة! هل تشعرين بالذنب أم لا؟" ولسبب غريب ربما بسبب أني لم أكن في مناسبة عامة ولكن عشاء خاص صدمتني المفاجأة مرة أخرى ، بالله عليكم هل هذا الأمر المتعلق بالشعور بالذنب هو دائمًا أول رد فعل لليهودي عندما يلاقي كرواتيًا؟ وككرواتية في إسرائيل هل من المفترض أن أضرب صدري معترفة بالذنب وأعتذر عن شيء لم أقم به شخصيًا؟ أعدت ما قلته في الليلة السابقة ولكن بدا كما لو أن الناس حول الطاولة توقعوا مني أكثر من ذلك وأنا أتردد في استخدام الكلمة، ولكنهم كانوا يتوقعون شيئًا من الندم، ولكني قلت ببساطة إني ولدت بعد الحرب فلماذا أشعر بالذنب؟

بعدها في المساء علمت أن مضيفتنا بقت حية في أوشفيتز كفتاة شابة، وقد تم إنقاذ صديقتها من نفس المصير بواسطة عائلة ألمانية ولكن عائلتها انتهى بها الأمر في مخيم التعبئة، كما فقد ثلاثة أشخاص في حفلة العشاء غيرها أقاربهم في الهولوكوست؛ ولذلك في هذا المساء كنت أجلس هناك أواجه التاريخ بشكل مباشر، فهؤلاء الأشخاص الحقيقيون ومصائرهم الخاصة جعلوني أواجه - إذا لم يكن ذنبي- فعلى الأقل مشاركة شعبي في جريمة إبادة اليهود الأوروبيين،

وفي وجودهم كان دفاعي بحقيقة أني لم أولد عندما حدث كل ذلك غير قوي بشكل كاف.

خلال إقامتي في إسرائيل وفي حواراتي ولقاءاتي هناك كان ذكر الذنب الكرواتي يتشبث بي في كل مناسبة كشبح مظلم، وبخلاف ذلك عاجلاً أم آجلاً سيطرح اليهود اللطفاء هذا الموضوع، وكان الصحفيون هم الأسوأ: فقد بدا أنهم يفكرون في أن هذا هو المفتاح ليس، فقط لدولتي، ولكن لي أنا أيضًا فقد كان هناك صحفي من صحيفة معاريف مندهشًا من عدم شعوري بالذنب، وآخر من جيروسليم بوست حاول إقناعي أنه من الطبيعي جدًا لكل شخص أن يسألني هذا السؤال، ولكني لم أدرك بعد لماذا يعتقدون في ذنبي الشخصي، وذلك حتى سألني صحفي آخر من القدس الأسبوعية "هل هناك أية مناقشة عامة اليوم عن ذنب الشعب الكرواتي خلال الحرب؟" ولم أفهم أنا نفسي سبب كل ذلك.

أخيرًا فهمت أنه في مواجهة الضحايا وأقاربهم من الأسهل أن تدافع عن نفسك من منطق الماضي أفضل من الحاضر، وطالما يتعلق الأمر بالماضي يمكنني أن أظهر الندم ولكن الأصعب كان شرح ما كانت تفعله الحكومة والشعب الكرواتي اليوم للتعامل مع هذا الماضي؛ فقد بدا واضحًا أن الإسرائيليين كانوا على علم جيد، فقد عرفوا كتاب فرانجو تودجمان ومزاعمه التي تقلل عدد اليهود المعدمين في أوروبا، وقد كانوا يعرفون أن عضوًا في حكومة أنتي بافليك الفاشية هو الآن عضو في البرلمان الكرواتي، وأن الشوارع مسماة على أسماء هؤلاء الناس وأن الرأي العام الكرواتي صامت، وقد حاولت شرح أن الناس في كرواتيا ليس لديهم فرص كثيرة لعرض أراءهم في الصحف لعدم وجود الصحافة الحرة كثيرًا هناك، وعلاوة على ذلك ليس موضوع الدولة الجديدة في كرواتيا صحيحًا سياسيًا، والناس ما زالوا خائفين إلى حد ما من التعامل معه أيضًا، ولكن هناك مشكلة أكبر وهي حقيقة أن الحكومة غير قادرة على فصل نفسها بوضوح عن الجرائم التي ارتكبتها خلال عصر الدولة الفاشية، وبالفعل وفقًا للتفسير الرسمي بدا كما لو أن الأكثر أهمية كان الدولة المستقلة في ذلك الوقت من أنها كانت إنشاءً فاشيًا – حيث لم يكن ممكنًا فصل هذين العنصرين عن بعضهما.

وعندما أعادني سؤال مراسل شاب إلى الحاضر لم أكن قادرة على تجنب ذنبي أكثر من ذلك، فما أزعجني في السابق كان أن هذا الذنب كان عائقًا بشكل ما، ولكني اكتشفت الآن أني يجب أن أتعامل معه ليس كأمر تاريخي ولكن بصيغته الحالية، فكل مواطن كرواتي يتحمل مسئولية عن دعمه الصامت لأسلوب هذه الحكومة

نحو الهولوكوست، ولماذا يجب أن يتم إعفائي من هذه المسئولية ؟ ولماذا لا ينبغي أن يكون لليهود الحق في أخذ فرصة نادرة بتوجيه أسئلة مزعجة إلى كرواتية؟ فبالنسبة لي لم أكن شخصًا فقط ولكني مواطنة كرواتية أيضًا، ومهما يكن ما شعرت به تجاه ذلك ففي أعينهم كنت معروفة باتصالي بأمة مجرمة تاريخيًا، ولم يكن لي عذر في تجنب مواجهة هذا التاريخ شخصيًا.

هناك شيء آخر أزعجني فبقدر ما فاجأني سؤال اليهود لي عن ذنبي وذنب شعبي، وكنت متحيرة من دهشتي فلماذا أندهش دائمًا بهذا السؤال؟ ولماذا لا ألوم اليهود على النظر إلى الماضي كثيرًا؟ فهم يحاولون فرض شعور بالذنب على كل شخص، كما أقول لنفسي فاليهود جيدون جدًا في لوم الآخرين، ولكن انظر إلى ما يفعلونه بالفلسطينيين! بجانب ذلك، ليس فقط الكرواتيون ولكن أيضًا النمساويون والسلوفاكيون وحتى الفرنسيين الذين لم يمروا قط بأية عملية إزالة نازية جادة، وقد فكرت على أية حال في كيف يمكنهم معرفة معنى أن تكبر تحت الحكم الشيوعي؟

بالطبع لا يعرفون فالنشأة تحت الحكم الشيوعي تعني الحياة للأبد في الحاضر وبمجرد تأسيس النظام الاجتماعي المالي لا تكون هناك حاجة للنظر للخلف – أو للأمام بهذا الصدد ولم أفهم قط الجملة اللاتينية historia est magistra vitae (التاريخ هو معلم الحياة) فبالنسبة لنا ، لجيلي، لم يكن التاريخ بالتأكيد هو معلم الحياة.

ربما هذا سبب أننا الآن يحكم علينا، مع هذه الحرب، بالحياة في الماضي وفي بعض الأحيان أسأل نفسي عما إذا كانت هذه عقوبة لعدم اهتمامنا بالتاريخ أو لخوفنا أو صمتنا وعدم تحملنا المسئولية نحو أنفسنا أو حتى لجهلنا.

كان على زيارة إسرائيل لأفهم أن الماضي ليس فقط مشكلة يهودية، ولكنها مشكلتنا نحن أيضًا وكان علىّ الإجابة عن أسئلتهم المزعجة لاكتشاف أني يجب أن أحمل على عاتقي مسئولية الاتجاه الحالي للحكومة الكرواتية نحو الهولوكوست، والفاشية، وإعادة كتابة التاريخ، وفي النهاية شعرت بمسئوليتي الشخصية إذا لم أكن مذنبًا، وقد اضطررت لذلك أني كنت مقحمة أخلاقيًا في زاوية وأنا سعيدة أني كنت كذلك.

ربما الفارق بين الأمس واليوم يكمن في الأمل الذي لن يجعله التاريخ بعد الآن لعبة في أيادي القلة القوية، فعندما يواجه شخص سؤالاً عن المسئولية الشخصية لا يستطيع عرض التاريخ كسلسلة من الأفعال غير المفهومة لزعيم أو حكومة، وبالتالي يجب أن يفهم أن

الأمر يعتمد أيضًا على ما يقوله أو يفعله هو نفسه، وفي كرواتيا ما بعد الشيوعية ليس لدينا عذر جيد عن صمتنا بعد

obeikandl.com

... خطيئة أبي

لم يكن أبي شخصًا ذا أهمية، فقد كان أحد الفقراء الملاعين الذين شقوا طريقهم مع الجيش المؤيد لتيتو خلال الحرب العالمية الثانية، وبعدها التحق بالحزب الشيوعي في يوغوسلافيا وأصبح ضابطًا في الجيش حتى تقاعد في ١٩٦٦، ولم تكن بحياته الكثير من الأحداث وهو الآن في عداد الأموات حيث أدركته المنية في نوفمبر ١٩٨٩ قبل سقوط عالمه وأفكاره التي قاتل من أجلها بفترة وجيزة، والتي ربما أدت إلى وفاته على أية حال، وبالرغم من أنه لم يكن شخصية مهمة في قائمة الاختيار الشيوعية، ولكنه كان في عيني مذنبًا بجريمة الآنتهازية والتعاون الضمني مع نظام قمعي وقبل كل ذلك بجريمة الصمت.

ولكن كان هذا حال ٢٠ مليون شخص في يوغوسلافيا السابقة و٥ مليون شخص في كرواتيا في هذا الصدد.

ولد أبي في ١٩٢٢ ولدي فقط صورتان له تم التقاطهما قبل الحرب ، إحداهما- وربما تعد أول صورة له على الأطلاق- يبدو فيها طفلاً في الخامسة مع أخيه الأكبر وأمه، والثانية لا بد أنه قد تم التقاطها حين كان يناهز الخامسة عشرة في فرح أحد الأقرباء، وقد كان يرتدي حلة، وكانت أكمام السترة قصيرة جدًا، وأستطيع التخمين أنه أقترضها من صديق من أجل تلك المناسبة، وهاتان الصورتان تتحدثان نفس اللغة بالنسبة لي، لغة الفقر، فقد كان والد أبي بناءً من مدينة صغيرة بالقرب من ريجيكا وقد توفى قبل أن يبلغ الأربعين من العمر، وكانت والدته تعمل في مصنع وتبيع الخضروات التي تزرعها في قطعة الأرض الصغيرة التي تملكها في السوق ومع ذلك كان أبي طفلاً مدللاً؛ حيث كان يأكل جميع الطعام في المنزل ويبلي حذاء جديدًا في أسبوع، ويلعب كرة القدم وكان حلمه أن يكون لديه دراجة خاصة به، وقد

أجبر والدته فعليًا على شراء واحدة له حتى إذا كانت قد اقترضت المال لشرائها، وقد أصبح أبي نجارًا ولكنه لم يحب هذه المهنة؛ فقد كانت الحياة في مكان آخر في وسط المدينة حيث المنازل الرائعة والسيارات الجميلة والأحذية الجيدة والبذلات الأنيقة.

في ١٩٤١، عندما انتهت الحرب انضم أخوه إلى "جيش الشعب" وبعدها بفترة ليست بالطويلة دخل أبي هو أيضًا، وأنا أشك في أنه كان يعرف سبب ذلك بالضبط، فيمكنك القول أنه فضل الآنضمام للجيش المؤيد للدفاع عن أرضه ضد الفاشيين الألمان والإيطاليين عن دخوله في جيش فاش لدولة كرواتيا المستقلة تحت قيادة أنتي بافيليتش، وبالطبع بعدها زعم أن هذه كانت القضية بالضبط، لأنه وقتها كان ما ينبغي أن يقال، ولكن من الصعب معرفة إذا ما كان فعل ذلك بدافع الوطنية والأيديولوجية أم كان الأمر فقط مجرد مصادفة، وربما يكون فعل ذلك لأن أخيه ورفاقه انضموا لتيتو وليس للجانب الآخر، وسواء كان الأمر مصادفة أم لا فقد حدد كامل حياته.

وأنا لا أعرف سوى القليل جدًا عن هذا الجزء من حياته، واليوم أعتقد أني لا أعرف سوى القليل جدًا عن حياته بشكل عام؛ فأنا لم أسأل؛ فقد ولدت في ١٩٤٩ وكل شيء قبل ذلك التاريخ بدا كأنه ينتمي لتاريخ سابق ليس لحياتي أية علاقة به، والقليل الذي أعرفه عرفته من أمه التي تبعت أبناءها وقامت بالطبخ للجيش المؤيد، وأنا أعرف أنه أصبح مفوضًا سياسيًا مسئولاً عن الأمور الأيديولوجية، وأنه ذات مرة هرب من الإعدام على أيدي رفاقه لأنه سرق قطعة من الجبن من منزل فلاح، وأنه عانى من حمى التيفود في مسيرة طويلة تجمد فيها معظم رفقاء سلاحه حتى الموت.

والصورة الأولى له بعد الحرب والتي تم التقاطها في ١٩٤٥ تظهر شابًا واثقًا من نفسه يرتدي زيًا رسميًا مهترئًا وبعدها كان مسار حياته مزيجًا بين الأيديولوجية، والفقر، والآنتهازية، وهي تقريبًا نفس التركيبة التي حكمت حياة معظم الناس في يوغوسلافيا في ذلك الوقت، وفي بعض الحالات كان هناك أيديولوجية أقل من الآنتهازية والعكس في البعض الآخر ولكن كانت النتيجة متشابهة كثيرًا مع الجميع: نوع الحياة التي نحياها في عمر الخامسة والأربعين وخلال الحرب أصبح أبي عضوًا في الحزب الشيوعي ولم يكن يرغب في العودة إلى مهنة النجارة، ولذلك قبل الفرصة المعروضة للبقاء في الجيش كضابط ودرس بأكاديمية الجيش وتزوج وبدأ بناء عائلة.

على قدر ذاكرتي كنا نعيش في شقة من غرفتين في سينغ، حيث كان أبي مسئولاً في مراكز الجيش في أوائل الخمسينات، وليس هناك أية صورة أخرى له تذكرني بهذه السنوات: احتفال السنة الجديدة

والذي يجب أن يكون احتفال عام ١٩٥٣ أو ١٩٥٤ وقد كان يجلس على طاولة مع رفاقه بالزي الرسمي مرة أخرى، ولكن هذه المرة في زي مصمم جيدًا وأكثر أناقة، وأنا أذكر تلك الصورة الأبيض والأسود لسبب واحد: هذه الطاولة مع ما بدا أنه كميات من الطعام عليها مع الكعك والفواكه كما أنها كانت أول مرة أرى فيها برتقالة – هناك في منتصف الطاولة مقشرة ومقطعة وعندما أحضر الصورة إلى المنزل سألته ما هذا فأجابني أنها برتقالة فرددت برتقالة وأنا أحاول تسجيل اسم الفاكهة الغامضة التي أصبحت في هذه اللحظة رمزًا للثروة بالنسبة لي، ولكن الكلمة نفسها لم تعني لي الكثير حتى قمت بعدها بوقت طويل بتذوق تلك الفاكهة الغريبة حلوة الرائحة المتصلة بتلك الصورة لأبي إلى الأبد.

وقد اشترينا أول مسجل صوت خاص بنا في ١٩٦٣ وقد كانت هدية عيد مولد من أمي وأول تلفاز أبيض وأسود بعدها بعامين ومن ثم أول سيارة وكانت فولكس فاجن (رابيت) مستعملة، وفي أوائل السبعينات بدأ والدي في بناء منزل عطلات ولكن بمضي الوقت أصبح أبي في صحة سيئة ويزداد إحباطًا من أن مجتمعنا لم يكن يعمل كما ينبغي فقد كان أحد هؤلاء الذين آمنوا بالنظام نفسه، ولم يكن يعمل فقط لأن الناس الخطأ كانوا في الأماكن الخطأ ويقومون بالأشياء الخطأ، ولكني قررت بالفعل أن حياتي ليس لها علاقة بحياة أبي وآرائه ولا حتى بماضيه فأنا لم أكن شيوعية بل على النقيض أصبحت مضادة للشيوعية بسببه، فقد كان أبي رجلاً سلطويًا، وفي سن السادسة عشرة رفضت نظام القيم الخاص به ومعتقداته بالكامل ومعها سلطته وهربت من المنزل ولكنه لم يسامحني يومًا على هذا؛ ولذلك لم يكن لدينا فرص كبيرة للحديث قبل أن يقضي نحبه.

لقد كنت غبية وعنيدة وندمت على ذلك اليوم، خاصة عندما قمت بزيارة قبره؛ فقد كان مدفونًا في مقبرة صغيرة في جزيرة في البحر الأدرياتيكي، وعندما جلست هناك أنظر إلى الخليج الجميل شعرت أحيانًا أنه كان يتوجب عليه إعطائي الفرصة للحديث معه عن الأمور الهامة عن الماضي، ولكن في حالتي أصبحت هذه الأسئلة مهمة فقط عقب انتهاء الحرب في كرواتيا في ١٩٩٢ ووقتها كان والدي ميتًا منذ فترة طويلة.

عندما زرت قبره شعرت بالحزن وأيضًا الغضب في نفس الوقت، وعلى شاهد القبر تحت اسمه كانت هناك نجمة منقوشة، فقد استأجرت أمي نحاتًا ليضعها هناك، وبعد كل شيء كان أبي شيوعيًا وخصمًا للفاشية، وكانت هذه النجمة جزءًا من حياته، ولكني سرعان

ما لاحظت أن أمي كانت تغطيها بإكليل من الورود، وفي البداية اعتقدت أن هذا محض مصادفة، ولكن ذات مرة ونحن نزور القبر معًا قمت بإزالة الإكليل لأن الورود قد ذبلت فقامت بوضعها مرة أخرى دون أن تنطق بكلمة واحدة، وعندها فقط فهمت فقد كانت الصحف مليئة بقصص عن بقايا الموالين المزالة وعن أسماء الشوارع التي تغيرت وعن الأشخاص الذين ينكرون ماضيهم الشيوعي، كما أن بعض القبور قد هدمت بالفعل للأشخاص المدانين من الدوائر العسكرية، وكانت هناك تهديدات لأرامل ضباط جيش يوجوسلاف الفيدرالي السابقين، كما كان التطهير الأيديولوجي الكبير للماضي يمضي في طريقه؛ ففي القاموس الجديد ل "التصحيح السياسي" لم يكن العصر الشيوعي الجديد سوى "الديكتاتورية الدموية" أو "مخيم التعبئة" وعلى أقل تقدير فترة مظلمة من التاريخ وكانت الرسالة واضحة : أي شخص لديه أي شيء ليفعله فمن الأفضل أن يخفي اتصالاته وكانت أمي خائفه أن يتم تدنيس قبر أبي، فقد كان شاهد قبره هو الوحيد في المقبرة الذي يحمل نجمة بدلاً من الصليب فماذا يمكننا أن تفعل سوى تغطيتها؟

لقد كنت مغتاظة فأنا أعتقد أن مظهرها كان مثيرًا للشفقة؛ لأن كل شخص في القرية الصغيرة كان يعرف أن النجمة هناك؛ ولذلك لم يكن هناك أي سبب وجيه لإخفائها، ومع ذلك أستطيع تفهم الأمر وتفهم خوفه من المناخ السياسي الجديد، ولكني إعتراني شعور من الغضب الشديد: وأنا أقف على القبر يمكنني رؤية أن شخصًا ما كان يسرق الماضي من أبي ومني ومنا جميعًا، وكنا فقط نسمح بحدوث هذا، والأكثر من ذلك أننا كنا نتعاون معه دون قصد في هذه السرقة حتى نغطي آثار الماضي القريب من حياتنا فقد قمنا بأنهاء ذكرياتنا وإغلاق أعيننا وكذلك أفواهنا كما تعاونا مع القوى السياسية الجديدة لنجعل الأمر أكثر سهولة لهم في إعادة كتابة التاريخ كما يرضيهم وتزييفه، وفي النهاية إزالته وقد أعتقدنا أننا نستطيع تغيير لون بشرتنا مثل الحرباء.

أنا أعرف من أين أتى غضبي، فقد أتى من حقيقة أنني لم أستطع المساعدة سوى بتعريف تصرف أمي بما يجري في مجتمعنا اليوم، وكان عليها فعله ليس فقط مع النجمة الحمراء أو الشيوعية، ولكن أيضًا وبشكل أكثر أهمية مع الطريقة التي نتعلق بها بماضينا، فلم يكن أبي يستحق أن يتم تغطية النجمة على قبره ولا كانت أمي تستحق الخوف الذي تشعر به في الدولة الكرواتية الجديدة، وهذا لا ينبع فقط من كونه أبي ومن أني أهتم به، ولكن لأنه عاش حياته بشكل لا يختلف عن معظم الآخرين يشاركهم نفس الأيديولوجية

ويستفيد منها بنفس الطريقة، وإذا كانت حياته سوف يتم إنكارها فيجب أن يقبلوا أيضًا إنكار ماضيهم باسم الواقع السياسي الجديد الذي يجب أن يكون بالنسبة لهم عملية أكثر صعوبة وتدميرًا حيث أنهم ما زالوا على قيد الحياة.

علاوة على ذلك ينبغي ألا ينسى أن أبي، مع مئات الألاف من الأشخاص، كان جزءًا من الحركة المضادة للفاشية التي قررت مستقبل أوروبا في الحرب العالمية الثانية ووضعت كرواتيا في الجانب الرابح والنجمة تحت اسمه ترمز لذلك أيضًا.

ولكن بسبب مشاركة أبي في إنشاء النظام الشيوعي في يوغوسلافيا، وحياته الآن تختفي مع النظام السياسي نفسه وأنت لا تحتاج أبدًا أن تكون شيوعيًا لتشعر بذلك الظلم الواقع ليس فقط على أبي والأشخاص مثله، ولكن على بقيتنا أيضًا، فإذا تذكرنا فقط الجانب السيء من الحياة في يوغوسلافيا خلال السنوات الخمس والأربعين الأخيرة وربما ينبغي علينا أن نتحلى بالشجاعة لتذكر أشياء مثل مستوى المعيشة الأعلى كثيرًا والحرية الأكبر الذين تمتعنا بهما أكثر من بقية الدول الشيوعية، فقد كان لدينا ثلاجات وغسالات بينما لم يكن لدى الآخرين، وكان يمكننا السفر للخارج ورؤية الأفلام الأمريكية وشراء ثوب تخرج من ميلان، أو قضاء عطلات الصيف في اليونان أو إسبانيا ، نعم أنا أعرف أنها في الأساس مقارنة بين سجنين، ولكن راحة سجنك تشكل فارقًا كبيرًا عندما تكون مسجونًا واليوم لا أحد يستطيع إخباري أنها لم تشكل فارقًا على الإطلاق أو أن يوغوسلافيا تحت حكم تيتو كانت نفس الدولة الاستبدادية كبقية الدول في اللاجر فهذا الشخص ليس لديه أدنى فكرة بالتأكيد عما يقوله.

ما زال واحدًا من أكثر الميادين جمالاً في زغرب يحمل اسم تيتو وأنا أقول ما زال لأنها سوف تكون فقط مسألة وقت قبل أن يقوموا بتغييره، فمنذ بضعة سنوات قامت لجنة تغيير أسماء الشوارع باقتراح أن يتم تغييره إلى أنتي بافيليتش، ولكن شخصًا ما ذا مكانة عالية في مجلس المدينة أو ربما أعلى قرر أنه سيكون رد اعتبار علنيًا لأحد القادة الفاشيين للدولة التابعة للنازية من ١٩٤١ إلى ١٩٤٥ وفي الغالب كان ذلك سيضر بصورة الدولة الجديدة التي كان لا يمكنها معاداة حلفاءها، وعليه تم تأجيل التغيير إلى أوقات أفضل وعندما يفقد تيتو ميدأنه الرائع ربما يحصل على ميدان أصغر، ولم يعرف بعد الإسم المقرر لميدأنه الجديد، وفي هذه الأثناء مع ذلك كانت هناك عملية تأكيد أكثر ذكاءً لفترة الفاشية تجري دون مقاطعة والتي - لتعقيد الأمور أكثر- تتزامن مع تأسيس أول دولة كرواتية مستقلة.

ما زال هناك أكثر لهذا التطهير من تدمير وتحطيم وإزالة آثار الشيوعيين والمضادين للفاشية أكثر من إزالة اللوحات التذكارية من المباني ومن على الحوائط فهناك أيضًا احتفال العاشر من أبريل، بالرغم من كونه غير رسمي، وهو اليوم الذي شهد مولد الدولة الفاشية وتسمية الشوارع والمدارس على اسم مايل بوداك الذي كان كاتبًا ولكنه كان أيضًا وزير الثقافة والتعليم في حكومة بافيليتش الذي وقع شخصيًا على القوانين العنصرية المضادة لليهود، كما أن هناك تسمية لواءات الجيش الكرواتي على أسماء مجرمي حرب أوستاشي، والكتابة على الجدران في سبليت التي تقول "الموت لليهود" والتي بقت هناك لمدة عام، كما أن هناك ذاك الطوفان من كتب التاريخ التي تقول الحقيقة عن الدور البطولي لانتي بافيليتش وتسمية العملة الجديدة التي تسمى الآن كونا كما كانت في أيام الدولة الفاشية، والقائمة لا تنتهي.

ليس لدي أدنى شك أنه إذا استمرت الأمور بهذه الطريقة فسوف يكون لبافيليتش ميدان عاجلاً وليس آجلاً، وقد ذكر في مقدمة الدستور الجديد ضمنيًا أن الجمهورية الكرواتية المستقلة الجديدة مؤسسة على تقاليد الحركة المضادة للفاشية، وبالرغم من كونه مضادًا للفاشية وشيوعيًا فإن كل ما يقدمه رئيسنا لهذه التقاليد مجرد كلمات وحتى ذلك يحدث عندما يكون مضطرًا لفعله، فكيف يمكننا أن نصدق ما يقوله عن أهمية معارضة الفاشية عندما يجلس فينكو بيكوليتش، مسئول رسمي سابق رفيع المستوى في الدولة الفاشية الكرواتية، في البرلمان من أجل تهنئة شعبية بعيد مولده من قبل الرئيس؟

بالطبع كان لتيتو العديد جدًا من الشوارع والميادين والمدارس والكباري وحتى القرى التي تحمل اسمه، ناهيك عن جميع هذه الصور المعلقة في كل مكتب وكل فصل، وفي الصورة التي كانت لدينا خلال أيامي في الصف الأول كان يرتدي زيًا رسميًا أبيض، وقد كان بالتأكيد أكبر من الصورة؛ لأن جميع الألوان كانت مرسومة باليد وقد قام المصور المجهول بجهد كبير في رسم وجنتيه ليصبحا ورديتين تمامًا وعينيه زرقاء جدًا وشفتيه حمراوين والتي جعلته يبدو سرياليًا مثل مخنث، والآن صورة الرئيس تودجمان معلقة في نفس الأماكن بالضبط ولكن من المريح أن تعرف أنه على الأقل تم انتخابه، وقد فقد تيتو جميع صوره وميادينه وشوارعه، وسرعان ما سيمضي إلى طي النسيان، ولكن حتى الآن ما زال يعود ليزعجنا كشبح لا يهدأ.

في ١٩٩٤ قرأت في الصحيفة الكرواتية "خطابًا مفتوحًا إلى الشعب الكرواتي" من حزب اليمين والذي يعتبر أقصى اليمين في الطيف

السياسي الكرواتي، والخطاب يعترض على تسمية ميدان آخر في زغرب على اسم تيتو على أساس "جرائم الدماء والدموع ومعاناة الشعب الكرواتي" وتبعه قائمة من الاتهامات ضد تيتو من تزوير التاريخ إلى قتل القساوسة والإبادة الجماعية للشعب الكرواتي لمصلحة الصرب، وينتهي الخطاب إلى أنه ليس لدى الشعب الكرواتي أي سبب في التكريم الشعبي لجوسيف بروز تيتو وأتباعه الذي "مارس نوعا من الإرهاب لمدة خمسة وأربعين عامًا لم تره كرواتيا طوال تاريخها" وهؤلاء الذين يجرؤون على اقتراح أن يمنح اسمه لميدان آخر في زغرب هم أعداء لاستقلال الدولة الكرواتية الجديدة وهم البلاشفة الذين يسمون أنفسهم المضادين للفاشية وهذا التكريم الشعبي ينبغي أن يمنح لهؤلاء الذين قدموا أنفسهم للنضال من أجل "رفاهية الشعب (الكرواتي) خاصة في النضال من أجل البقاء والحرية واستقلال الدولة".

ولسوء الحظ في هذا الجزء من العالم يعتمد الأمر برمته على التفسير المتعسف جدًا لرفاهية أمة ما أو رفاهية الدولة، وأنا أخشى أنه في معظم الحالات يكون هذا التفسير عادة نتيجة للالتواءات السياسية والأيديولوجية الأخيرة، وليس للرؤية الهادئة العقلانية لتاريخنا والمزايا الحقيقية لهذا الشخص أو ذاك، وبالطبع خطاب الاعتراض هذا من حزب أقصى اليمين هو متوقع فقط، وأنا لا أراه كسبب للإنذار ولكن ما يجعل الأمر ذا مغزى هو أن الحكومة تتصرف بالضبط وفقًا لهذا النوع من الاتهام ضد تيتو، وليس لدى تيتو ميزة محاكمة عامة.

وجوهر المشكلة مع تيتو هو نفس جوهر المشكلة مع أبي فقد كان شيوعيًا ولكنه كان خصمًا للفاشية أيضًا وبالطبع كان تيتو أكثر من ذلك؛ فقد كان ديكتاتورًا، ولكنه كان في نفس الوقت جنديًا قويًا وبعدها رجل دولة نجح في قيادة يوغوسلافيا لتخرج من المخيم السوفييتي، كما كان أيضًا محتالاً اقترض المال من كل مكان وترك دولته غارقة في الديون الخارجية، ولكن نتيجة لذلك عاش الناس حياة مريحة نسبيًا كما أنه كان مسئولاً عن مذبحة لسجناء الحرب في بليبرج ومخيمات العمل الإجبارية مثل جولي أوتوك، وعن السجناء السياسيين وانتهاك حقوق الأنسان، وبالرغم من ذلك يضاف لرصيده أن يوغوسلافيا لم تكن معسكر عمل شيوعيًا معزولاً، وبالرغم من ذلك كان اسمه يختفي من المشهد العام ومن التاريخ نفسه دون أن يجرؤ أحد على الدفاع عن مميزاته الواضحة.

من الواضح أن الكرواتيين لديهم مشكلة، على سبيل المجاز، في قبول ماضيهم فكل ما أقوله هو أنه قبل الحكم على تيتو النهائية،

وفقًا لكلمات ماركس نفسه، بوضعه في الغرفة الخشبية للتاريخ ينبغي على الأقل أن نقوم بنقاش مناسب (أي حر) حول من كان تيتو بالفعل، وما مزاياه التاريخية، وأيضًا جرائمه فحتى خلال المحاكمات الشكلية الستالينية كان للمتهم الحق، وإن لم يكن حقًا يمارسه، في الدفاع، ودون المحاولة لتقييم فترة حكم تيتو في التاريخ وتشويه سمعته بدلاً عن ذلك، وحتى أن يمثل اسمه إهانة للدولة الكرواتية الجديدة فنحن نزيف بكل وضوح الماضي كما فعل الشيوعيون عندما تولوا زمام السلطة.

تزييف التاريخ وإنكار الذكريات والحجج الأيديولوجية لإعادة تفسير الأحداث التاريخية، كل ذلك حدث في السابق وليس منذ فترة طويلة، ففي ١٩٤٧ أزالت الحكومة الشيوعية تمثال الدوق جيلاسيتش من الميدان الرئيسي في زغرب وأعادت تسمية الميدان بميدان الجمهورية وبعدها بخمسة وأربعين عامًا أعادت الحكومة غير الشيوعية تمثال الدوق إلى الميدان وأعادت له اسمه القديم بالرغم من حقيقة أنه لم يكن هناك أي ضرر في اسم الميدان كميدان الجمهورية باستثناء أنه تم منحه من قبل الشيوعيين، وربما يبدو حتى من خلال هذا الفعل أن العدالة التاريخية قد تمت ممارستها أخيرًا وليس ظلم جديد من نفس النوع يحدث يوميًا.

كل ذلك يشير إلى مرض متأصل بإعادة الماضي فما هو إدراكنا لطبيعة التاريخ؟ كوننا نحكم من هذا النوع من التجربة يبدو أننا مقتنعون أن التاريخ هوة سحيقة لا قرار لها وحفرة سوداء يلقي فيها المرء بماضيه عندما لا يكون في حاجة إليه، ويبدو بالفعل أننا نصدق أنه من الممكن أن ننسى ماضينا ونترك ذنبنا خلفنا معه، أنه تاريخ كغسالة فأنت تلقي فيها بملابسك المتسخة وتضيف بعض الأيديولوجية كمنظف ويكون الناتج قميصًا براقًا ونظيفًا وغالبًا يكون جديدًا وجاهزًا لأن ترتديه حتى يتسخ مرة أخرى.

يجب أن أقول إنني تعبت من هذه اللعبة التي أعرفها جيدًا فكل يوم يظهر قائد جديد ويأمر بإزالة هؤلاء الذين سبقوه وبعد خمسة وأربعين عامًا يحل محله قائد آخر ويأمر بإزالة سابقه ويمكنك أن تكون واثقًا أنه خلال جيلين أو ثلاثة سوف يظهر قائد ثالث يمحو ذكرى الأخير ويعيد إحياء السابق.

أخبرتني صديقة لي أنه بعد أن أمسك الشيوعيون بزمام السلطة وغيروا جميع أسماء الشوارع والميادين في زغرب استمرت جدتها في استخدام الأسماء القديمة طوال حياتها ولم تقبل الأسماء الجديدة، حتى إذا أدى الأمر لبعض الالتباس وكان هذا هو السعر الذي تنوي دفعه للحفاظ على ذكرى حياتها قبل الشيوعية، وقد عاشت السيدة

العجوز عمرًا طويلاً يكفي لترى الأسماء القديمة تعود، ولكنها كانت تعلم تمامًا أنه حتى الآن لم تنته حياتها على أنها خلال خمسة وأربعين عامًا كبرت في السن وأصبح لديها أحفاد وبعدها أولاد أحفاد، وقد نحفت وفقدت تقريبًا سمعها كما أن بصرها أصبح ضعيفًا جدًا.

فهل ينبغي أن تنتهي تلك السنوات الخمس والأربعين من عمرها – تلك الحياة الواقعية المادية الملموسة – في طي الازدراء والنسيان في الحجرة الخشبية للتاريخ دون الحق حتى في تذكرها؟ أم ينبغي أن يكون لها الحق في الاحتفاظ بذكرى ذلك الزمن لتحيا معها في ألبوم صور عائلتها وأيضًا في المتحف أو حتى عن طريق اسم ميدان؟ ومن له الحق أن يقرر ذلك نيابة عنها على أني لا أفترض بالطبع أننا ينبغي أن نتبع مثالها ونستمر في تسمية الشوارع باسم هذا الفيلق المناصر أو ذاك أو باسم هذا البطل أو ذاك ولكن ما أعنيه أنه كما أن وجود دولة جديدة ينبغي أن يحترم فتاريخنا أيضًا يجب أن يحترم.

لقد مررت بنفس الشعور عندما وردت صورة قبر أبي في مخيلتي وأنا أقف على الميدان السابق لضحايا الفاشية والذي أصبح الآن ميدان عظماء كرواتيا (هذا الاسم الجديد بلا معنى تمامًا بل ومزعج أيضًا – فإذا كانوا عظماء فلماذا هم مجهولون؟) في الميدان من الناحية الجنوبية، هناك مبنى كئيب من خمسة طوابق كان سابقًا السجن الفاشي سيء السمعة الذي تم تعذيب الآلاف من البشر فيه من بينهم كتاب وشعراء، وبشكل ما يعد أيضًا مقبرة رمزية ليس فقط للضحايا ولكن أيضًا لأوهامنا في الحكومة الجديدة؛ لأنه بالرغم من كل الاحتجاجات تم تغيير اسم الميدان، ومرة أخرى شعرت بالإحباط كما لو أنه بإزالة لافتة قديمة يقوم شخص ما بسرقة جزء من تاريخي الشخصي وهويتي الشخصية؛ ولذلك وقفت هناك كطفلة منبوذة وأنا أعرف أني أبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا، وأن ذلك يبدو هزليًا ولكن هذا ما شعرت به فقد شعرت أني عاجزة، شعرت كما لو أني أفتقد شيئًا ما، وكما لو أني لن تكون لدي فرصة في النضج بسبب إغلاق فصل آخر من التاريخ هنا.

يذكرني النظر في ميدان ضحايا الفاشية السابق بذنبي، ومن ثم تظهر صورة أخرى لأبي ولكنها هذه المرة ليست صورة له بالرغم من أنها قد تكون كذلك بكل بساطة، ففي يوم ما حين كنت طفلة وجدنا مسدسًا مخبأ في خزانة أبي، وبينما كنا نتطلع له فُتح الباب وظهر أبي عند عتبته وسرعان ما دخل الحجرة وأخذ المسدس بعيدًا عن متناولنا وأخبرنا بعدم اللعب به مرة أخرى والشيء الذي بقى في ذاكرتي طوال هذه السنوات هو تلك النظرة على وجهه فقد كان وجهه ممتقعا للغاية وجامدًا تمامًا، ولم تحمل عيناه أي تعبير، فقد

كانا مثل ثقبين فارغين وللحظة بدا كما لو أنه رأى شبح شخص ما مات منذ فترة طويلة وصار في طي النسيان، شخص ما لم يصدقَّ أنه قد يظهر مرة أخرى وقد كان خائفًا ولقد شعرت فطريًا بذلك كما شعرت أن خوفه كان يعديني أنا أيضًا.

أردت بعدها عدة مرات أن أسأل أبي عما رآه في تلك اللحظة، هل كان الموت؟ ولكن موت مَن؟ هل قام يومًا ما بقتل شخص بهذا المسدس خلال الحرب؟ ومن قتل ولماذا؟ وإذا كنت أمتلك الشجاعة الكافية لسؤاله عن ذلك فربما كنت بعدها قادرة على سؤاله أسئلة أخرى أيضًا، ولكن كل مرة يكون السؤال على طرف لساني ولا أستطيع أن أنطق به وبينما كان حيًا لم أكن أعرف سبب حدوث ذلك والآن بعد وفاته أدرك أن الخوف من الإجابة المحتملة كان يصيب لساني بالشلل فأنا أعرف أنه إذا قال أبي أنه قتل شخصًا ما فسوف ينكسر شيء ما بداخلي ففي عيني لن يكون هو نفس الشخصية بعدها، نعم لقد كنت بالفعل أخشى الحقيقة، ولم أستطع مواجهتها فقد أخفيت السؤال في أعماق اللاوعي وقد جعل أبي الأمر سهلاً عليّ ففي المناسبات النادرة التي كنا نتعثر فيها بهذا الموضوع اعتاد أن يخبرني أني لا أحتاج أن أعرف شيئًا عن الحرب لأن شيئًا كهذا لن يحدث مرة أخرى، يا إلهي، ما الذي يجعله واثقًا لهذه الدرجة؟ هذا ما كنت أود سؤاله عنه اليوم، ولكن من حينها فصاعدًا قبلت صمته بكل الصمت.

لديّ العديد من الأعذار التي يسهل الحصول عليها لعدم سؤال أسئلة ينبغي أن أسألها فعلى سبيل المثال يمكنني أن أقول أن جيلي ولد بعد الحرب وكان ساخرًا وغير سياسي وقد تكون هذه هي الحقيقة ولكنها ليست الحقيقة الكاملة فربما كان هذا الاتجاه نحو الحياة والسياسة نوعًا من الهروب حيث كنا نرى أننا لا نملك أية فرصة في أية سلطة على أنفسنا، وكما كان الأمر في جميع الدول الشيوعية الأخرى تولى كبار السن الحكم وتم تهميش الأجيال الأصغر سنًا وبشكل ما كانوا دائمًا صغارًا جدًا على الوصول لمواقع مرموقة أو مسئولة ولم يستطع هؤلاء الأطفال للأبد مجرد الحلم بشقة تكون مملوكة لهم، وبدلاً عن ذلك كانوا يكبرون وينجبون أطفالاً في بيوت آبائهم، ولا يقدرون أبدًا الخروج من دائرة السلطة داخل الأسرة، والجانب الآخر لهذه العملة كان عدم وجود المسئولية حيث لم يطلب منا أحد أو يتوقع منا ذلك، وإذا سار شيء ما في المجتمع بشكل خاطيء كان من المتوقع أن يقوم الأب بالتعامل معه وليس الابن وكانت النتيجة النهائية نوع من الصفقة: أعطنا مذاق الحرية

(فرصة السفر إلى الغرب والملابس الآنيقة والكتب والسجلات) ولن نتسبب في أية مشاكل لك ولن نقوم حتى بسؤال أسئلة مزعجة.

أعتقد أن أغلبية جيلي آمنوا حقًا بالنسيان والطاعة مقابل ما اعتقدوا أنه الحياة الجيدة، نعم لقد كان هذا نوعًا من الآنتهازية، وعلاوة على ذلك أعتقد أنه لم يكن يختلف عن نوع الآنتهازية الذي ربما جعل والدي ينضم للحزب الشيوعي؛ فقد كنت شخصيًا متغطرسة كفاية لأعتقد أن الحياة الواقعية في يوغوسلافيا الشيوعية لم تؤثر إطلاقًا في داخل نفسي وفي شخصيتي وفي أحلامي وقيمي، وأنا لم أؤمن بالصيغة الماركسية التي تقول إن الظروف تحدد الشخصية- بل على النقيض، وأنا أعرف أن ذلك قد يبدو رهيبًا ولكني أدركت الآن فقط أن غالبيتنا كانت تؤمن بالفعل بالشيوعية، فبعد أن تم تهميشنا وتدليلنا ورشوتنا لم نكن نؤمن باحتمالية وجود مستقبل مختلف، وعليه فنحن لا يمكننا تخيل مستقبل خارج السياق الشيوعي بأوي أحلامنا الطفولية بنفس الشكل الذي لا يكون به الطفل قادرًا على تصور حياته خارج ملعبه الخاص، وكان سعر ذلك كبيرًا وأعتقد أننا ندفعه الآن.

أنا أؤمن أننا لا يمكننا النسيان وحسب، ولكن علينا التعامل مع ماضينا الشيوعي القريب وكذلك أيضًا ماضينا الفاشي، ففي النهاية كل ذلك يعد جزءًا من هويتنا ونمونا كأفراد وكمواطنين، وفي هذا الصدد كأمة وهذا ضروري إذا كنا لا نريد تكرار الأخطاء نفسها التي وصلت بنا إلى ما نحن عليه الآن – إلى الحرب، وأنا مقتنعة بجانب ذلك أنه في تعاملنا مع الماضي ينبغي علينا التركيز على ذنب الآخرين بشكل أقل من تركيزنا على أنفسنا وربما هذا ما أود إخباره لوالدي اليوم – أن أخبره وليس أن أسأله فمن السهل جدًا إلقاء اللوم على شخص آخر – أبي أو آبائنا أو تيتو أو النظام، فماذا فعلت أنا ليكون لي الحق في السؤال عن مسئولية الآخرين الأخلاقية أو السياسية؟ لا أنا ولا الآخرون من جيلي كنا قادرين على التنبؤ أو المنع أو حتى العمل ضد الحرب التي تجري الآن، وأنا أخشى أن أكون مسئولة بالفعل في عيني ابنتي وجيلها الذين يخوضون هذه الحرب ويموتون خلالها.

سيكون من الأسهل كما أتصور إذا تم إلحاق هذا الشعور بالذنب بالماضي فقط، ولكن نفس النوع من الذنب يتم خلقه مرة أخرى – ذنبي وذنب جيلي والآخرين الذين يحيون تحت مظلة هذا الوطن، وليست المشكلة أن ترغب الحكومة الجديدة في جعلنا ننسى الماضي القريب ونعيش في سعادة بعد ذلك، وبالرغم من حقيقة أن ذلك يقوم إلى حد ما بالآنشاء في تكتم لرابط مباشر مع فترة ١٩٤١-٤٥

ومن ثم إعادة النظام الفاشي، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في أننا نبدي قبولنا التكتيكي لهذه التغييرات كما لو أنها لا تتعلق بحياتنا ومستقبلنا، ومع ذلك يقرر شخص ما مرة أخرى ماضينا وحاضرنا ونحن منصاعون ومستسلمون، وليس هناك عذر مناسب يجعلنا نغلق أعيننا وأفواهنا، ولكن أليس علينا أن نسأل أنفسنا عن طبيعة ذلك الخوف؟ إذا كنا نلتمس العذر لأنفسنا أمام أطفالنا عن صمتنا في الماضي لأننا كنا نعيش في نظام ديكتاتوري فماذا نفعل الآن؟ هل نجرؤ على الاعتراف أننا نشعر بالخوف في النظام الديموقراطي أيضًا – وإذا كان الأمر كذلك فأي نوع من الديموقراطية هذا؟

النسيان، كم هو جميل أن تمتلك القدرة على النسيان بالفعل وربما ذلك هو شعور الخلود، وعلينا أن نسأل تيتو عن ذلك فالمثير للسخرية أنه هو من بدأ فكرة محو الماضي، وقد رأينا ذلك طوال حياته وأيضًا بعد وفاته ووفقًا لأمنيته الشخصية لم يكن على قبر تيتو الذي كان من الرخام الأبيض في بلجراد محفورًا عليه نجمة وبناء على قراره تم محو ماضيه الشيوعي والمضاد للفاشية، وقبلها بعشرة سنوات بدأ ذلك في الحدوث في هذا الجزء من العالم فهذا وهذا فقط قد يكون سببي الشخصي في عدم وضع اسمه على ميدان في زغرب؛ لأني يمكنني في الغالب سماع ضحكاته في قبره النظيف ولكنه يستحق ذلك بالرغم من كل هذا، فبإنكار تيتو هذه الذكرى نحن ننكر جزءًا من تاريخنا الموجود رغمًا عن كل ذلك والذي ما زال موجودًا في عقول الناس وفي الطريقة التي يفكرون ويتصرفون بها، والجدير بالاهتمام أننا نتعلم أخيرًا ألا نتلقى الأوامر وهذه هي النقطة التي يلتقي فيها ذنب أبي مع ذنبي فكلانا كان جيدًا جدًا في ذلك.

... أشخاص من الثلاثة حدود

لدي منزل في استيريا وهو يقع على قمة تل فيما كان يومًا ما قرية صغيرة في القرون الوسطى، ويمتد المشهد من التل غالبًا إلى البحر في الجنوب وإلى تريستي في الغرب وهضبة سيكاريجا الصخرية في الشرق، وعندما أكون هناك يعتريني الشعور أنني على جسر سفينة خاصة عندما يغطي ضباب أبيض في الخريف كل شيء باستثناء قمم التل المحيطة مما يمنحهم مظهر الجزر.

ولكني لست على سفينة؛ فمنزلي في منتصف شبه جزيرة في البحر الأدرياتيكي الشمالي بين خليج تريستي وخليج ريجيكا، ومنذ أنهيار يوغوسلافيا ينتمي الجزء الأكبر من شبه الجزيرة إلى كرواتيا والجزء الأصغر إلى سلوفينيا ولكن هناك أيضًا جزءًا صغيرًا جدًا من الأرض ينتمي لإيطاليا، وهكذا تكون الـ ٤٥٠٠ كيلو متر مربع لشبه الجزيرة مقسمة بين ثلاث دول، وأنا أحيا في واحدة ويمكنني رؤية الجزئين الآخرين من نافذتي.

كل مرة أتسلق فيها التل إلى منزلي أكون سعيدة، ولكن بمجرد أن أصرف نظري بعيدًا عن المشهد الطبيعي الفائق الجمال المثير لذكرى توسكاني يتحول مزاجي ليصبح مكتئبًا وقد أصبحت على علم بالأسئلة التي لا أحبها وبالضغط الذي لا أشعر به في أي مكان آخر، وقبل كل شيء أصبحت على دراية شديدة بالحدود الجديدة، وعندما أنزل من كرني كال إلى سوكيرجا، من الجبال إلى الوادي، لا يتغير المشهد كثيرًا فالناس يفهم كل منهم لغة الآخر، وهم يتناولون نفس الطعام ولكن وحشًا قائمًا حديثًا يلقي بظلاله على كل شيء، ألا وهو الهيكل الحديدي الذي يسمى الحدود التي تقسمهم وقد تم خلق الحدود الحقيقية هنا من قبل الطبيعة نفسها؛ لأن هذه هي النقطة التي تبدأ منها الثقافة المتوسطية وثقافة زيت الزيتون والنبيذ

والسمك والباستا والعديد من اللغات التي يكتسبها المرء بمجرد ولادته هنا.

لا يبعد البحر بأكثر من ٥٠ أو ٦٠ كيلو مترًا في أي اتجاه عن قلب أستيريا، ويجلب ذلك انفتاحًا على المناخ وطعام وعادات الناس.

وعلى نفس حدود الدولة يدعك السلوفينيون تمر عبر الحدود بلا مبالاة ودون حتى النظر في جواز سفرك، ولكن على الجانب الآخر ينتظرك الكرواتيون حيث يمكنك رؤية الشك في أعينهم وهم يسألونك عما إذا كان لديك شيء لتصرح به، وعن نفسي كان عندي دائمًا دافع للإجابة، ولكن بدلاً عن عدم قول شيء فقد كنت أشعر كما لو أني أغوص في واقع مختلف، واقع غير مرئي ولكنه ليس أقل واقعية، بسبب ذلك فقد ولدت في ريجيكا، وهي مدينة تشارك شبه الجزيرة بعضًا من تاريخها، فقد تم تقسيم المدينة نفسها خلال الحرب العالمية الثانية، وقد عاشت أمي في سوزاك (التي تنتمي إلى يوغوسلافيا) وعملت في ريجيكا (التي تنتمي إلى إيطاليا) وكل يوم كانت تعبر الجسر الذي يقبع في منتصف المدينة ويفصل الدولتين عن بعضهما، وقد شعرت أيضًا بعبء السؤال الذي سأله الأستريون اليوم: من أنت؟ ليس بالمعنى الاستعاري ولكن بالمعنى الدقيق للكلمة، فقد كان الناس يسألون ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر وهو يعني هل أنت كرواتي؟ وهل أنت كرواتي لائق؟ هل أنت وطني كفاية بما يعني هل أنت قومي؟

وأستريا هي الجزء في أقصى غرب كرواتيا وأقصى جنوب سلوفينيا وأقصى شمال شرق إيطاليا، فهي حافة كل من هذه الدول كما كانت يومًا حافة الإمبراطورية الأسترية المجرية أو يوغوسلافيا، وقد كان الضغط لتحديد وتصنيف واختيار جنسية واحدة موجودًا هنا من قبل، وهو ما أصبح جزءًا من الواقع السياسي الجديد، ومرة أخرى يعيش الـ ٣٠٠ ألف شخص الذين يعيشون على ثلاثة حدود تحت ضغط لتأكيد تبعيتهم القومية، وهو ما يجب أن يقوم به الناس الموجودون في حدود أية دولة خلال الأوقات العصيبة، وقد أدت هذه الطلبات إلى الخوف وعدم الأمن، وربما لا يكون هنا حرب ولكن لا يوجد سلام أيضًا.

أثناء الذهاب من بوزيت إلى تريستي يتعين عليك إظهار جواز سفرك أربع مرات في مسار الرحلة التي تأخذ أكثر قليلاً من نصف ساعة، وعليك أن تعبر دولة أخرى، سلوفينيا ، خلال هذه العملية وربما تكون تعمل في مدينة ما بينما تعمل زوجتك في أخرى ربما تبعد فقط عشرة دقائق بالسيارة ولكنها في سلوفينيا، وربما تستيقظ كل يوم وتذهب لتزرع البطاطس في الحقل في الجانب الآخر من الحدود

وأستيريا هي وحدة جغرافية صغيرة ومضغوطة وبسبب ذلك كانت الحدود هنا دائمًا غير ملموسة، فلم يكن هناك ستار حديدي، والناس يتزوجون ويعملون ويعيشون معًا، ليس فقط بين الحدود الكرواتية – السلوفينية ولكن أيضًا عبر الحدود اليوغوسلافية – الإيطالية، والآن وقد تم إنشاء حدود حقيقية في المقام الأول بين كرواتيا وسلوفينيا فقد أصبحت تدرك تمامًا مدى صغر مساحة أستيريا، وهذا الجزء يرجع إلى قرار سياسي ولا علاقة له بطريقة حياة الناس هنا.

أستيريا هي مقاطعة بها عشرة لهجات سلافية مختلفة وأربعة من أصل إيطالي، وبالرغم من ذلك إذا دخلت حانة أو متجر قروي سوف يتم مخاطبتك بلغتك، بينما يستمر النادل أو صاحب المتجر والعملاء الآخرون في الدردشة بين أنفسهم بلغة أخرى، وربما حتى ثالثة أيضًا، ففي منزل صديقي إيجور يتحدث والداه إليه بالكرواتية ولزوجته بالإيطالية ويحدث هذا على طاولة الطعام وفي نفس الحوار بينما يتناولون من نفس طبق الشوربة ويشربون نفس نبيذ ميرلوت المر، والغريب أنهم يغيرون اللغات دون أي جهد يذكر، ويفهم كلٌ منهم الآخر تمامًا، وهذا المزيج من اللغات والسهولة التي ينزلق بها الناس من لغة إلى أخرى هي سمة من سمات الحياة هنا؛ فالناس يفهم كلٌ منهم الآخر على مستوى أعمق ولا يقومون بأية مشاكل كنتيجة لاختلافاتهم، ولكن الآخرين هم من يفعلون ذلك.

يعد هذا الجزء من كرواتيا جزءًا غير مستقر الآن، وعندما قام مراسل كرواتي في ١٩٩٤ بعمل حوار مع سكان القرى الثلاثة على حدود كرواتيا الذين ضايقهم السلوفينيون طوال الليل، واجهه رد فعل عجيب فقد قال هؤلاء الناس للمراسل الكرواتي أنهم كرواتيون وللمراسلين الإيطالين أنهم إيطاليون وللمراسلين السلوفينيين أنهم سلوفينيون، وقد كانوا يقولون ذلك لأي ممثل لجهة رسمية مما دفع الصحفيون المرتبكون للسؤال "ما حقيقة هؤلاء؟" على أن المجليين لم يروا أي تعارض في ادعاء ثلاث جنسيات ولا هم يصفون أنفسهم كانتهازيين فوفقًا لوجهة نظرهم يكمن سوء التفاهم في حقيقة أن الصحفيين يطرحون سؤالاً من نوع "إما ، أو" فبالنسبة للصحفيين كان من المستحيل أن يكون شخص ما كرواتيًا وإيطاليًا وسلوفينيًا في الوقت نفسه، وقد رأوا جنسيات القرويين كأقسام سياسية في حين كان يتحدث القرويون عن هويتهم الشخصية التي كانت جنسياتهم جزءًا منها فقط.

في الواقع الجنسية والهوية لا تتداخلان بالضرورة، وربما أستيريا هي أفضل مثال على ذلك؛ فإذا كان الصحفيون فقط هم من يهتمون بالجنسية كتصنيف سياسي ربما لا يكون الأمر مشكلة كبيرة، ولكن

هناك آخرين يهتمون، وبالتحديد الحكومة المركزية في زغرب، فهم يودون أن يعرفوا من هؤلاء الناس في أستيريا بالضبط، وعندما صوت أغلبية المواطنين الكرواتيين على دولة مستقلة في ١٩٩٠ ، فلماذا في تعداد عام ١٩٩١ قام ما يقارب ٢٠ بالمائة منهم بإعلان أنفسهم أستريين وليس كرواتيين ؟ فقد كان الأستريون تصنيفًا غير موجود في تعداد السكان، وهؤلاء العشرون بالمائة ينبغي أن يضعوا أنفسهم تحت قائمة "آخرون".

ولكن الأستريين اليوم يحاولون بوضوح جعل منطقتهم هي جنسيتهم؛ لأنهم يريدون تجنب تحديد أنفسهم أو تحديدهم من قبل آخرين ككرواتيين أو إيطاليين أو سلوفنيين أو صرب، وبالطبع لدى زغرب الحق في الشك في عدم كونهم وطنيين كفاية، وكذلك ليوبليانا أو روما، فكيف يفهم هذه السلطات التي تجلس هناك تحكم بلادها من مكان يبعد مئات الكيلومترات معنى الأستيرية – المفهوم الموسع للهوية كمضاد لتقليص مفهوم الجنسية؟ فبالنسبة للأستريين تعد الهوية مفهومًا أوسع وأعمق من الجنسية، ولا يمكنهم اختيار جنسية واحدة خالصة لتصبح هوية لهم، ولأنهم يعيشون في منطقة الحدود فهم يفهمون أكثر من أي شخص آخر أننا جميعًا دم مختلط بدرجة ما، وقد عانوا أيضًا من القومية وفي أسوأ أشكالها – التطهير العرقي – بشكل كاف ليصيبهم التعب منها، ومن المفارقات أنه لأول مرة في تاريخهم وفي أول انتخابات للجمهورية الكرواتية المستقلة الجديدة شعر الأستيريون بالحرية في رفض مفهوم أمة واحدة، وقد شعروا أن الوقت قد حان للتعبير عما يرون أنه يجب أن يكون، ولكن في كرواتيا القومية الحالية لم يكن هذا متوقعًا منهم.

أقرب جار لي هو كارلو أو كارليتو وهما اسمان للرجل نفسه ذي السبعة وستين عامًا والنظارة السميكة والقدم المصابة ويعتمد كونه كارلو أو كارليتو على ما إذا كان منتشيًا أم لا، ففي الصباح يعلن عن نفسه ككرواتي يتحدث لهجة كرواتية رديئة ومستعد للدخول في أي جدل سياسي إذا لم يكن مشغولاً بالطقس، ولكنه كرواتي فقط حتى العصر، وبحلول هذا الوقت يكون قد شرب العديد من كؤوس الكونياك وما يكفي من البيرة في الحانة المحلية ليعلن عن جنسيته الأخرى، الإيطالية، وفي حينها يصبح كارليتو وفجأة يتحدث بلهجة إيطالية رديئة وهو يتذكر حلقات من مسلسل شبابه تحت كل من الحكومة الإيطالية الفاشية، وبعدها الحكومة الشيوعية اليوغوسلافية ولتعقيد الأمور أكثر من ذلك انحاز أخوه الأصغر إلى إيطاليا خلال الاستفتاء بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وهذا الرجل

يعيش في تريستي ويزور أخاه الأكبر مرة كل شهر، كما تعيش أختهم في قرية صغيرة في الجزء الكرواتي من أستيريا.

مرة أخرى لا يرى كارلو – كارليتو بالاشتراك مع جميع الأشخاص من القرى الثلاثة أي تعارض في كونه كرواتيًا وإيطاليًا في وقت واحد، ولا حتى حدوث ذلك خلال نفس اليوم والأدهى من ذلك أنه يكون كلاهما في الوقت نفسه وكلٌ من هاتين الجنسيتين هي جزء من هويته، وإذا طلبت منه أن يختار واحدة فقط لايمكنه ذلك، فسيكون عليه الاختيار بين أخيه وأخته وبين أبيه وأمه، فقط أمضى كل حياته في قرية صغيرة مهجورة ومهملة حيث لا يستطيع أحد شراء الصحف حتى، وهو لا يستطيع القيادة وليس لديه تلفاز (بالرغم من أنه يستمع إلى الراديو) وهو يذهب إلى القرية المجاورة فقط عندما يحتاج طبيبًا، فقد أمضى كل حياته مع نفسه فلماذا يريد اختيار جزء من نفسه وتقييد هويته بذلك الجزء فقط؟ وكما رأينا مؤخرًا هو والعديد من الآخرين في أستيريا شكلوا احتجاجًا ضد الضغط السياسي للصفائيين بإعلان أنفسهم أستيريين وهو ما أصاب قائدي الحزب الاتحادي الديموقراطي الكرواتي الحاكم والموالين له وخاصة القوميين الشديدي القومية بالجنون، وقد كان لذلك تأثير سياسي مباشر، ففي الانتخابات الأولى صوت سكان أستيريا بأغلبية كبيرة (٦٨%) لصالح حزبهم الإقليمي، وهكذا انتصروا على جناح اليمين المركزي في المنطقة، وفي الانتخابات الأخيرة في ١٩٩٥ حقق الحزب الإقليمي نصرًا أكبر، فقد حصل هذه المرة على ٧٧ بالمائة من الأصوات والرسالة واضحة، أنتم تخبروننا أنه من المستحيل وغير الصحيح سياسيًا لنا أن نعلن أننا أستيريون وأن هذه نزعة إقليمية، حسنًا سوف نوضح لكم بالضبط ما يعنيه الأمر لنا، أنه يعني إخضاع أية أمة وأيديولوجية إلى الإقليم وأن الهوية تأتي قبل الجنسية؛ لأن الجنسية تحصرك في بعد سياسي واحد فقط بينما توسع الهوية كامل تجربتك الآنسانية.. وفي الواقع ما بدأ كآلية الدفاع النفسي ضد القومية تطور إلى مشروع سياسي.

فقد بدا واضحًا أن الأستيرية هي رد فعل للتجربة التاريخية الطويلة للأشخاص الذين يعيشون هنا، وقد كانت هذه المنطقة دائمًا منطقة -ليست فقط متنوعة السكان - ولكنها أيضًا منطقة متحولة؛ فعلى سبيل المثال في تعداد السكان لعام ١٩١٠ كان ٣٩ بالمائة من الأشخاص إيطاليين و ٥٠ بالمائة سلافيين (كرواتيين وسلوفينيين)، وتحت حكم الحكومة الفاشية لبينيتو موسوليني وصل عدد ٣٠ إلى ٤٠ ألف إيطالي من إيطاليا بينما كان هناك هجرة جماعية من جانب السكان الكرواتيين خوفًا من الفاشية، وبعدها حدثت هجرة جماعية

مرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية عندما هرب نصف السكان – إيطاليون في الغالب وأيضًا العديد من الكرواتيين – من أستيريا خوفًا من انتقام شيوعيي تيتو، ولم تسترد شبه الجزيرة هذه الخسارة أبدًا؛ فقد ترك الناس كل شيء وراءهم بمعنى الكلمة، تركوا الأبقار والخنازير في الاسطبلات وحتى الطعام الذي كان يطبخ على المواقد، حيث صادرت الحكومة الشيوعية ملكياتهم، وبالرغم من معاهدة أوسيمو بين يوغوسلافيا وإيطاليا التي تم توقيعها في السبعينات، والتي من المفترض أن تكون قد قدمت حلاً لهذه المشكلة، فما زالت ملكياتهم أمرًا عسيرًا ويمكن استخدامه دائمًا كحجة لبدء نزاع، والنتيجة التي ترتبت على ذلك أن نسبة ٨ بالمائة فقط من السكان الذين يعيشون في الجزء الكرواتي هم إيطاليون.

كانت مغادرة كل من الإيطاليين والسلافيين نتيجة للأيديولوجيات القومية و "التطهير العرقي" للطلينة الإجبارية وكذلك السلفنة الإجبارية، وقد شكلت هذه التجربة بعينها – تغيير السكان وتغيير الحكومات والحدود – الهوية الأستيرية، فقد تعلم الأستيريون اليوم أن يتسامحوا مع اللغات والأمم الأخرى وأن يتعايشوا معًا بغض النظر عن الحدود السياسية ليجعلوا هويتهم فوق كل أمة أو أيديولوجية، وقد أوضح النموذج الأستيري أن التسامح ممكن وأنه يجدي نفعًا مع أن كرواتيا الحالية، ذات الاتجاه نحو دولة قومية، تعرض ذلك كمشكلة وليس كقصة نجاح، فأي بديل مبنى على القيم بخلاف القومية يكون مشبوهًا بشكل تلقائي.

يعد الذهاب للتسوق في ترسيتي أمرًا طبيعيًا هنا، وربما تعتقد أنه من الطبيعي أن نذهب إلى ريجيكا لأن المسافة هي نفسها، ولا يكون عليك عبور حدود أية دولة، كما أن اللغة هناك هي الكرواتية، ولكن ليس هذا هو المنطق في أستيريا والسبب بسيط، فخلال فترة الشيوعية كان الناس يذهبون إلى تريستي لأنه لم يكن هناك العديد لشرائه في يوغوسلافيا، وفي هذه الأيام يذهبون هناك لأن ذلك ما زال هو الخيار الأفضل، فكل شيء هناك أرخص سعرًا، وكما ذكرت سابقًا فإحدى مفارقات اقتصاد ما بعد الشيوعية أن البضائع نفسها تكون أكثر تكلفة، فلنقل في كرواتيا أو سلوفينيا أو ألبانيا أكثر منها في إيطاليا أو ألمانيا أو حتى النمسا، ويكفيك زيارة متجر واحد في ريجيكا وآخر في تريستي لتقارن الأسعار، فلن يكون لديك أية شكوك حول المكان الذي ينبغي الذهاب إليه من أجل التسوق.

ففي نزهة أسبوعية من أجل شراء المواد الغذائية من قريتي الصغيرة أخذت معي صديقًا وهو جار لي من قريتي في أعلى التل، وبينما اقتربنا من حدود الدولة الكرواتية أخرج جواز سفره الكرواتي،

ولكن عند دخول سلوفينيا أظهر جوازه السلوفيني إلى ضابط الشرطة، وما أثار دهشتي لم تكن هذه نهاية القصة فعندما وصلنا إيطاليا أظهر وثيقة ثالثة، جواز سفر إيطالي جديد! بالطبع سألته عن سبب حيازته لثلاث جوازات سفر فأجابني ببساطة "الأمر يتعلق بالبقاء، فلا يمكن لأحد أن يعرف ما سوف يحدث هنا."وقد كنت مهتمة بكيفية حصوله عليهم جميعًا، وعرفت أنه ولد في كرواتيا لذلك حصل على الجواز الكرواتي، ولكنه كان يعمل لفترة طويلة في سلوفينيا ومن هنا حصل على الجواز السلوفيني، ولكن ماذا عن الإيطالي؟ في فبراير ١٩٩٢ اعتمد البرلمان الإيطالي قانونًا جديدًا للمواطنة يجعل من الممكن لهؤلاء الأستيريين الذين لم تتح لهم فرصة الاختيار قبل ١٩٥٥، ولذلك أصبحوا مواطنين يوغوسلافيين حتى يقوموا باستعادة حق المواطنة الإيطالي الخاص بهم شريطة أن يتقدموا خلال سنتين، وقد تسبب هذا القانون الخاص في احتجاج في كرواتيا؛ حيث تم تفسيره كمخطط لإعادة غزو أستيريا ولكن الأستيريين أنفسهم أخذوا الأمر على محمل أكثر براجماتية كما كان متوقعًا، فقد أعطاهم ذلك الفرصة في معاش إيطالي ووظيفة هناك في حالة عدم وجود فرص عمل في أستيريا بالإضافة إلى تعليم أطفالهم في إيطاليا، على أن كل ذلك لا يجعلهم في النهاية إيطاليين، ولا حتى خائنين، كما تم تصويرهم في الصحافة الرسمية في كرواتيا وكانت الطريقة التي يرى بها صديقي الأمر هي أن هويته لا يحددها تغيير جنسيته من واحدة لأخرى أو مرة أخرى إلى ثالثة، ولكنها مزيج من ثلاثتهم وهو أيضًا إقليمي جدًا، ومدافع عن الإقليمية وعن الممارسة الاقتصادية فيما يتعلق بأجزاء من المنطقة الجغرافية نفسها عبر حدود الدولة، أما بالنسبة لزغرب فإن ذلك يبدو بالطبع مثل تهديد آخر من شعب الثلاثة حدود.

الأهم من كل ذلك أن صديقي يفضل التخلص من جميع جوازات سفره، فهو على علم تام أنه في أوروبا الحالية المتحدة عفا الزمن على وضع حدود جديدة، وأن يكون لديك ثلاثة جوازات سفر بدلاً من جواز سفر واحد، وهو يقول لي: "تخيلي في يوم ما ربما بعد بضعة سنوات فقط من الآن سوف تصبح كرواتيا وسلوفينيا أعضاء في الاتحاد الأوروبي وسوف تختفي فجأة جميع هذه الأوراق والتوتر وجميع مخاوفنا وعدم أمننا، ولن يجبرنا أحد حينها على تعريف جزء واحد فقط مما نمارسه كهوية لنا، أنا أحلم بهذا اليوم حين لا يكرهني أحد لمجرد الطعام الذي أفضل أو ذكرياتي أو اللغة التي أتحدثها."

أنا أعرف جيدًا ما يعنيه هذا، وأنا أتذكر حين كنت أقود من النمسا إلى إيطاليا للمرة الأولى بعد أن دخلت النمسا في الاتحاد

الأوروبي، وما زلت أذكر انفعالي حين رأيت معبر الحدود الفارغ المهجور بالقرب من فيلاش وأماكن الحراسة الفارغة وغياب الجمارك، ولكن كوني جزءًا من كرواتيا – تلك البلد التي تقع في الجزء غير الموحد من أوروبا – فقبل الدخول إلى ذلك المستقبل المشرق سوف يكون كلٌ من الأستيريين والكرواتيين إلى الحياة ليس في الحاضر ولكن في الماضي حتى يحين الوقت.

obeikandl.com

... أنه ينام مثل طفل

ها نحن في عيد الفصح لعام ١٩٤٥ بينما خطا الرجل وزوجته خارجين من منزلهم في جانب التل في الجزء الشمالي من زغرب والكاميرا تصور.

من يضغط زر الكاميرا؟ هل هو صديق حدث أنه كان متواجدا هناك، أو ربما جار الرجل الذي كانت وظيفته التقاط الصور؟ ربما هو جار بكل بساطة، على أن هوية المصور ليست مهمة ويمكنني تخيل الثنائي الشاب – حيث كان في الرابعة والعشرين من عمره في ذلك الوقت ولا بد أنها أصغر من ذلك – يقف أمام رقم ٩٤ في شارع بانتوفكاك في تلك اللحظة، وهما يشعران برائحة نسيم الربيع في الجو، وها هي تبدو في كامل أناقتها وهيبتها وهي ترتدي حلة غامقة من قطعتين مطرزة بتطريز تقليدي، وشعرها البني الكثيف يتساقط على كتفيها وهي تنظر إلى الكاميرا بنظرة ذات ابتسامة مرتبكة، وهي ليست جميلة بالضبط، ولكن مع التنورة التي تعلو ركبتيها تبدو متمدنة، ومع ذلك يوحي مظهرها ككل بالتردد كما لو أنها غير متأكدة مما يجب فعله في هذا الموقف؛ لأنها غير سعيدة من التقاط صورة لها في هذا الموقف بالذات، لا، فكلاهما لا يدعي مطلقًا ويمكنني تبين هذا في وجهه أيضًا وهو يقف بشكل نصف جانبي وينظر بعيدًا عن الكاميرا ولا يبالي بالمصور ولا بالآنطباع الذي سوف يعطيه فلديه شيء آخر يشغل عقله، كما أنه أيضًا متأنق وهو يرتدي بزة رسمية لضابط جيش في دولة كرواتيا المستقلة، وهو في كامل زيه مع فرو، وليس من المحتمل أن يكون هذا الثنائي في طريقه إلى حفلة ضباط أو مجرد حفل في منزل صديق؛ فكلاهما متجهم إلى حد ما؛ لذا لا بد أنها مناسبة أكثر جدية وربما تكون عشاءً وديًا مع الجنرال ماكس لوبوريتش أحد أقربائهم المقربين أو اجتماع مع رئيس الدولة انتي بافيليتش الذي يتمتع هذا الرجل بثقته؟

تم التقاط هذه الصورة قبل بضعة أسابيع فقط من توجيه قريب وقائد ذلك الضابط الشاب، الجنرال لوبوريتش، أمر له بالهروب من زغرب، وهو ما فعله في السابع من مايو عام ١٩٤٥، وهكذا من المحتمل أن ذلك الشاب يعرف بالفعل هذا الأمر أو يشك في أنه سيأتي، وربما تم نقل أخبار إليه هذا المساء بالتحديد؛ فلا بد أنه كان يعلم بأن نهاية دولة كرواتيا المستقلة كانت فقط مسألة وقت، وربما أيام وكمحل ثقة بافيليتش لا بد أنه يعرف أنه كان يعد أيضًا بشكل سري للهروب من جيش تيتو، وبالفعل دخل هذا الجيش زغرب في الثامن من مايو ١٩٤٥ – يوم الحرية الذي تم الاحتفال به بعدها

كعطلة رسمية حتى أنهيار يوغوسلافيا الشيوعية، وكان هذا بلا شك التفسير لهذا الجو المرتبك بشكل ما.

الرجل في الصورة هو دينكو ساكيتش وفي عيد الفصح عام ١٩٤٥ كان ضابطًا رفيع الرتبة في جيش دولة كرواتيا المستقلة، كما كان لديه أيضًا معارف جيدة جدًا؛ حيث كان متزوجًا من أخت قائده الجنرال ماكس لوبوريتش القائد العام لمخيمات التعبئة وأيضًا الذراع اليمني لبافيليتش وقد ولد دينكو ساكيتش في ١٩٢١ كابن لعائلة كرواتية تعيش في هيرزجوفينا، وقد عانى من ترك مبكر للدراسة وبعد شباب متعثر التحق بجيش أوستاتشي في جاسينوفاك في ١٩٤١ وسرعان ما تم نقله إلى مخيم تعبئة آخر أصغر في ستارا جراديسكا حيث خدم كمساعد لقائده، وفي ١٩٤٢ عاد إلى مخيم جاسينوفاك كنائب للقائد وبعدها كقائد المخيم.

لم يكن مخيم تعبئة جاسينوفاك مفروضًا على الدولة الكرواتية من قبل ألمانيا النازية، بل كان ناتج لسياسات وأيديولوجية الحكومة الفاشية لكرواتيا بنفسها، وليس هناك خلاف بين المؤرخين على حقيقة أن الاغتيالات الواسعة للصرب واليهود والشيوعيين الكرواتيين والغجر قد حدثت بالفعل، ولكن الخلاف يتمركز حول عدد الأشخاص الذين تم إعدامهم، وتتراوح التقديرات بين ٣٠ و٧٠٠ ألف، فقد تم تدمير الوثائق في جاسينوفاك ولم يبق على قيد الحياة سوى عدد قليل جدًا من السجناء، ولكن على سبيل المثال هناك دليل على اختفاء ١٧ ألف يهودي هناك، وبغض النظر عن الأعداد تبقى حقيقة أن جاسينوفاك هو أكثر الأماكن سيئة السمعة في تاريخ الشعب الكرواتي – الأوشفيتز الصغير المصنوع محليًا والمحلي والخاص بنا – وأن دينكو ساكيتش كان قائده.

وبعد الحرب تم إعلان ساكيتش كمجرم حرب غيابيًا من قبل محكمة يوغوسلافية، ولكن لم يتم تسليمه يومًا، ووفقًا لقصته الخاصة فقد قضى بضعة أشهر في النمسا بعد الهرب إليها؛ حيث كان هناك ليساعد بافيليتش على الهرب إلى إيطاليا، ثم غادر إلى الأرجنتين حيث عاش في سعادة دائمة وقد قضى معظم حياته هناك كمواطن مسالم يدير مطعمًا مع بعض الأصدقاء، وهو الآن يشغل نفسه بكتابة مذكراته آملاً في تصحيح التاريخ.

وقد التقينا بالفعل بهذا الرجل، مجرم الحرب، في بهو فندق ألفير في بيونس آيريس بعد بالضبط خمسين عامًا تقريبًا من مغادرته زغرب حيث كانت هناك صحفية كرواتية تحاوره في مقابلة لجريدتها، وقد كانت صحفية مشهورة وكطفلته المدللة كانت جزءًا من حاشية الرئيس تودجمان في زيارته الأولى إلى الأرجنتين.

والآن لدينا جميعًا فكرة محددة عن الهيئة التي ينبغي أن يكون عليها مجرم، وخاصة مجرم حرب، ونحن نتخيل نظرته الغريبة إن لم تكن الحقيرة، والتي يمكنك اكتشافها بالدراسة المتعمقة للتعبير على وجهه أو عينيه على سبيل المثال، وقد كنا ننظر لشيء ما في مظهره والذي سوف يكشف عن عقله الإجرامي، فقد كنا نعتقد أن كل شيء سوف يكون أسهل كثيرًا إذا كنا نرى بالفعل أن شخصًا ما شرير، ولكن التاريخ يوضح الوقت ومرة أخرى هذا الشيء لا يمكن اكتشافه في مظهر أي شخص، ولتأخذ أدولف ايكمان هذا الرجل القصير الطبيعي الشكل، ثم ماذا كتبت عنه هانا أريندت "الشر شيء عادي." أعدت كلماتها إلى نفسي بينما نظرت إلى الصورة الأخيرة للسيد ساكيتش والمنشورة جنبًا إلى جنب مع المقابلة، وهو اليوم رجل في الرابعة والسبعين من عمره ويرتدي بذلة مدنية ويبدو كموظف بنك متقاعد أكثر مما يبدو ضابطًا سابقًا أو مجرم حرب، وقد كتبت الصحفية حتى عن كيف بدا هو وزوجته منعزلين ومفقودين في بهو الفندق، وهي تزعم أنه كان واضحًا أن لديهما العديد من الأعضاء أو على الأقل أشخاص لا يشاركونهما الرأي، وهي ترى أنهم أشخاص دون وطن، ويمكنك القول إن لديها فهمًا محددًا وحتى متعاطف معهما.

أنا أعرف كيف تشعر حين تلاقي شخصًا ما مثل ساكيتش، وإذا لم يكن الشخص مزعجًا جدًا بالنسبة إليك (والذي عادة لا يكون كذلك، على النقيض إلى حد ما) فأنت تميل لنسيان ما تعرفه عنه – أنه متحرش بالأطفال أو قاتل أو سادي أو مجرم، ولكنك تنظر إلى الوجه الذي أمامك وترى أنه عصبي أو منعزل أو يتعرق – أو ساحر أو مسلي، وما تميل لرؤيته هو بكل بساطة إنسان آخر، وبشكل ما يريحك الاتصال الشخصي، وفجأة تجد نفسك تفكر، أليس من المحتمل أن هذا الرجل قد قام بذلك، فقط انظر إليه، يا لها من ابتسامة بريئة! وإذا كنت أقف مكان تلك الصحفية الكرواتية ربما حاولت التركيز على يديه، تلك اليد التي قامت بالفعل بقتل الشعب، ونحن نعرف أنه في العاشر من مايو: "كان هناك صمت قاتل عندما مرت خمس دقائق دون أن يخرج أحد وحينها غضب ساكيتش وأطلق النار على أول سجينين في الصف " ووفقًا لقصة شاهد عيان كان أحد الناجين من جاسينوفاك وفي الأيام القليلة التالية أعدم ساكيتش بنفسه سجينين آخرين.

يمكنني تخيل يده بينما تخرج المسدس ثم توجهه نحو رأس السجين، وقد شعر بالتأكيد بالمعدن اللطيف البارد مقابل راحة يده المتعرقة المبتلة، أو ألم تكن راحة يده تتعرق؟ رصاصة واحدة ثم أخرى هل كان الأمر سهلَ الفعل؟ هل كانت مهمة سريعة أم جعلها

السجين تعيسة بصرخاته؟ هل كان هناك كمية ضئيلة من الدماء، أم تدفقت الدماء حتى وصلت إلى زيه المبجل؟ وبماذا شعر السيد ساكيتش في تلك اللحظة بعينها عندما كان سيد الحياة والموت؟ هل كان يشعر بالقوة أم بالرضا أم بالراحة أم بلا شيء على الإطلاق؟ لم يتم سؤال هذه الأسئلة ولكنها كان ينبغي أن تسأل وبالنسبة إلى ما تم سؤاله عنه كان السيد/ ساكيتش يجيب أنه "كان يؤدي وظيفته وأن جاسينوفاك لم يكن بالتأكيد مصحة ولكنه لم يكن أرض تعذيب أيضًا كما يصوره الصرب."

ثم ماذا كانت وظيفته إذا لم تكن وظيفة قاتل وجلاد؟ تقول الصحفية: "هل كنت جلادًا يا سيد ساكيتش؟" نحن نعرف أنها سألت هذا السؤال لأن هناك علامة استفهام في نهاية الجملة كما لو كان هذا سؤال حقيقي، وكما لو كانت مهتمة بالرد، ولكن الأمر يبدو كمزحة؛ لأننا لا نتوقع شيئًا منه سوى الآنكار، وتكون مستعدًا لذلك بالفعل بواسطة نبرة المقابلة، وها هو يقول "لا بالطبع لا." وربما ينقر بأصابعه على الطاولة في ملل، فكونه ضابطًا في دولة كرواتيا المستقلة وقد كان يؤدي واجبه نحو وطنه، وكرد على هذه الأسئلة، ربما لن يقول شيئًا أكثر من ذلك ولن يعترف بذنبه، ولكن هل سيغير هذا اسم أو طبيعة الأفعال التي ارتكبها في جاسينوفاك وفي تلك اللحظة بعينها؟ وبكل وضوح هو يعتقد أن ذلك صحيح وأن ما فعله كان مبررًا بالكامل، وإذا كان هناك أي شيء فالسيد ساكيتش صريح ونزيه فيما يتعلق بمشاعره وماضيه عمومًا وبقدر ما اعترفت الصحفية، وليس دون إعجاب بذلك "فما زال مخلصًا تمامًا لأفكاره."

ولكن ماذا يعني ذلك بالفعل، أن مجرم الحرب هذا، القاتل والخاسر السياسي، ما زال يكرس نفسه لأفكاره حتى هذا اليوم؟ وأنه فخور بما فعله، بل وربما يفعله مرة أخرى؟ وبهذا الصدد لم تسأله المراسلة بالفعل سؤالاً واحدًا وجيهًا، فهي تسأل السيد ساكيتش إذا كان يشعر بالخجل أمام أولاده فيجيب "لا أنا لا أشعر بالخجل بالعكس أشعر بالفخر وهم أيضًا فخورون بي.... وقد أقوم بهذا مرة أخرى." ولكن الصحفية لم تضغط عليه أكثر من ذلك فهي حذرة ولا تصر على التفاصيل.

وأنا أتفهم غالبًا موقفها الصعب، فسوف يكون فظًا للغاية بالنسبة لهذا السيد اللطيف الذي وافق بكل أدب على منحها مقابلة، أن تزعجه بالتفاصيل، وقد كان يمكنه رفض المقابلة في المقام الأول، ومن ثم لا يكون لديها سبق صحفي على الإطلاق، فتخيل أنها إذا بدأت في الإصرار على بعض التفاصيل البشعة مثل هذه الموصوفة من قبل نفس السجين السابق: "كان هناك عشرة منهم معًا وقد وضع

جندي اوستاشي رصاصة في رأس كل منهم، وكان هناك سجين ما لم يمت على الفور فتم إطلاق النار عليه مرة أخرى، و مع ذلك ما زالت تظهر علامات تدل على أنه ما زال حيًا، وعليه أخرج الجندي سكينًا وقطع عنق السجين وملأ يده بدم السجين وشربه أمامنا، السجناء الآخرين – ربما حتى يستمد القوة من الرجل الذبيح."

فماذا قد يحدث إذا اقتبست تلك الكلمات ونقلتها إلى السيد ساكيتش؟ ومما كانت خائفة؟ من أن يبدأ في الصراخ فيها أو إهانتها أو ربما حتى تهديدها – أو قد يقوم فقط برفض الاتهام بإشارة من يده؟ ومهما يكن السبب فقد قررت أنه ليس هناك حاجة لاستفزازه أكثر من ذلك، وبجانب ذلك كانت مقتنعة بأن أسئلتها مستفزة كفاية بالنسبة للأشخاص الذين يفهمون، فهي ليست محقق شرطة، وكل هذه القصص -حتى إن كانت صحيحة- ربما تكون فقط حوادث منعزلة، وهذه القسوة تحدث في جميع الحروب وترتكبها جميع الجيوش – انظر مثلاً للحرب البوسنية الآن.

هذا ما أتخيل أنها تفكر فيه بينما تجلس هنا تواجه مجرم الحرب هذا وتعطيه فرصة للدفاع عن نفسه، حيث كان هذا بالضبط ما تفعله، ولم يكن لدي سوى شك واحد: ليس واضحًا لي ما إذا كانت تعرف ما يتحدث عنه هذا السيد ذو الشعر الرمادي، وهل قرأت يومًا ما حقيقة واحدة أو شهادة لشاهد واحد من جاسينوفاك قبل أن تدعه يذهب بهذه البساطة مع اعتذارات عن الجرائم الجماعية التي ارتكبها النظام الفاشي لدولة كرواتيا المستقلة والتي ارتكبها هو بنفسه؟ ربما، وفقط ربما، بالرغم من أن هذا الصعب التصديق، تشاركه الرأي في أنه "لم يكن هناك تصفية جماعية في جاسينوفاك، وإذا أخذت في الاعتبار طول المدة التي كان فيها المخيم هناك وعدد الموجودين فيه، وأن الوفيات كانت طبيعية وعادية سوف يكون هناك دائمًا ثلاثة آلاف سجين في المخيم."

لم تكن الصحفية تستطيع الحصول على اعتراف من السيد ساكيتش بذنبه وهذا واضح، ولكنها كانت تستطيع أن تواجهه بشهادة أو وصف أو وثائق حتى من أجل المحاولة ومن أجل التوازن ومن أجل الحقيقة، وعندما يقول السيد ساكيتش "لقد كنا نتعامل بإنسانية تجاه السجناء...[جاسينوفاك] كان مؤسسة مبنية على القانون وكان هؤلاء مذنبين بالتدمير والتنقيب في الدولة الكرواتية وكانوا خطرين على السلام والنظام العام ولذلك تم إرسالهم إليه" ،، ربما كان ينبغي على الصحفية أن تسأله كيف كان يعتبر هؤلاء النساء والأطفال خطرين على الدولة ويتم إعدامهم على الفور أيضًا؟ أو ربما كان يتعين عليها قراءة قصة شاهد عيان آخر عليه: "أمام مصنع

طوب بجانب مصنع كهربائي قديم ترقد هناك جثث هؤلاء الذين تم رميهم من الطابق العلوي للمصنع.... كان هناك سجين ضعيف الجسد يجري أمامي في خوف مميت يتبعه جندي أوستاتشي طويل مع قضيب كبير من الحديد وهو يصرخ "لا يمكنك الهرب مني ولحسن الحظ لم يرني، وعلى بعد خطوات مني كان هناك رجل عجوز يصرخ: "دعني فقط أصلي للرب أولاً!" ولكنه سقط على الأرض فورًا وجمجمته محطمة.

وبدلاً من ذلك تركت السيد ساكيتش يروي قصته ويدافع عن نفسه ويبرر جرائمه وجرائم حكومة دولة كرواتيا المستقلة كما لو أنه كان مجرد شاهد على هذه الأوقات، ومن ثم تركته يستمر، وربما ليس هذا ما قصدته وربما تخيلت المقابلة بشكل مختلف وأعدت جميع الأسئلة الصحيحة القوية له في الليلة السابقة ووضعتهم في الورقة التي أمامها الآن، ولكن عندما تناولت شرابها مع السيد ساكيتش في المساء المبكر تبخرت فجأة الأسئلة التي قصدت سؤالها في الطبقة الرقيقة من هواء البهو المكيف وسط الهمهمة اللطيفة للأشخاص الذين حولهم، كما كانت زوجته أيضًا تجلس هناك – هل يمكن وهل ينبغي لأحد أن يحرج رجلاً أمام زوجته؟ ليست هي من يجب أن نلقي عليه اللوم فهي لم تفعل شيئًا ولم تعرف كثيرًا عن مهام زوجها أو أخيها وعن واجبهم تجاه الوطن وكيف قاموا به، وكل هذا حدث منذ فترة طويلة فقد مرت خمسون سنة، يا إلهي، خمسون سنة! ربما قامت الصحفية بجهد ولكنها كانت في موقف ضعف بسبب المناخ ككل الذي كان بالفعل ودودًا جدًا.

وبالرغم من ذلك فقد قررت أن تقوم بمحاولة أخرى لترضي ضميرها لذلك سألته إذا كان ينام جيدًا، وقد حدث ذلك في منتصف المقابلة، وقد قصدت أن يكون السؤال صعبًا وحتى غير لطيف، ولكن في هذا السياق بدا ساذجًا ولطيفًا ودون جدوى وقد أجاب "أنا أنام كطفل." وهو يضحك تقريبًا في وجهها ، مثل طفل!! هذا ما كان يقوله بالضبط هل من الممكن أن يكون العكس صحيح؟ ربما قد قال "تراودني كوابيس، فأنا أحلم بتعبيرات وجوه السجناء بينما يسقطون على الأرض، وأحلم بأن شخصًا ما يطلق النار علي وأني سجين وأنا أرى جثثا منتفخة تطفو على سطح النهر؟ لا، أبدًا فبعد كل ما قاله يمكنني أنا كقارئة أن أقول أنه بالفعل ينام جيدًا دون تأنيب ضمير ودون ندم.

وينبغي أن يكون ذلك الذروة الأخلاقية والدرامية للمقابلة، ولكن الصحفية لم تكتشف ذلك، لذلك استمرت في شحوبها والأسئلة التي يتم صياغتها بأدب شديد كما لو أن السؤال السابق وإجابته لم يكن

لها نتيجة على الإطلاق ولا صدى ولا معنى، ولم يكونوا كذلك لأنهم ضاعوا بعدها فيما تلاه؛ فالكلمات التي تبادلوها لم تكن سوى كلمات خفيفة وفارغة تطير بينهما مثل الفراشات البيضاء.

لم يكن ينبغي أن يكون هناك أية أسئلة إضافية بعد هذا السؤال ولا حوار أكثر من ذلك، وبعدها ربما يكون لدى القارىء وقت كاف لإلقاء نظرة على هذه الكلمات وتصور السيد ساكيتش كما لو كان في فيلم، وكأنه يعد نفسه لنوم طفولي بريء تمامًا، فها هو يرتدي بيجامته ويغسل أسنانه وينظر لصورته في مرآة الحمام ولا يرى أي شيء يقلقه، وفي السرير يرسم الصليب من أجل روحه لأنه ما زال يصدق أن لديه واحدة، وحتى الآن ربما يفهم القارىء أن هذا الرجل العجوز فقد روحه منذ وقت طويل جدًا.

وليس فهم إجابات السيد ساكيتش أو حالته العقلية إلى حد ما صعبًا بالمرة، فمن المفترض أنه لم يمتلك فرصًا عديدة للحديث إلى العامة خاصة للصحافة الكرواتية والتي تعد الوحيدة التي تهتم به (والوحيدة التي تهتم بمقابلته)؛ لذلك كانت هذه فرصته الوحيدة لتعديل السجل وتبرئة ساحته، ولم يكن مفاجئًا أن يرى نفسه ضابطًا يؤدي واجبه ويعمل لمصلحة الدولة الكرواتية، حتى إذا كانت دولة فاشية، وحتى إذا يوقع أوامر بالإعدام الجماعي، ولم يقم بنفسه بالمشاركة فيهم، وقد سمعنا هذه الإجابة في السابق، وقد كان ذلك تبرير السيد ساكيتش الوحيد المحتمل، فهو لا يؤرقه حقيقة أن الفاشية كانت أكثر الفترات رعبًا في تاريخ البشرية، ولكن لا، فهو يدافع عنها، فهل يتعلم الشعب يومًا؟ لا ليس شعبًا كهذا.

والسيد ساكيتش، قائد أحد مخيمات التعبئة، مكان الإعدام الجماعي، هو رجل مسكين لأنه سجين لمنطق تبرير جريمته، وهو يستحق كإنسان الشفقة؛ لأنه لا يمكنه الخروج من هذه الدائرة، ولكن ليس الغفران، وقد كانت حياته كلها عبارة عن سلسلة هزائم، فهو لم يكن قادرًا على الهروب من ماضيه حتى إذا أراد ذلك، وهذه هي عقوبته بشكل ما، وإذا أراد شخص ما الاستماع لما عليه قوله سوف يقوله بالطبع، ولكن لماذا تريد تلك الصحفية مساعدته في مسح يديه من دماء الماضي؟ يبدو أن هذه مشكلتها، ولكن الأمر ليس كذلك فهذه مشكلتنا جميعًا.

تم نشر هذه المقابلة في فبراير ١٩٩٥ وغالبًا في نفس يوم الاحتفال المهيب بالسنوية الخامسة للنصر على الفاشية في أوشفيتز، وقد كان الناس في كرواتيا في موقع فريد لقدرتهم على قراءة مقابلة مع قائد جاسينوفاك يمدح فيه مخيم التعبئة في الوقت نفسه الذي كان فيه أعضاء من الحكومة الكرواتية في أوشفيتز يقدمون الإجلال للضحايا،

والذي لم يتم تقديم مثله إلى ضحايا جاسينوفاك، وربما لم يكن هناك أي احتفال في جاسينوفاك لأنه كان جزءًا من المقاطعة التي يحتلها الصرب في ذلك الوقت، ولكن لم يكن هناك حتى ذكرى رسمية لضحايا جاسينوفاك في زغرب العاصمة الكرواتية فلماذا لا؟ كما شرح دينكو ساكيتش نفسه: "إذا لم توجد دولة كرواتيا المستقلة خلال سنوات الحرب لم يكن ما حدث في يوم الثلاثين من مايو ١٩٩٠ ليحدث ذات يوم [اليوم الذي تم فيه تأسيس الدولة الكرواتية الجديدة والذي يعد الآن عيدًا قوميًّا] فدولة كرواتيا المستقلة كانت المؤسسة التي تم إنشاء كرواتيا الحالية عليها.

إذا كان يقول الحقيقة، فإن كرواتيا الحالية هي استمرار لدولة كرواتيا المستقلة الفاشية، وحيث أن لا أحد في الحكومة قام بإنكار ذلك فبالتأكيد لا يقول السيد ساكيتش ذلك إلا لأنه يعرف جيدًا أن لا أحد سوف يجادل فيه، وهذا بالفعل ما يحدث حين تعيد الحكومة ذكرى ١٩٤١-١٩٤٥ فقد يرى ذلك في التعديل الرسمي على التاريخ وعن طريق إعادة اعتبار الأوستاشي وفي النصوص وفي أسماء الشوارع وفي اللغة وفي الاحتفال بالكتاب والأبطال ومكافأة آخرين من تلك الفترة، وأخيرًا في تشجيع أيديولوجية الدم والأرض، ولم تكن هناك حاجة لرد فعل رسمي على هذه المقابلة، فلم يتم إصدار أي بيان من قبل أية مؤسسة في الدولة، لا من قبل أكاديمية العلوم ولا معهد التاريخ المعاصر ولا نقابة المحامين ولا مجموعات حقوق الإنسان ولا أحزاب المعارضة ولا حتى من قبل أية مؤسسة ثقافية أو مهنية بهذا الصدد، وربما يكون عذرهم أن هذه المقابلة لم يتم نشرها في الصحافة التابعة للدولة، ولكن لم يبدو الأمر كأنهم يبحثون عن عذر على الإطلاق، فلم يكن لأي منهم، باستثناء قليل من المثقفين المنعزلين وصحيفة واحدة فقط، رد فعل على التصريحات الرئيسية للسيد ساكيتش بأنه لم يكن هناك حالات إعدام جماعي في جاسينوفاك، وأن الدولة الكرواتية الجديدة هي استمرار لدولة كرواتيا المستقلة الفاشية، وربما لم يشعر أحد بالحاجة إلى الرد.

هذا هو أكثر الأمور إزعاجًا في القضية ككل، فهل يمكنك أن تتخيل في ألمانيا الحالية مقابلة منشورة مع هنريك هيلمر يقول فيها: "أنا فخور وسوف أفعل ذلك مرة أخرى وليس هناك شيء للخجل منه، ولم يكن هناك أي عمليات إعدام جماعي؟ وهذه هي الزاوية الوحيدة التي أعتقد أننا يمكننا النظر منها إلى كلمات السيد ساكيتش ورد الفعل عليهم في كرواتيا.

بجانب كل ذلك أعلن مجرم الحرب مميز الشكل أيضًا نيته في زيارة وطنه السنة المقبلة، ولماذا لا؟ فلا يبدو أنه عرضة لأي خطر

بخصوص اعتقاله هناك، والاحتمال الأكبر أنه سوف يرحب به من قبل أعضاء الحكومة، ومع ذلك أنا واثقة أن هذا سوف يأخذ شكل عشاء سري في إقامة الرئيس الخاصة أكثر من أن يفرش له السجادة الحمراء علانية، يا لها من خسارة لأنها قد تصبح صورة ثالثة لطيفة لتلك المجموعة الحزينة والمخجلة: جنرال شيوعي وقائد فاشي، مشهد شاعري للمصالحة القومية في كرواتيا الحالية

obeikandl.com

... من يخشى زوجة تيتو؟

في أوائل ربيع ١٩٩٤ كنت أجلس في مطعم في تيرانا مع إلير خوجة الابن الأكبر للديكتاتور الشيوعي الألباني الراحل أنور خوجة، وفي هذا المساء عندما رأيت إلير للمرة الأولى في بهو فندق دايتي بطوله وقوته بدا كما لو أنه الصورة طبق الأصل من أبيه، ولم أكن الوحيدة التي لاحظت التشابه الشديد بينهما، فبينما كنت أمشي في الشارع كان الناس يحيونه ويصافحونه ويسألونه عن حاله، فكان يهز يديه وهو يرثي حاله "كيف أنا؟ لقد أخذت الحكومة الجديدة الشقة التي كنت أحيا فيها مع عائلتي ونقلونا إلى مخزن مصنع فارغ في المحيط الخارجي ولا أنا ولا زوجتي كان لدينا وظيفة وكانت جوازات سفرنا مرفوضة."

كانت هذه الشكوى سببًا في اجتماعنا فقد أراد إلير خوجة أن يعرض قضيته ويجذب انتباه منظمات حقوق الآنسان الدولية، وقد تم الحكم على أمه نجمة خوجة، وإرسالها إلى السجن، ولكن لم يتم توجيه أية تهم إلى ابنيها وابنتها، ومع ذلك تم إنكار حقوقهم كمواطنين دون تفسير، ويا لها من مفارقة أن يناشد إلير خوجة منظمات حقوق الآنسان، هكذا فكرت بينما يشرح لي إلير بالتفصيل جميع المتاعب التي حلت عليه منذ محت التغييرات الديموقراطية دولته، أنه إلير خوجة الذي كان أبوه أحد أكثر الطغاة ذوي السمعة السيئة في أوروبا الشرقية، كما كان محل التساؤل أن إلير نفسه ربما لم يكن يعرف شيئًا عن مخيمات العمل الإجبارية والسجناء السياسيين وأعداء الدولة الذين اختفوا دون أثر، وحتى اثنين من أصدقاء طفولته الذين نشأوا معه في مجمع الفيلات الخاص بصفوة الحزب الشيوعي -أبناء رئيس الوزراء ميميت شيحو الذين انتهى بهما الأمر في السجن بعد انتحار أبيهم المزعوم في ١٩٨١، ومع ذلك هاهو إلير نفسه يناشد دولة يحكمها القانون باحترام حقوقه كمواطن وكإنسان

وكمواطن في ألبانيا الديموقراطية غير متهم بأية جريمة كان لديه كامل الحق في فعل ذلك، ولكن لسوء الحظ دون أي جدوى، فقد سمعت أنه لم يحصل على جواز سفر، وأنه وضع بعدها ببضعة أشهر تحت الإقامة الجبرية بسبب مقابلة هاجم فيها الحكومة.

في الدول الشيوعية السابقة الأخرى لم يكن هناك فضائح مماثلة، وآخر الحكام الشيوعيين كانوا إما قتلوا (مثل نيكولاي وإلينا شاوسيكو) أو ماتو (مثل إريك هونيكر) أو إذا كانوا لا يزالون أحياء، عاشوا في هدوء (مثل تودور زيفكوف) وينطبق ذلك على أولادهم أيضًا فمونيكا جاروزيلسكا تعمل صحفية لمجلة تفوي ستيل وحفيدة زيفكوف تدير متجرًا ووفقًا لها تعول نفسها وجدها وحتي نيكو شاوسيكو ابن الديكتاتور الروماني تم الإفراج عنه من السجن منذ فترة طويلة وهو الآن يدير عملاً، فالحكومات الديموقراطية الجديدة على علم بأنها لا يمكنها استخدام الطرق الشيوعية- باستثناء ألبانيا وصربيا.

منذ وفاة زوجها عاشت يوفانكا بروز زوجة تيتو في فيلا في ديدينجي محاطة بالحراس الشخصيين وبتصريحهم تخرج في مناسبات نادرة، وهي لا تملك الفيلا ولكنها لا تدفع إيجارًا لها فكيف يمكنها ذلك بينما لا تأخذ معاشًا زوجها؟ تستمتع يوفانكا بروز بإحسان الدولة الصربية بالرغم من أنه مفروض عليها، فهي لا تملك أية بطاقة هوية أو جواز سفر لذلك لا يمكنها مغادرة البلاد، وبعد سنوات من حياة كهذه قامت على الأقل بتدبير المال الكافي لشراء ملابس وأشياء خاصة لاستعمال اليوم الواحد، ففي باديء الأمر لم تمتلك حتى فستأنها الذي ترتديه.

هذا النوع من التحفظ على الدولة يسمى عادة السجن أو على الأقل الإقامة الجبرية ولكن يوفانكا لم تقدم يومًا لمحاكمة ويحكم عليها ولا حتى تم اتهامها بأي شيء ولكنها حرمت بكل بساطة من حقوقها كمواطنة وكما قالت في مقابلة حديثة مع صحيفة أجنبية "لم يتغير أي شيء بالنسبة لي في السنوات الخمسة عشر الأخيرة" وبالفعل لم تغير الحكومة الصربية أي شيء فما زال الشيوعيون المتحولون يحكمون البلاد وموقفها دليل على ذلك – مثال نموذجي للطريقة الشيوعية في التعامل مع العدو الداخلي – وفي دولة يحكمها القانون ينبغي إما أن يتم محاكمتها والحكم عليها بالسجن أو الإقامة الجبرية أو تتمتع بنفس حقوق المواطنين الآخرين في الدولة، وبالفعل إذا كانت الشائعات عن كونها تآمرت ضد الديكتاتور العظيم تيتو صحيحة فينبغي أن يتم الاحتفال بها كبطلة في صربيا الحالية.

ولكن بدلاً من إعلان التهم كانت حالة زوجة تيتو عرضة لشيء آخر: الخوف من مواجهة الماضي فإذا لم يتحول الماضي إلى لغز يستطيع الأشخاص أصحاب السلطة التلاعب به لمصلحتهم، إذًا يجب أن يتم نسيأنه أو محوه أو تدميره أو حتى احتجازه ويجب ألا يسمح للشهود بالحديث؛ لأن ذلك قد يكون خطيرًا، ويوفانكا بروز تعد شاهدًا هامًا على التاريخ ولا شك أن لديها معلومات قد تسبب مشاكل لهؤلاء الذين في السلطة بالرغم من أنه بالحكم من خلال التجارب في الدول الشيوعية السابقة من المحتمل أن تكون مرعوبة من مجرد الحديث، ولكن الناس في السلطة يفضلون بوضوح إبقاءها في عزلة وتجريدها من كل حقوقها لمنعها من إخبار القصة فقط في حالة حدوث شيء، ولم يكن لديها أطفال ليقاتلوا من أجلها، كما أن منظمات حقوق الآنسان الدولية لديها الكثير للتعامل معه في منطقة البلقان بالفعل، وكانت صورة صربيا في بقية العالم سيئة جدًا لدرجة أن حالة يوفانكا بروز قد تجعلها أسوأ، ويبدو أن كل شخص في صربيا يبذل قصارى جهده لينساها، كما يحاولون جاهدين نسيان الماضي القريب بأكمله.

في البلقان يبدو التاريخ مجرد مادة خام يتم إعادة تدويرها لإنتاج ألغاز يومية، وقد تمت إعادة كتابته مرارًا وتكرارًا – في الواقع في الحقبة الأخيرة من قبل نفس الأشخاص، وفقط العدو هو من يجب أن يتم التعامل معه بطريقة متطرفة دموية، حتى إذا كان ذلك يعني تدمير حياتك الصغيرة وسيرتك الصغيرة وحتى ماضيك.

ويمكن للمرء أن يرى أن ذلك ضروري بالنسبة لمن في السلطة إذا أرادوا الاحتفاظ بتلك السلطة، ولكن الأشخاص العاديين يجعلون أنفسهم لذلك هدفًا سهلاً للتلاعب من قبل الحكومة، وهذا يعني أن جميعنا نخفي فزعًا ما من يوفانكا بروز الشاهدة غير المرغوب فها المغلق عليها في زنزانة ضميرنا.

... اجتماع لا ينسى

في السابع من أغسطس عام ١٩٩٥ نشرت لندن تايمز خريطة توضح تقسيم البوسنة بين كرواتيا وصربيا رسمها الرئيس الكرواتي على ظهر قائمة طعام (أو ربما منديل) أثناء مأدبة انعقدت في لندن للاحتفال بالسنوية الخمسين لنهاية الحرب العالمية الثانية، وبينما تساءل العالم بأسره عن كيفية ارتكابه هذه الزلة بتقديم المخططات، كان عليه أن يكتشف ذلك بعدها بشهرين فقط عن طريق استعادة كراجينا، ويمكنني أن أتخيل بكل سهولة كيف حدث ذلك.

وبينما كان مستريحًا وسعيدًا لكونه مدعوًا إلى مثل هذا الحدث الهام (كان يخشى ألا يتم دعوته بسبب سمعة كرواتيا في العالم الغربي لإعادتها النظام الفاشي في وقت الحرب الخاص ببافيليتش) كان الرئيس تودجمان يدردش مع سياسي العالم وقد جعله هذا يشعر بشعور جيد لأنه يؤكد أنه واحد منهم، فصحبة الرجال العظماء مثل كول وميتيراند وميجور وهورد تناسبه تمامًا، وإذا نظر حوله يمكنه رؤية أنه ليس أسوأ منهم، وربما يكون أفضل حتى فهو يرتدي بذلة غالية مصممة خصيصًا، وكونه طويلاً ومشربًا بالحمرة ورشيق من لعب التنس مع شعره الرمادي الكثيف يجعله أصغر كثيرًا من عمره الحقيقي، فهو في الثالثة والسبعين ولكنك ربما تعطيه خمسةً وستين عامًا، كما أن آسنأنه مثالية ويتحدث الآنجليزية أو نوعًا من الآنجليزية كما ربما يقول البريطانيون من وراء ظهره، وعلاوة على ذلك فهو ليس فقط رئيس إحدى الدول الأوروبية المستقلة حديثًا ولكنه أيضًا مؤرخ ومثقف مما يجعله أكثر تميزًا عن العديد من رفاقه الضيوف في هذا التجمع المهيب.

يلقي الرئيس تودجمان نظرة أخرى على صالة الطعام في مبنى البلدية، وكان الطعام جيدًا بشكل مدهش على اعتبار أن هذه هي

إنجلترا فقد أحب اللحم البقري المشوي ولحوم العجول مع الصوص الأصفر، وها هو يمكنه أن يشعر بدوم بريجنون يسري عبر أوردته، نعم فهو راض عن نفسه ويشعر بالأهمية ولماذا لا يكون كذلك؟ لقد حقق الكثير جدًا في خمس سنوات فقط وفي الواقع لا يمكنه التفكير في أي شخص سواه استطاع تحقيق هذا فقد كان طريق طويل من منصبه كجنرال متقاعد ومؤرخ منشق حتى يصبح قائد أكبر حزب معارض، وفي النهاية أول رئيس منتخب للجمهورية الكرواتية الجديدة، وغالبًا كل ما حققه أثناء القتال ضد المعتدين الصرب أصابوا دولته بالشلل ولقول الحقيقة كان هناك حرب أخرى قادها ضد البوسنة بالرغم من أنه يفضل أن ينسى هذه الأخيرة وفي الواقع لقد نساها بالفعل ولكن العالم لم ينسها يومًا.

آه ، العالم، يفكر تودجمان أن العالم يتذكر ما يريد نسيأنه وينسى ما يريد تذكره، أيضًا انظر إلى أفضل رجال الدولة والسياسة فيه وهم يشربون وينمون ويتآمرون ويحاكم كل منهم الآخر وإذا كان تودجمان قد تعلم شيئًا في السنوات القليلة الماضية فهو أن المرء يجب ألا يبالي كثيرًا بالعالم ، بالتأكيد لا فالمرء يجب أن يعتني بأموره الخاصة، ومن المفارقات أن تودجمان تعلم ذلك الدرس من عدوه سلوبودان ميلوسيفيتش وها هو يفكر، سرعان ما سأصيبهم بالدهشة جميعًا وأظهر للعالم كله من أنا، بينما يتناول كأسًا آخر من الشمبانيا من على صينية فضية.

وبعدها يقترب منه بادي أشداون وقد كان تودجمان يفضل أن يتم البحث عنه من قبل رئيس الوزراء جون ميجور بدلاً من قائد ديموقراطي ليبرالي صغير، ولكنه في مزاج جيد اليوم ولا يمانع في ذلك كثيرًا فبالنسبة له من المهم أن يكون مهمًا لذلك عندما سأله أشداون أن يشرح له ما يحدث في البوسنة (فماذا سوى ذلك قد يسأل عنه أشداون أو أي شخص آخر؟) يرى تودجمان أنه من الطبيعي أن يوضح للرجل الانجليزي ما سوف يحدث وقد يأتي السؤال من جاسوس صربي أو صحفي أو الملكة نفسها فهذا لا يعني شيئًا؛ لأنه دائمًا متحمس لشرح الأشياء إلى الناس بسبب أنه مقتنع بكل بساطة بأنه يعرف أكثر من أي شخص فهو كاهن لإنجيله الخاص، وهكذا يكون بالطبع مضطرًا لتفسيره للجميع، وبالطبيعة لا يمكنه احتمال المقاطعات والتصحيحات ولا ذكر أية وجهات نظر معارضة فقد يخرجه هذا عن توازنه، وعندما يخرج عن شعوره – حسنًا من الأفضل ألا تكون في الجوار، على الأقل هذا ما يقوله تابعوه المقربون عنه، لذلك كإجابة لسؤال أشداون أمسك تودجمان بقائمة طعام من

على الطاولة وأخرج قلمه الذهبي الذي كان هدية من كرواتي ثري يعيش في شيكاغو (أو ميونيخ أو تورنتو) وشرع في رسم خريطة.

هل كان أشداون يتوقع في تلك النقطة معرفة خطة سرية؟ وهل كان يتوقع أي شيء أكثر من رد عام مهذب على سؤاله؟ بالطبع لا، ودعنا نتخيل على سبيل المرح أنه في مناسبة مماثلة في مايو ١٩٤٥ سأل شخص ما الرئيس روزفلت عما كان ينتوي فعله مع اليابان وأجاب "حسنًا سوف أقوم بقصف هيروشيما وناجازاكي في ثلاثة أشهر بالضبط من الآن بسلاحي السري الجديد الذي يسمى القنبلة النووية"، صحيح أن تودجمان ليس روزفلت واسترداد منطقة كراجينا وتقسيم البوسنة بينه وبين ميلوسوفيتش ليس مثل إلقاء قنبلة نووية، ولكن تبقى حقيقة أن لا يقوم أي رئيس بفعل شيء كهذا بخصوص رسم خريطة لمخططاته لأي مار.

وبينما يميل على الطاولة كان تودجمان يحمل تعبير تركيز جاد على وجهه كجنرال قبل معركة مصيرية، وكانت هذه العادة موروثة من الأيام الخوالي عندما كان أصغر جنرال في جيش تيتو، وكان مضطرًا لإبهار الناس بوجهه القاسي أكثر من عمره وخبرته، فقد كان نوعًا من المفوضين الشيوعيين المسئول عن الحملة الإعلانية، وكونه يعرف كل هذا عن تودجمان كان أشداون يتساءل بالتأكيد ولو للحظة عن كيف من الممكن أن يتحول شيوعي متحمس إلى متعصب للقومية، ولكن بينما يشاهد تودجمان وهو يرسم لاحظ تودجمان وقفته المتصلبة وتصلب جسده الذي لا يمكن حتى لدوم بريجنون تهدئته فلم يكن هناك شيء عفوي في هذا الرجل ولا شيء مبهج حتى، وبالنظر إليه ربما يصل إلى أشداون أن هذه التركيبة بالتحديد، تصلب كل من جسد وعقل تودجمان المسممة بأيديولوجية في عمر مبكر، هي الإجابة على لغز تحوله، فلم يكن هناك في الواقع أي تحول على الإطلاق، فالأفكار قد تغيرت من الماركسية إلى القومية، ولكن ما بقي بالفعل هو حبه للأيديولوجية نفسها، وهذا يجعله مؤرخًا خسيسًا؛ حيث أنه يبالي بالعلم أقل مما يهتم بالدعاية لأفكار محددة، وعلى الجانب الآخر هذا ما يجعله قائدًا وإن يكن نوعًا خطرًا وديكتاتوريًا من القادة والذي لن يتردد يومًا أو يكون لديه شكوك في الشيء الصواب الذي ينبغي فعله، وهو يؤمن بشدة بالقومية الكرواتية، ولكنه يؤمن بنفسه أكثر من أي شيء آخر.

يا له من رجل غريب فقد جادل في كتبه في عدد اليهود الذين تم قتلهم خلال الهولوكوست في أوروبا، وعدد الأشخاص الذين قتلوا في مخيم التعبئة الكرواتي في جاسينوفاك، وكان حاضرًا عند افتتاح

متحف الهولوكوست في واشنطن، ربما يكون هذا ما يسأله أشداون لنفسه، وعقب الحركات السريعة لقلم تودجمان الذهبي ويده الرقيقة ربما يفكر أشداون في كيف يقوم تودجمان، دون أي خجل على الإطلاق، بتعيين ابنه كنائب رئيس المخابرات العسكرية كما لو كان يدير دولة بنفس طريقة إدارة عمل العائلة أو كيف يصبح ابنه الآخر، وأيضًا ابنته أغنياء بسبب صلتهم به وكيف حتى أصبح حفيده صاحب بنك يجب أن يتساءل المرء عن كيف يكون من المحتمل فعل كل ذلك دون أية عواقب سياسية إذا لم تكن كرواتيا نوعاً من جمهورية المحسوبية الأوروبية.

والآن يبدأ تودجمان بإنجليزيته المتلعثمة في الشرح إلى أشداون لكيف سيحصل على السيطرة على كراجينا بينما ستبقى توزلا وجورازدي وسلوفينيا الشرقية صربية ويصبح أشداون مهتمًا فعلاً بما يقول تودجمان لأنه لم يعد يشرح ما حدث، ولكن ما سيحدث في الجزء محل القتال في هذا العالم، ولكن بشكل ما ولأنه هو نفسه سياسي لم يكن يستطيع تصديق ذلك بالتأكيد، فلماذا يخبره تودجمان بما ينتوي القيام به بالفعل؟ لا يمكن أن يكون مجنونًا ومتغطرسًا وواثقًا من النفس في قوته لهذه الدرجة، ولأنه لا يعرف تودجمان جيدًا فربما يعتقد أن تودجمان يتخيل ويلعب بفكرة أخذ كراجينا وتقسيم البوسنة، التخيلات والتفكير المتمني كما يتمتم ربما إلى نفسه مقررًا ألا يولي أي اهتمام لكلمات تودجمان فماذا قد يكون التفسير العقلاني بالنسبة لهذا الرجل في إخباره بالضبط بما يخطط للقيام به؟

يلقي أشداون نظرة أخرى على وجه تودجمان ويرى أن التعبير على وجهه – العابس والنحيف والشفاه الصغيرة- لا يتغير فهو يبدو مثل دمية مهانة وهناك شيء ما كريه في عبوسه كما لو أنه كان يرتدي قناعًا لا يمكنه إزالته فهو قناع قد تحول إلى وجه حقيقي وبالرغم من أن الناس يقارنوه بتيتو، إلا أنه ليس لديه حس المزاح ولا يسهل التعامل معه كذلك الداهية العجوز كما أنه ليس لديه أية كياسة أو لباقة.

وحتى الآن لا بد أن أشداون قد لاحظ شيئين بخصوص وجه تودجمان لأن كل شخص يلاحظهم على الفور، أولاً أنه ليس قادرًا على النظر إليك في عينيك مباشرة، فعيناه تتحرك مثل الزئبق وهو يعطيك انطباعًا أنه ينظر إلى العدم ويسمع صوته فقط كما لو كانت هوية المستمع غير مهمة وهو لا يعقد حوارات، ولكنه يتحدث فقط ويمكنك رؤية هذا بشكل أفضل في التلفاز فهو لا ينظر إلى الكاميرا أبدًا والسياسي الحديث لا بد أن يكون على علم -وإذا لم يكن فلا بد أن يشير إليه شخص ما بذلك- أنه يتعين عليه النظر إلى الكاميرا

والتظاهر بأنه يقوم باتصال عن طريق العين مع المشاهد فعليه أن يقوم بخلق علاقة شخصية مع المشاهد لإقناعه وإغرائه وضمان صوته ولكن تودجمان يتجاهل الكاميرا فبالنسبة له هي لا تهم على الإطلاق، وفي فعله ذلك يتضح أنه سياسي من المدرسة القديمة والذي اعتاد أن يتحدث أمام حشود الشعب في الميادين أو الصالات الكبيرة المصممة من أجل تجمعات الحزب الشيوعي فعينيه لا تشكل فارقًا هناك حيث لا يراهم أحد وما يعني حقًا هو نبرة صوته ووضعه وإيماءاته.

السمة الأخرى البشعة في وجه تودجمان هي ابتسامته فهي ليست حتى ابتسامة حقيقية، ولكنها نوع من التشنج المؤلم يجعله يبدو متهكمًا وحتى ساخرًا خاصة حين يحاول الابتسام فما ينتجه هو ابتسامة متكلفة وليس من السهل لأي شخص أن يتعايش مع هذا النوع من الوجوه بشكل أقل كثيرًا مما يعانيه سياسي، ولكن تودجمان يدير الأمر بشكل جيد جدًا، وبالرغم من ملكه لسمات قد لا تؤهله بكل بساطة إلى سباق حقيقي على الأصوات في دولة غربية وكان لديه نجاح مدهش كقائد في بلاده، ويبدو أن دول ما بعد الشيوعية تفضل الشخصيات الأبوية على الممثلين الديموقراطيين، وهو مناسب جدًا لهذا النموذج.

أنهى تودجمان الآن خريطته ويشرح بصوت الواقع إلى أشداون أن لديه موافقة ميلوسوفيتش التكتيكية على خطته بأخذ كراجينا ومعها أجزاء من البوسنة، ولا بد أن أشداون مندهش بشكل أكبر أن تودجمان لا يحاول الكذب بخصوص علاقاته مع ميلوسيفيتش أو عزت بوجوفيتش الذين يدعوهم باحتقار معلن، أصوليين اسلاميين، أو حتى إخفائها، ويبدو واضحًا أن تودجمان ليس بيروقراطيًا ولا دبلوماسيًّ، فهو مقتنع أيضًا بمهمته التاريخية في القلق بخصوص هذه الأمور، وبمجرد أن أخبره دبلوماسي أمريكي على نحو ساخر إلى حد ما والدموع في عينيه: "سيدي الرئيس أنا مقتنع أن لديك مهمة تاريخية لأمتك." التفت تودجمان إلى زوجته قائلاً "اسمعي أنيكا إلى ما يقوله السفير كذا!"

فمن يظن نفسه؟ تشرشل أو روزفلت أو ستالين؟ ربما يكون هذا ما يسأله أشداون لنفسه وهو يتطلع إلى هذا الرجل الغريب أمامه، حيث كان أشداون دون شك مندهشًا أن يرتكب أي سياسي هذا الخطأ الفظيع وربما لم يقدر سمات تودجمان الرئيسية: خيلاؤه؛ فتودجمان ليس سياسيًا فالسياسي لا يفعل ذلك أبدًا لأن تلك قد تكون نهايته ولكن كيف يفترض أن يفكر هذا الرجل في ذاته عندما يقول رئيس البرلمان الكرواتي أنه أول قائد كرواتي منذ ٩٠٠ عام؟ ولا

عجب أن يكتسب تودجمان نوعًا من عقدة المسيح، فقد اختارته العناية الإلهية لقيادة أمته لتخرج من العبودية الشيوعية الصربية، وربما يقوم كل ليلة قبل الذهاب إلى النوم برؤية تمثال لنفسه في الميدان الرئيسي في زغرب، وحبه للمشاهد التاريخية معروف جيدًا فهو دائمًا يعبر عن نفسه في مئات إن لم يكن آلاف السنوات من عمر الحلم الكرواتي بالاستقلال، فقد تحررت ماسلينكا بريدج لمدة ١٠٠٠ سنة قادمة، ويمكنه ببساطة تصوير نفسه كجزء من مخطط الألفية للأمور وبينما يقدم خططه المستقبلية لشخص غريب تمامًا يتصرف تودجمان بشكل طبيعي وفقًا لصورته الخاصة عن نفسه.

ألم يكن خائفًا أن يصبح ذلك الرسم على ظهر قائمة الطعام معروفًا لبني وطنه ويثير ذلك غضبهم عليه؟ أشك أن هذه الفكرة قد وردت له على بال، وفي مذكراته عن أنهيار يوغوسلافيا يصف وارين زيمرمان آخر سفير أمريكي في يوغوسلافيا كيف كان يتناول الإفطار ذات مرة مع تودجمان هذا المدرس غير المرن كما يدرجه كجزء من شخصية تودجمان الذي عين اثنين من مساعديه الذين صاحباه في الاجتماع في مناصب رفيعة جدًا، وفي هذه النقطة لا توجد استشارات مع رئيس الوزراء ولا قرار برلماني، وهو سلوك استبدادي بالفعل ففي تاريخه تجد اتجاهًا امبرياليًا ومسيحيًا يدعمه شرطة قوية وجيش أقوى وبضعة أصوات من الاحتجاج لن تشكل فارقًا وعدم ذكرها لن يغير شيئًا.

لاحظ كل شخص حبه للأزياء الرسمية المرصعة بالذهب والسلاسل الذهب والزينة والأوسمة التي تم ابتكارها حديثًا بواسطة فريق من المصممين يخلقون رمزية قومية جديدة وهو يشعر أنه يرتدي جيدًا في زي المارشال الأبيض مع التسعة أوسمة التي منحها لنفسه موضوعة على صدره، ومع ذلك كل ما حققه هو أن يصبح محاكاة حية لما قرأه الشعب وأعجب به، فهذه الهيئة المثيرة للشفقة تجعله يبدو ككاريكاتير لديكتاتور أمريكي جنوبي، فمن سوى تودجمان يقوم بهذا في أوروبا اليوم؟ كانت نزعة التمثيل والرداءة توحي- ليس فقط بالذوق السيء لممثل نموذجي للمقاطعة- ولكن أيضًا نوع من السخرية القاسية لطاغية شرقي فلا اللاجئون ولا الفقر ولا الحرب ولا سفك الدماء ولا شيء على الإطلاق يمنع تودجمان من عرض أزيائه الرسمية ولا أوسمته ولا سلطته ولا طموحاته غير المتناهية.

ويبدو كما لو أن ما يفتقده هذا السياسي من الدرجة الثالثة الآن هو تاج وصولجان وهناك شائعات في كرواتيا أنه سوف ينصب نفسه بانًا – "لقب مثل الدوق" فمن سيوقفه إذا قرر فعل ذلك؟ فرغم كل

شيء هو من ابتكر المسرح وكتب النص وأعطى نفسه الدور الرئيسي في المسرحية التاريخية عن الاستقلال، فماذا قد يمنعه من أن يصبح ملكًا لهذا العالم الأسطوري؟

ربما أكثر ما يثير الحزن هو طمع تودجمان الرهيب في الحياة فيمكنك أن تشعر أنه يبتلعها في جرعة كبيرة، ولأنه أتى إلى الحكم متأخرًا فقد كان جائعًا لكل شيء يمكن أن تجلبه السلطة – المجد والمال والطاعة والأهمية- لدرجة أنه لا يمكنه التوقف عن استخدامهم بنهم شديد وحيث يدرك أن لديه عشرة سنوات على الأكثر لتذوق كل هذا فليس لديه أية رغبة في الآنتظار، ولكنها فقط يحصل على ما يستطيعه وقتما يستطيع.

يا لها من دولة فقيرة! لا بد أن هذا ما يفكر فيه أشداون بينما يمنحه تودجمان نظرة قاسية وغير مترابطة بالرغم من العبوس الملتوي الذي يدل بوضوح على أنها ابتسامة، ولأنه مشتاق أن يعلمه أنه يفهم أخيرًا كل شيء، يأخذ أشداون القائمة وعليها الخريطة ويتظاهر بدراستها وفي تلك اللحظة يقترب شخص ما من تودجمان ويبتعد أشداون مع خريطة في جيبه وهي تذكار غريب لاجتماع لا ينسى مع الرئيس الكرواتي.

بعدها بثلاثة شهور وجدها مرة أخرى فقط ليكتشف ما أثار دهشته وهو ظان ما كشف عنه تودجمان كان الحقيقة بعينها.

... ما زالت قدمك تلتصق بالطين

عندما أنظر من نافذة حجرة النوم لا أرى شيئًا، فالشقة تقع في الطابق الرابع من مبنى في شمال ستوكهولم وحجرة النوم تطل على باحة، وهناك الواجهة الرمادية لمنزل الجيران والمصابيح الصغيرة تضيء في النوافذ وشاشة التلفاز التي تعكس ظلال أشخاص يتحركون في الأجزاء الداخلية الدافئة من شققهم، وحين أنظر لأسفل أجد هناك باحة.

ومنذ وضعت عيني لأول مرة على الباحة لم أحبها ودون أي سبب محدد باستثناء كونها كئيبة وحتى عدوانية على الأقل بالنسبة لي، وقد استغرقت بعض الوقت لأعرف السبب، فقد كانت الباحة خالية والمنطقة المتماسكة التي تبلغ مساحتها حوالي ٢٠ أو ٣٠ مترًا كانت نظيفة وأنيقة بشكل لا يحتمل، فلم يكن هناك قطعة ورق واحدة يمكنك رؤيتها هناك ولا ملقط غسيل وقع من شرفة أو لعبة منسية، وليس هناك سوى بضعة دراجات مركونة بشكل مرتب في موقف دراجات، وليس هناك أي نشاط أو حياة أو أصوات أطفال يلعبون بالكرة بعد المدرسة ولا حتى في الصيف، وأنا أشك أن هناك أحد في السويد يعرف بعد الآن سبب وجود هذه الباحة ففراغها هو علامة مميزة للحياة الحضرية في هذه المدينة.

ولأجيال حتى الآن لم يكن الناس هنا يحتاجون لتحويل باحاتهم إلى امتدادات لشققهم لتخزين إمدادات الطعام هناك وتنفيذ إصلاحات صغيرة وتنظيف سجاداتهم وتعليق ملابسهم حتى تجف وترك أطفالهم ليلعبوا فيها أو ببساطة الدردشة والنميمة مع الجيران، فالعيش في مدينة غربية حديثة يسهل الدخول إلى جميع الخدمات الضرورية كما يتضمن أيضًا احترام قوانين الخصوصية المكتوبة وغير المكتوبة، ففي مدينة يمكنك اختيار من تريد مشاركة فراغك واهتماماتك معه سواء في مكتب أو مطعم أو جمنازيوم، بينما في

القرية لا يكون لديك هذا الخيار، لأن كل منكم يعتمد على الآخر بشكل مبالغ فيه، كما هو الحال أيضًا في المدن غير المتحضرة بالكامل في أوروبا الشرقية وهذا هو سبب أن المساحة العامة مثل الباحات تبدو مختلفة في المدن الغربية.

وعندما أفكر في الباحات تطفو صورة أخرى على سطح أفكاري، في يوم السبت ورجل يغسل سيارته وهو يرتدي بزة زرقاء من النايلون ورجل آخر ربما يكون ميكانيكي يقوم بإصلاح آلة، وربما لجني بعض المال الإضافي، كما أن هناك إمرأة تعلق الملابس حتى تجف والأطفال يلعبون والعديد من كبار السن يجلسون يشاهدون فقط ما يحدث، بينما تتجول قطة في كسل بينهم جميعًا، وعبر النافذة المفتوحة يمكنك سماع أصوات تصرخ وكارتون معروض على التلفاز وموسيقى شعبية وصوت مكنسة كهربائية كما أن هناك رائحة شوربة لحم وفطائر محلاة وبطاطس مطبوخة وتفهم على الفور أن هذه الباحة مساحة متنفس حيوي للأشخاص الذين يعيشون في الشقق الصغيرة جدًا والمزدحمة للغاية، والتي غالبًا ما تتضمن ثلاثة أجيال تحت نفس السقف فهي المكان الذي يمكنك فيه ممارسة جميع أنواع النشاطات المختلفة: مشاهدة القمر أو اللعب أو التشاجر ومع ذلك تعد باحة نظيفة كهذه في ستوكهولم مثالية لمجتمع متمدن ومثالية لنا أيضًا كما أعتقد.

وبالنسبة لغريب فلنقل سويدي، ربما يمنحه مشهد هذا السبت الشرق أوروبي انطباع أننا نعيش متقاربين جدًا من بعضنا حتى أن حياتنا شفافة جدًا وقد يذكره هذا بالحياة في مجتمع صغير عائلي ملتزم بالحياة معًا وهو ما قد يكون صحيحًا تمامًا فمقارنة بستوكهولم أو أية مدينة مثلها تعد حياتنا الحضرية مختلفة فهي أقرب إلى الحياة في الريف فالمدن في أوروبا الشرقية وخاصة في البلقان ما زالت محتفظة ببعض من نكهة القرية في كل من مظهر وعادات سكانها.

وفي الحقيقة إذا ألقيت نظرة أقرب على مدينة كهذه سوف تكون مضطرًا إلى سؤال نفسك: أين تنتهي القرية وتبدأ المدينة؟ ربما جميع المدن حتى هؤلاء في أوروبا الغربية تتفتت عند الأطراف وتصبح تدريجيًا أفقر وأكثر تهدمًا في طريقة تفككها إلى المناطق المجاورة لها، وخط التقسيم بين المنطقة القروية والحضرية يصعب تحديده هنا بكل بساطة، فأنا أعرف أين تنتهي مدينة ستوكهولم لأنني يمكنني رؤية ذلك من نافذتي، كما أن صديق لي يعيش في آخر مجمع في المدينة في شقة في مبنى أصفر من خمسة طوابق والذي كان في الماضي حين كانت هناك حدود حقيقية، منزلاً للجمارك كما أن هناك

غابة سميكة ومعتمة وخلفها الضواحي التي غالبًا ما تختفي خلفها وليس هناك منازل عائلية أو مواقع بناء كما اعتدت.

وذلك المشهد لنهاية المدينة الواضحة (أو بدايتها) يسحرني بسبب عدم اعتيادي عليها فالقاعدة العامة في الجزء الذي أعيش فيه من العالم هي أنه كلما تقترب من المحيط الخارجي كلما يقل الأسفلت والأسمنت الموجود في الباحات، وفي الشوارع ويزداد الحطام ومواقع البناء وكذلك الفقر كما أن المنازل تصبح أصغر كما لو أنها تم دقها في التربة وتنحني بين مجمعات شقق غير مشطبة بالكامل تظهر في منتصف العدم.

لذلك لم أكن أعرف جيدًا أين تنتهي زغرب أو وارسو مثلاً وعندما كنت مدعوة إلى شقة صديق في جزء جديد من وارسو وانتهيت إلى مكان ما ربما يكون أيضًا بلجراد أو صوفيا وقد بدا المكان كمدينة طلبة كبيرة ، أو نوع من قرص العسل للناس، حيث لم تكن الشوارع ممهدة بعد وما زالت لا تحمل أسماء وليس هناك أعمدة إضاءة في الشوارع ولا متاجر ولا علامات حضارية باستثناء السيارات المركونة، وعندما سألت صديقتي عن سبب انتقالهم أخبرتني أنهم قضوا ثلاث سنوات في موقع البناء هذا محاطين بالرافعات والبلدوزرات بسبب عدم وجود المال المطلوب لأنهاء العمل.

تتطور المحيطات الخارجية لمدننا عادة في جميع الاتجاهات بطريقة غريبة مثل كائن حي مريض أو نسيج ممزق غير متصل، فناطحات السحاب الشبحية في الأفق وأكوام أنقاض البناء ومصانع الصناعة الثقيلة مع منازل العائلات في المنتصف ومستودعات القمامة والأكواخ والمزارع والمساحات الصغيرة من الحدائق المزروعة بالخضروات وكامل القرية التي تم ابتلاعها منذ وقت طويل والمتصلة إذا كنت محظوظًا بطرق طينية تنتهي إلى مكان ما في الحقول.

وكلما ابتعدت عن مركز هذه المدينة كلما أصبحت الباحات ممتلئة أكثر بالحياة، وفي باحة كهذه في المحيط الخارجي سوف تجد برميلاً صديء مليء بمياه الأمطار من أجل الخضروات في الحديقة لأن المياه الجارية مكلفة جدًا وهناك حطام سيارة نصف مغطى بالعشب والإطارات وقطع من الأثاث القديم والأصيص وكل ذلك محشور بين أكواخ خشبية متعددة الحجم غريبة المنظر ولكنها مهمة حيث إن هذه مخازن مرتجلة ومغطاة عادة بالقطران يتم الاحتفاظ فيها بإمدادات الطعام خلال الشتاء: أكياس البطاطس والكرنب والتفاح والجزر والبصل ولأن الناس أقل تقيدًا بنظام المدينة فهم يبنون قليلاً هنا وقليلاً هناك وفقًا لاحتياجاتهم والبناء دون ترخيص غير قانوني بالطبع، ولكن مفتشي البناء من مجلس المدينة لا يأتون هنا كثيرًا

وبالتالي هناك المئات من المنازل المخالفة مع حجرات إضافية موضوعة في المؤخرة ومبنية في الليل لإقامة عائلة تكبر والجراجات المصنوعة من الصفيح والملاجيء من ألواح الخشب وسقائف العمل وصناديق كمنازل للأرانب والدجاج، وتدريجيًا وغالبًا دون وعي وفرت هذه الباحات الفرعية طريقًا لمزارع البطاطس وزرائب الخنازير والاسطبلات وفجأة دون مغادرة المدينة يومًا نجد أنفسنا في الريف فوجود الحيوانات والرائحة النتنة من الدجاج والأرانب والماعز والخنازير (خاصة الخنازير) ربما ينبغي أن تعتبر الحدود الحقيقية.

ربما تعتاد على الوحل في المناطق الريفية، ولكن في مدن أوروبا الشرقية يعود شبح أصولك الريفية ليصيبك، وأنا أتذكر أنها أمطرت مبكرًا هذا الصباح في بوخارست، وبينما أمشي نحو السوق في المركز فكرت أني لن أصل هناك أبدًا حيث كانت الشوارع مغطاة بالطين وكانت منزلقة جدًا لدرجة أنه كان من الخطير أن تمشي هناك، كما بدا تحت الأسفلت خلال الثقوب والشقوق - بنيًا ولزجًا ودهنيًا مثل القاذورات، وقد حاولت أن أراقب خطواتي وقفزت بين البرك، ولكن لم يكن هناك طريقة للفرار، فقد التصق بنعل حذائي وهو يندفع ليصل إلى ركبتي، وبينما اقتربت من السوق شعرت كما لو أني انغمست في شوربة بدائية لأعود إلى أصول الحياة وأتحلل إلى عناصر أساسية، فقد بدا لي هذا الوحل بدائيًا جدًا ومنتشرًا جدًا وحتميًا جدًا.

وبعد كل تساقط للمطر أو الثلج يعود مرة أخرى، فالطين لا يختفي أبدًا من شوارعنا فلماذا، كما تساءلت في هذا الصباح، أراه في كل مكان؟ بين مسارات الطرق في براج وفي الجداول يمر من نقاط الدخول إلى الصرف الصحي للشوارع في زغرب ووسط مدينة صوفيا وفي براتيسلافا، أنه دائمًا هناك تحت أقدامنا، وعندما يتوقف المطر يجف الطين ويتحول إلى طبقة من الغبار الأصفر التي تغطي الأرصفة والنوافذ والمباني والسيارات وأنت تعرف أنه هناك ولكنه فقط ينام تحت الطرق المرممة وبين الحصى ينتظر فرصته لغزو المدينة؛ لذا فعليك أن تعرف أنك لست في مأمن عند خروج الطين فهو يتبعك إلى منزلك وحتى الدرج والمصعد وحتى على سجادة غرفة المعيشة.

يبدو الأمر وكأنه نوع من المؤامرة فمن وقت لآخر ترتفع التربة من تحتنا لتذكرنا فقط من أين أتينا وتخبرنا أن معظمنا هو فقط الجيل الأول من المواطنين الحضريين فأجدادنا ما زالوا يعيشون في القرى وآباؤنا ولدوا هناك ولكن التربة هي ما نريد نسيانه - الرائحة النتنة والفقر في منزل الجدة والطين على عتبته وفي الحمام الخارجي

وآثار دم الدجاج في الفناء والشكوى بخصوص العمل المضني التي يتم تبادلها على الطعام.

فمن الصعب التخلص من ازدواجيتنا نحو الطين وكذلك من الطين نفسه، وأحد أسباب ذلك هو الطريقة التي تتطور بها المدن فقبل الحرب العالمية الثانية كانت يوغوسلافيا دولة ريفية، حيث يعيش أكثر من ٨٠ بالمائة من سكانها في المناطق الريفية، وكان هذا هو الحال في الدول الشرق أوروبية الأخرى أيضًا بالرغم من أن نسبة القرويين تتنوع بين الدول الريفية النموذجية في البلقان مثل بلغاريا ورومانيا وأكثر المدن الصناعية في وسط أوروبا مثل تشيكوسلوفاكيا، ومع ذلك بعد الحرب ارتبطت الحكومات الشيوعية الجديدة في الزراعة الجماعية للأرض والصناعة الإجبارية على نطاق واسع، وكانت هناك حاجة شديدة للعمال لذلك انتقل الريفيون إلى المدن، والتي سرعان ما بدأت تنمو حتى تستطيع استضافة الوافدين الجدد المتزايدين كما لو أنهم كانوا يحملون أجنة بين أحشائهم، وبدأ البناء على نطاق كبير وغير منظم.

لقد كان الناس الذين يبنون المنازل أنفسهم من بين هؤلاء الذين وصلوا للتو إلى المدن وكانوا عمالاً غير مهرة أو شبه مهرة مع عادات بناء خاصة، ومن أجل البقاء احتفظوا بوظيفتين فقد كانوا يعملون في المزارع وأيضًا في المدينة، وفي وقت الحصاد كانوا يأخذون إجازة مرضية طويلة وهؤلاء الناس ليس لديهم خبرة في البناء ولا دوافع خاصة، وما جعل الأمور أسوأ أنه لم يكن هناك مواد بناء كافية فمال العمال لسرقة الأسمنت والرمل والقوالب والبلاط وأي شيء قد يستخدم لتحسين منازلهم البائسة أو شقق المدينة، ولم يكن لديهم القدرة على الحصول على المواد بطريقة أخرى لأنها إما كانت باهظة الثمن أو غير متاحة على الإطلاق؛ لذلك كانوا يقومون بتهريبها من المصانع ومواقع البناء، وكان يجب أن يتم بناء المنازل الجديدة بأسمنت وطوب غير كاف وهو ما نتج عنه كوارث كما هو متوقع، فبمجرد أن تم إنجاز هذه المباني أو حتى قبل ذلك بدأت في الآنهيار وقد حدث الشيء نفسه للشوارع والطرق المبنية على عجل والتي تصدعت غالبًا وهي إما تم ترميمها أو تركت بثقوب فيها مثل الجروح التي يأتي منها الطين.

وبالرغم من ذلك كان الآنتقال من كوخ قرية إلى شقة مساحتها ٣٢ متر مربع في الطابق الثامن من ناطحة سحب يعد إنجازًا كبيرًا لأية عائلة، فقد كان أفضل كثيرًا من الحياة بجانب زريبة خنازير والبدء في الحفر في حقل منذ الفجر وحتى الغسق، وكانت ظاهرة التمدد السريع ككل تسمى "تقدمًا" وقد وصل التقدم إلى القرى أيضًا

في هيئة طرق مرصوفة والتزويد بالكهرباء وقد كنت أستطيع القراءة بالكاد حين كتبت لي جدتي أخباراً بأن الطرق الجديدة قد وصلت أخيرًا إلى قريتها في جزيرة كرك وقد كتبت ذلك بفخر شديد، ولكني أذكر الدفء الذي كان يصيب قدمي العارية من الشوارع الصغيرة الممهدة بالصخر والتي تم وضعها باتجاه الميناء ولم أكن سعيدة جدًا بذلك التقدم، فأنا أذكر أيضًا السياسيين المحليين البدناء الذين كانوا يذهبون في الستينات إلى كل قرية بعد بناء الكيلو متر الأول من الطريق الجديد حتى يعلنوا افتتاحه بقطع الشريط وتناول لحم الخروف المشوي بعدها وفي ذلك الوقت كان يتم قياس التقدم بكيلومترات الأسفلت وأعداد المصابيح الكهربية.

يمكنني تخيل الراحة التي لا بد أن الأسفلت يجلبها، فلا بد أن المقصود منه هو أن تكون قادرًا على المشي فوق السطح الناعم الرمادي في حذائك الجلدي دون أن يتسخ، ولا بد أن كل شخص انتقل من القرية إلى المدينة، أو حتى هؤلاء الحضريين الذين يزورون القرية أحيانًا، قرية في بعض الأحيان هذه الأيام، قد شعر بذلك بنفس الطريقة، فبعد أن تملأ سيارتك بالبطاطس والدجاج والبيض ولحم الخنزير والفواكه وفطيرة تفاح الجدة وتعود مسرعًا وممتنًا للغاية إلى المدينة وأنت تشعر ببعض القذارة حيث تكون على علم بأن رائحة الريف الغريبة قد التصقت بملابسك والطين قد التصق بعناد في حذائك وتفكر أن المدينة هو المكان الذي تنتمي إليه كما يفعل ملايين من الجيل الأول للحضريين.

وقد تفكر أن كونك ولدت في المدينة في الخمسينات قد يكون كافيًا لتأهيلك كشخص حضري كامل الحضرية، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة فنحن لدينا شعور بالازدواجية، بالكره والحب وبالاحتقار إلى والاعتماد على القرية وطينها، ونحن لم نتحرر يومًا من أصولنا الريفية ولا نستطيع ذلك، حتى لو أردنا ذلك لأننا سنموت حينها من الجوع، فالاحتفاظ بقدم واحدة في القرية هو ربما أحد الطرق التي يكون من خلالها الناس في أوروبا الشرقية قادرين على التعايش مع تقنين وعجز الطعام من جميع الأنواع، فعن طريق البقاء على اتصال مع جديك أو أقرباء أبعد في القرية التي أتت منها عائلتك أو حتى مع أصدقاء أو معارف (هناك دائمًا شخص ما هناك يتذكرك!) يمكنك أن تكون متأكدًا من الإمداد بالبطاطس على الأقل وفي الفترة القريبة من الكريسماس عندما يقوم الأقارب الريفيون بذبح خنازيرهم هناك دائمًا لحم كاف ونقانق منزلية الصنع وأيضًا قطعة جيدة من لحم الخنزير المقدد لك لتأخذ بعضًا منه إلى المنزل معك.

تكمن المشكلة العملية في أخذ الطعام إلى المنزل من القرية بالطبع في مكان وضعها ففي منازل المالكين الأثرياء تلاحظ عادة ثلاجة عميقة (ديب فريزر) يتم شراؤها لهذا الغرض، والغالب أنك تقوم بتحويل شرفتك لنوع ما من المخازن لحل هذه المشكلة، ولكن ما زال هذا لا يمنحك مساحة كافية، لذلك يجب عليك دخول الباحة وبناء مخزن إضافي هناك، وعليه تأخذ الباحة شكلاً مختلفًا والمدينة أيضًا.

وهكذا نعود مرة أخرى إلى هنا، إلى الباحة ونحن نجعل المدينة تتكيف مع احتياجاتنا ونلزمها بقواعدنا ونعودها على استضافة عادات السكان الجدد ومن ثم نغيرها، وسرعان ما تنسى القرية البائسة والأقارب هناك والمقبرة المهملة والرائحة الغريبة، فبعد كل شيء قد تغيرت حياتك تمامًا بواسطة المدينة فأنت شخص حضري راقٍ ولديك سيارة وتمشي على الأسفلت، باستثناء وقت المطر حين يخرج الطين ليذكرك، ها أنت بقدم ما زالت تلتصق بالطين فما زلت بعيد بملايين الأميال عن تلك الباحة النظيفة الفارغة في ستوكهولم.

لأن القرية وسيلة للبقاء، وحتى في هذه الأيام ما زالت كذلك.

obeikandl.com

... البوسنة
أو
ما الذي تعنيه أوروبا بالنسبة لنا

لقد كانت أحسن "سارما" تذوقتها على الإطلاق فقد كانت مقطعة وملفوفة فى قطع صغيرة من الكرنب بعناية شديدة حيث تتكون "السارما" من قطع صغيرة من اللحم البتلو مع شرائح البصل وقليل من الثوم والملح والبهارات بالإضافة لبيضة كاملة،هذا وتقدم "السارما البوسنية" بدون أن يصاحبها نوع من الصوص لذلك يقدم اللبن الرائب بجانبها كبديل والذى بدوره يعطيها ذلك المذاق اللذيذ المميز، لقد إعتدت على إعداد "السارما" بنفسى من وقت لأخر،غير أننى كنت أضيف قليلاً من الأرز إلى اللحم كما كنت أقوم بإعداد الصوص من الفلفل الرومى الأحمر وبعض عصير الطماطم وهذا هو ما يميز الوجبة على ساحل البحر الأدرياتيكى من حيث أتيت.

مثل "السارما" فهناك العديد من الأطباق التى تقدم على مائدة طعام الأحد العامرة مثل وجبة"الدولما" و "البريك" وهى عبارة عن فطيرة محشية باللحمة وتجهز منزلياً، بالإضافة إلى "الليزيانكا" وهى نوع آخر من الفطائر المحشية بالسبانخ والجبنة، بالإضافة إلى "الليفابليتى"وهو طبق من اللحم المشوى اللذيذ وفى المنتصف كان هناك رغيف جميل من الخبز المستدير على شكل ضفيرة، وأنت لا تستعمل السكين لإقتطاع جزء من هذا الخبز بل بيديك فقط، وعليك بأكل ما تقتطعه كله، وهذا ليس بالأمر الهين، كما يوجد هناك ايضاً "البقلاوة" والتى يتم عملها بالجوز واللوز والتى بدونها تعتبر المائدة البوسنية ناقصة.

كنا نقيم فى هذا الوقت فى استوكهولم لذا فإن هذه الدعوة للغذاء كانت أكثر من مميزة لأن الأسرة البوسنية كان لزاماً عليها أن تجد

كل المكونات اللازمة لعمل الوجبات اللازمة التقليدية لإعداد الوليمة.وأنا متأكدة أنهم كانوا يعرفون من أين يتم جلب هذه المكونات لأن كل ما تم إعداده كان أكثر من رائع كما لو أنك كنت تتناول وجبتك فى سراييفو

قمت بتوجيه سؤال إلى "فاطمة" الأم والتى أعدت الوجبة بمساعدة الإبنة"أميرة"ذات العشرين ربيعاً،وكان السؤال عن أي نوع إستخدمت من اللحوم فكما هو سائد نصف من اللحم الجاموسى والنصف الأخر من لحم الخنزير؟ فردت قائلة:بالطبع لا فأنا أستعمل فقط اللحم الجاموسفهذا يعطى "السارما"مذاقاً أفضل.

وكان ذهنى قد تطرق إلى أن سبب ذلك أنهم مسلمون متدينون،لكننى سرعان ما آسفت على بناء الإفتراضات بمثل هذه الطريقة. منذ عامين لم تكن مثل هذه الأفكار ترد إلى ذهنى،لكن الآن بعد مضى أربع سنوات من الحرب لم يعد السؤال بريئاً ، حتى و إن كنت تسأل عن طريقة إعداد أحد المأكولات. وبالتدريج منذ ذلك الوقت أصبحنا نفكر جميعاً بشكل مختلف فى طريقة تقسيم الناس بين مسلمين و كروات و صرب،ليس هذا فقط بل أن الأمر إمتد ليشمل مصطلحات الغذاء.هذا ما فعلته الحرب بنا، فقد جلبت لنا وعياً متعصباً وحساسية مفرطة لأن الآنتماء لأمة أو أخرى يمكن أن يحدث فارقاً بين الحياة و الموت.لقد شعرت بمنتهى الخجل لأننى قمت بتصنيف العائلة بشكل تلقائى مما يجعلنى فى كل الأحوال مخطئة.

كان الأب الذى يدعى "زيو" يحتسى البراندى-"الراكيا"-معنا وكان هناك أيضاً الويسكى والنبيذ مقدماً على المائدة.بطبيعة الحال لم تكن هذه العائلة متدينة على الرغم من تأثير الثقافة الإسلامية عليهم مثل غالبية البوسنيين المسلمين.

إن العائلة-"زيو ،فاطمة و أميرة"- قدموا إلى السويد عام ١٩٩٢ عندما إندلعت الحرب فى البوسنة.وقد قامت السلطات السويدية بمنحهم شقة بها عدد ٢ غرفة نوم كما أن الشمس تتخللها أغلب الوقت فى حى

يقطنه العمال فى منطقة جميلة من استوكهولم، كما تم إعطاء بعض المال لتأثيث الشقة،وقد قاموا بإنفاق جزء من هذا المبلغ فى شراء تليفزيون والذى كان أكثر أجزاء الموبيليا التى تبعث على السرور فى غرفة المعيشة إن لم يكن فى حياتهم كلها حيث أنهم أبقوا الجهاز مفتوحاً أثناء تناول الغذاء وكل ما فعلوه هو ب أنهم قاموا فقط بتخفيض الصوت.وقد كان الأب يرمى بنظره طوال الوقت إلى الجهازإنتظاراً لبرامج الأخبار التى يبثها الستالايت حيث كان يشاهد

كلا القنوات الصربية والكرواتية. وقد كان هناك ايضاً جهاز فيديو والذى يعد أحد الأنشطة الرئيسية التى كان "زيو" يقوم بها وقد حصل على مهمة خاصة تبعاً لذلك ألا و هى زيارة صديقه اللاجىء الصربى الذى يعيش فى الجانب الأخر من المدينة،حيث كانوا يذهبون لتبادل أو إستعارة الأفلام من "هوم لاند"-بغض النظر عما يعنيه هذا الإسم فى وقتنا الحاضر.وأياً ما كان ما تعرضه القنوات الفضائية سواء كان ذلك فيلماً أو عرضاً مسرحياً أو حفلاً موسيقياً فسوف يشاهدون كل ذلك..... حيث أنهم لا يستطيعون العيش دون ذلك.....أو على الأقل لنقل أن "زيو"لا يستطيع!

كان "زيو" يعمل فى الخدمة المدنية فى النظام السابق ،أما الآن فهو فى منتصف الخمسينات لم يعد لديه عمل، كما أنه لم يعد يتحمل المسئولية المادية للمنزل كما أنه أصغر بكثير من أن يتقاعد، أنه فقط لا يعرف ما الذى يفعله بنفسه،حتى أنه فجأة فى وسط المناقشة إلتزم الصمت لأنه قد لمح شيئا على شاشة التليفزيون والتى تأخذه إلى عالمه القديم،أو بالأحرى تنحى بعيداً إلى أفكاره الخاصة،حيث كان يجلس معنا مستمعاً ولكنه لم يكن مشاركاً فى واقع الأمر وقد كان يتمتع بجسد جيد، ولكن لم يكن هناك خشب للتدفئة ليقوم بتقطيعه. لم يكن يوجد هناك أية أنشطة تجعله يستفيد بجسمه، فقد كان الأمر أسهل بالنسبة لإمرأة لأنها تجدماً دائماً شيئاً ما لتقوله.وكان عندما يتحدث يبدأ بإبتسامة خجولة كما لو أنه فى نفس الوقت يتندر بعقليته الذكورية فى هذه البلد التى تسير فيها السياسة على ما يرام.لكنه كان ببساطة ينطق دائماً بالصدق. أما عن "فاطمة" فأنها تدير ميزانية البيت تماماً كما كانت تفعل فى البوسنة، فالأمور بالنسبة لها الآن أفضل بعض الشئ لأنها كانت معتادة أن تعمل بوقت كامل بالإضافة لأعمال المنزل.كثيراً ما تفتقد عملها ولكنها لم تفتقد معنى حياتها، فلا يزال عليها أن تبقى عائلتها معاً، كما أن عليها أن تقوم بعملية الطهى وأن تعتنى بالمنزل كما أنها تشارك أيضاً فى دورة مجانية لتعلم اللغة السويدية مقدمة مجاناً من الدولة للاجئين أما بالنسبة لإبنتهم فمشكلات عملية التأقلم مع دولة جديدة هى أقل حدة. ففى خلال أربع سنوات تعلمت اللغة بنفسها وهى الآن فى مرحلة الإعداد لنيل شهادة الثانوية العامة. ومثل أى شاب فى عمرها فإن "أميرة" لديها خططاً ، حيث أنها تريد أن تدرس فى استوكهولم.أما فى الوقت الراهن فأنها تشتغل ببعض الأعمال المؤقتة وتخرج مع أصدقائها ربما إلى صالة الديسكو، وعموماً فأنها لا تفتقد البوسنة بإستثناء بعض الأصدقاء القدامى الذين هاجروا بدورهم إلى أماكن أخرى.

ربما بسبب طبيعة عمل "فاطمة" اليومى فهى تركز على الحاضر وتعتقد أن العائلة يجب أن تستمر إقامتها فى السويد وأن نرى ما ستسفر عنه إتفاقية "دايتون"وإذا كان السلام سيظل متماسكاً فى البوسنة. وهم يدركون تماماً أن فرص إبنتهم لتلقى تعليم أفضل والحصول على وظيفة جيدة فى السويد أفضل بكثير من البوسنة غير المستقرة. وقد جهزوا أنفسهم لتستمر الإقامة فى السويد حتى تنهى "أميرة" دراستها الجامعية إن "زيو" لا يعارض زوجته مباشرة وكيف له ذلك وزوجته تملك الكثير من الأسباب التى تعضد موقفها، لكنك تستطيع القول أن الزوج لو بيده لكان قد ترك هذه الشقة المريحة فى الحال ليجد نفسه بين أصدقائه القدامى مرة أخرى. إن هذا لا يعنى أن الكثير من الأفكار لا تراوده عن أصحابه وإلى أى مدى كانوا قد تغيروا هم أيضاً بسبب الحرب، ولكن على الرغم من ذلك فأنه كان على إستعداد للتخلى عن الراحة و الأمان للحنين

عندما قلت له أنه يتحتم عليه أن ينسى هناك ليبدأ من هنا،أومأ برأسه إدراكاً لأنه إذا فكر أن ينتقل بحياته فبمجرد أن يعود عليه أن يعمل سنوات بكد وإجتهاد،أما فى السويد فقد أعطوه كل شئ هكذا كما قال "زيو".أنه يشعر بالعرفان ولكنه غير قادر على طرح سؤال على نفسه: كم بلد أخري تستطيع أن تفعل ذلك معهم؟ يخالجنى إحساس أن "زيو" يشعر كما لو أنه يشكل عبئاً وهذا لا يمكن أن يكون شعوراً جيداً بأى حال من الأحوال.

أصبح لدى الأسرة الآن غسالة ملابس جديدة فى الحمام وهو شئ لا تراه غالباً فى محتويات المنزل حيث غالباً ما يتشارك السكان فى غسالتين أو ثلاثة فى المبنى وقد أثبت هذا النظام نجاحه بإستثناء أنه يجب عليك أن تحجز ميعاد غسيلك إسبوع مقدماً لتقوم بتنظيف الغسيل. ولكن بسبب عدم معرفة ذلك كان لزاماً على العائلة أن تقوم بشراء غسالة خاصة.

أنه من الصعب أن تكون مجبراً على العيش فى بلد أخرى،وأن تكون مجبراً على تغيير عاداتك،لذا فأنهم يحاولون الإلتصاق بما يعرفونه عندما يستطيعون ذلك فهم يقومون الآن بتنظيف ملابسهم فى غسالتهم الخاصة،كما أنهم يتوجهون سيراً على الأقدام لمسافة تمتد حوالى ٤٥دقيقة أو أكثر قليلاً إلى أن يصلوا إلى السوق حتى يستطيعون الحصول على ما يحتاجونه من مكونات لعمل "الزليانكا و الدولما والبقلاوة"،يحيط بمسكنهم متنزه منظم ومرتب و مجموعة صامتة من الأشجار،أما عن حياتهم فهى مقسمة أو بالأحرى مشتتة بين حقيقتين: الأولى هى البقاء هنا فى السويد أى فى أوروبا و الأخرى

هى العودة إلى الوطن فى البوسنة.وقد أبدى "زيو" إهتماماً بموضوعين أساسيين،أولاً:آخر الأخبار عن إحتمالات تحقيق إتفاق سلام(والتى تعنى بالنسبة له منحه إمكانية أن يعود لموطنه) أما الموضوع الثانى فهو الماضى وكيف حدث لهم كل هذا؟ وكان لديه شبه يقين أن النخبة السياسية هى المسئولة بدورها عن بدء هذه الحرب وليس الناس العاديون مثله.فى أول الأمر تم أخذ الناس إلى هذه الحرب ثم فوجئوا بعد ذلك أن الحرب تصب جام غضبها فوق رؤسهم، ثم بعد ذلك فات الوقت الذى يمكن التراجع فيه. الآن أنا أشعر أننى مثل البلد فقد تم تركى مقطعاً إلى أجزاء، بعض الأجزاء منى لا تزال هناك وبعض الأجزاء هنا كما أن بعض الأجزاء قد فقدت بشكل نهائى.

عندما سألته عما يعتقده فى أوروبا، قام بتحريك يديه بنوع من الإستخفاف كما لو أنه لا يجب أن يهدر الكثير من الكلام فى هذا الموضوع. فقط عندما أقوم بالإلحاح عليه مصرة على أن يصف لى سلوكه تجاه أوروبا بدأ فى حكاية قصة عن منزل خشبى رآه فى منطقة قريبة مؤخراً.هذا البيت الخشبى هو نموذج للبيت التقليدي السويدى،وعلق قائلاً أنه معجب ببساطة تصميم هذا البيت أعتقدت، أنه على أن ألتقط صورة لهذا البيت وأرسلها لأهلى بالبريد،لكننى لم أفعل ذلك فلقد غيرت رأيى،فلأننى أقيم هنا منذ فترة زمنية الآن مما جعل البيت يبدو جميلاً بالنسبة لى لأننى قادر على فهم هذا الجمال، أما فى البوسنة فسوف يعتقدون أنه بيتاً يمثل الفقر. من هو الذى فى ذلك الجزء من العالم الذى أنتمى إليه-أوروبا الشرقية- يبنى منزلاً من الخشب غير الفقراء؟ فالناس هناك يقومون ببناء كتلة سكنية من طابقين من الخرسانة وكلما زاد الحجم كلما كان هذا مدعاة للفخر وبذلك يستطيع جارك أن يرى أنك أنجزت كل هذا و تملكه. هناك إختلافات معينة بيننا وبين أوروبا لكن هناك أيضاً الكثير من سوء التفاهم و"زيو" مثله مثل كثير من أبناء البوسنة قد تمكنوا من رؤية وجهى أوروبا،الوجه الجميل والوجه القبيح.

لقد كان أبناء البوسنة فى غاية السذاجة بشكل مؤلم فقد كانوا يقولون أن أوروبا لن تتركنا ننقسم حتى بعد القصف العنيف على سراييفو و موت عشرات الألاف من الناس، كان البوسنيون لا يزالون ينظرون إلى أوروبا بالكثير من الأمل. ربما كانوا يقولون فى هذا الوقت إن أوروبا يجب أن تفعل شيئاً لإيقاف عمليات القتل.إذا لم تكن تعرف ماذا تكون أوروبا فربما تستخلص أنها لم تكن قارة ولكنها كيان أحادى أو مخلوق قوي.لقد إستغرق الأمر طوال سنوات حرب البوسنة لإدراك أن أوروبا الموجودة فعلاً لم تكن هى إطلاقاً ما تخيلنا

حفنة من الدول المختلفة المصالح ولقد إكتشف البوسنيون ذلك من خلال ترددهم في فعل أي شئ.مئات الألاف منهم إنتهى بهم الأمر في البلدان الأوروبية كلاجئين وهنا بدأت المساعدات.

إذا كان قد تم فرض السلام على البلقان.كان يجب على الدول الأوروبيةأن تقوم هى بفرض السلام لا أن تتركه للأمريكيين فهم-أى الأوروبيون يعرفون البلقان أفضل، فلعدة عقود كان اليوغسلاف يقومون بتنظيف وبناءالمدن الأوروبية كعمالة موسمية.فبأقل القليل من المجهود يستطيع الأوروبيون أن يميزوا بين زغرب و بلجراد أو سراييفو وقد يكون قد سبق لأحدهم زيارة بانيالوكا أو دوبروفينيك.الآن أصبح الأوروبيون ينظرون إلى البلقان كجزء من أوروبا أما في البداية-أعنى بداية الحرب-كانت الأمم الأوروبية تنظر إلى الأمر كمشكلة دلالات لفظية.

إن "زيو" الذي يأكل "السارما" ويشاهد برامج التليفزيون في شقته والذي يعتبر بمثابة المفقود في استوكهولم يعانى بسبب تلك "المشكلة اللفظية" ،لكن توابع هذه المشكلة أيضاً هى عشرات الالاف من المصابين وغير القادرين في البوسنة نفسها. لقد كان من الممكن تجنب هذا ومنع حدوثه في أول الأمر. حتى إذا لم يكن من الممكن منع حدوث الحرب في البوسنة إلا أنه كان يمكن أن توقف قبل إتفاق "دايتون" بكثير و في مناسبات أخري أيضاً،ففي كل مرة كان يتم فيها تهديد الصرب أصبحوا خائفين من إلقاء القنابل عليهم.لقد كان من الممكن إنقاذ حياة الكثيرين كما كان من الممكن منع تهجير ٢ مليون شخص.

تنص إتفاقية "دايتون" على نهاية المعاناة كنتيجة لحرب البلقان وسوف تكون الحدود قد تم تغييرها بالقوة (أسوة بما فعلته الدول الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية)كما تمت عملية التطهير العرقى بدفع مسلمى البوسنة إلى أيدى متطرفي الشرق الأوسط من المسلمين ويمكن إعتبار ذلك كخطأ لن يغتفر.!!

لا يجب أن يتم قتل شخص بسبب إنتماؤه القومى الخطأ أو بسبب لون عينيه "الخطأ" ولكن ستكون المأساة الأكثر فداحة أن يتم قتل الأشخاص لأسباب ليست بهم. إن هذا القدر الرهيب هو تماماً ما حدث للبوسنيين،فقد تم تطهيرهم عرقياً بعد أن بدأت الحرب عليهم بحجة أنهم مسلمون متشددون أصبحوا أصوليين.بالطبع لم يكن هذا صحيحاً ولكنها كانت مجرد حجة للصرب و الكروات للقيام بما أرادوا فعله.لقد كان فعلاً أمراً مثيراً للدهشه أن الدول الأوروبية تصرفت على أساس أن البوسنيين هم فعلاً متزمتين دينياً. لم يكن هناك أي صعوبة في أن تنظر إلى بعض الحقائق البسيطة عن مسلمى البوسنة

لتفهم المشكلة ،على سبيل المثال فهم ليسوا عرباً بل من أصل سلافى وقد تم اعطاؤهم الجنسية أو الصفة المسلمة بواسطة تيتو فى منتصف السبعينيات ليحافظ على التوازن بين الصرب والكروات فى البوسنة على الرغم من أن ثقافتهم ذات تأثير إسلامى كنتيجة للإحتلال التركى والغالبية تمارس الطقوس الدينية الإسلامية.

لبعض الأسباب –أياً ما كانت-كان هناك خوف من صعود المد الإسلامى المتزمت فى أوروبا والذى بدوره ينصهر فى بوتقة واحدة مع الكراهية القديمة فى البلقان وكل ما كان يراد له أن يستشف من هذا هو أن

مسلمى البوسنة فى طريقهم لتأسيس جمهورية إسلامية متزمتة فى قلب أوروبا.لهذا الغرض أصبح البلقان فجأة جزء من أوروبا ولا يمكن السماح لهذا بأن يحدث.لذا فإن مسلمى البوسنة لم يتلقوا أى مساعدة من دول أوروبا بل تلقوها من دول مثل إيران.!

هل كان لديهم أية إختيارات؟إذا كان يتم قتلك كمسلم أصولى على الرغم من كونك أوروبى سلافى غير متدين وتحمل صفة مسلم ومصدرك الوحيد للمساعدة هو الدول الأسلامية مما يستتبع أن تكون مجبراً على أن تتحول إلى الإسلام من أجل أن تعيش.

لقد تحالف البوسنيون مع الشيطان وذلك لأنهم لم يجدوا شخصاً أخر ليتحالفوا معه.بعد ذلك ربما تكون البوسنة قد فقدت أو أختفت فى أوروبا، مثل أوروبا التى أختفت بالنسبة للبوسنيين منذ وقت طويل.

يبدو لى أن جزءاً من المأساةهو أن البوسنيين يعتقدون فى أوروبا ما ليس فيها، فأوروبا لم تتدخل لتنقذهم لأنه لم يكن هناك أوروبا أصلاً لتتدخل. لقد رأوا شبحاً وقد كنا نحن هذا الشبح-الشرق أوروبيين الذين إخترعوا " أوروبا " وقاموا بتكوينها ،راودتهم فى أحلامهم وسعوا فى طلبها.إن أوروبا هذه ما هى إلا خرافة قد خلقناها بأنفسنا ،ليس فقط البوسنيين ولكن أيضاً الشرق أوروبيين،قمنا بذلك.غرباء غير محظوظين، أقارب فقراء، أنها الأمة الطفيلية فى قارتنا.لقد تم بناء أوروبا بأيدى هؤلاء منا-هؤلاء الذين يعيشون على الحافةلأنه فقط من هناك سوف تتولد لديك الحاجة لتزيل شيئاً ما مثل "أوروبا" لتنقذك من عقدك وهواجسك و خوفك لأنه بالنسبة لنا نحن شعب البلقان أكبر مخاوفنا هو أن نترك مع بعضنا البعض لقد تعلمنا لأكثر من أى أحد أخر ما الذى تستطيع أن تفعله لأخيك.

بعد تمضية بعد ظهر الأحد مع "زيو"و"فاطمة"و"أميرة" و أصدقائهم وتناول الغذاء أيضاً معهم شعرت بسخافة موقفهم.ماذا يفعل هؤلاء الناس بإستوكهولم؟هل كان الغذاء الذي كانوا يقومون بتناوله-"السارما ،الدولما،البيتا والتسيفابيتيتشي" هو سبب قدومهم من بلادهم؟الفكرة تبدو مجنونة ،أنا أعرف ذلك،لكن أين نستطيع أن نجد سبباً أخر؟ أنهم لم يبدو مختلفين بالنسبة لى عن الآخرين هنا أو حتى عن الذين قاموا بطردهم من موطنهم. حتى أننا نتحدث نفس اللغة ونفس التعليم ونفس التاريخ على الأقل حلال الخمسين سنة الماضية. كما ان الفروق بيننا فى الثقافات والعادات طفيفة للغاية تماماً مثل الأسماء.ثم هناك أيضاً الغذاء-لذيذ وذو مذاق وأيضاً ذو عبق و حريف-لقد تم وصف الأكل بشكل أو بأخر بأنه "خطأ" لكن إذا كان ما نأكله يقرر من نكون فهذا يعنى أننى يجب أن أكون أنا أيضاً خاطئة.

لقد كان غذاءا حزيناً،لأننا أدركنا أن ما كان "زيو" يطلق عليه "سوء فهم" فى كلا الجانبين ،البوسنى والأوروبى،كان من الممكن تجنبه.

منذ هذا اليوم فى إستوكهولم،أصبح لأوروبا مفهوم أخر عندى. ففى كل مرة أذكر فيها هذه الكلمة أرى العائلة البوسنية ماثلة أمامى، يعيشون بعيداً عن ديارهم ويتناولون الطعام المعد من وجباتهم التقليدية اللذيذة،لأن هذا هو كل ما يستطيعون فعله.الحقيقة الباقية هى أنه بعد خمسين عاماً لا يزال حدوث الحرب أمراً وارداً.كما لا يزال هناك إحتمال تغيير الحدود بالإضافة إلى الإبادة الجماعية الواردة الحدوث. كل هذا يعد كافيا لكى يصيبنا جميعاً بالرعب. والحقيقة أن كل الأوروبيين سواء بسواء قد بهتوا عندما علموا بهذا.لقد شاهدوا كل شئ على شاشات التليفزيون فى غرف المعيشة، لقد شاهدوا الخنادق والقنابل والذبح والاغتصاب، الدماء والدمار،الحرب بكل ما تعنيه أمام أعينهم.لقد عرف الجميع مالذي يجرى فى نفس الوقت من قلب الحرب فى البوسنة والبلقان من قلب المحروسة التى يطلقون عليها أوروبا.

ألا ينبغى وبالتالى ألا يجب أن نسأل ماذا تعنى أوروبا بعد البوسنة؟!!!!!